محمد علي الحوماني

الآتي

في

الجمال
الشعر
الحب

الشعر وليد الحب والحب
وليد الشعور بالجمال



منشورات

خالـــد

في طريقه إلى أذرعـات ، تحت شجرة من البطم وعلى مقربة من « قطنا » جلس يضمّد جراحه، ويكثر من التحديق في أفق الشام، والحنين إلى النيربين . ثم يتناجى ونفسه :

« أوّاه لك يا أسماء !! ما أشقى حياتك بي وأشقاني بنفسي !! كيف تصنعين بالصبية من بعدي ؟؟

عفواً يا ابنة العم !!

لا أشك وقد عرفتِ النفس التي بين جنبيّ ، في أن تتلمسي لي جانباً من العذر أن

غادرت المعركة ولم أمرر بكم للوداع ، فإني لا أحب أن أحمل إليكم غبار الهزيمة على غضون وجه عربي ، فآثرت على قبلة الوداع أن أشم المنديل الذي عصبتِ به رأسي يوم ضيختني بعبير أنفاسك ، وعلى أن أعود إلى فراشي الوثير أن أفترش الترب وأتوسد الحجر بعيداً عن أرض :

(يمرح النذل آمناً في ذراهـــا
وتعاني الأحرار فيهـــا القيودا)[1]

لا أزيدكِ علماً بالدهر يا أسمـاء ، فإنك ممن لم يُعْيِهم غور الدهر سَبراً ، ولا فاتتهم عبره خُـــبراً ، ولست ممن يُلتمس لهم الصبر أو تصاغ لهم جمل العزاء ولقـد كان في الإخلاد إليكم والحياة معكم بُلغة من العيش لهذا الغريب المتشرّد لو أن في طوقـــه أن يغضي على الضيم وهو يسمع ويرى ...

(في ذِمـــام الغُلب من أبطالنا
أنْ نرى الرأس عضواً أشلاً)

---

(١) كل شعر غفل من اسم ناظمه فهو للمؤلف .

(وبعيث العِلج في أبنائنـــا
فيضحّي بهمْ شبلاً فشبـــلا)

أمامك يا أسماء !! أن لا يحول فساد المجتمع دون صلاح ما تُعقبين من ولد . فاجتهدي في تربيتهم بين ثدي رضعت لبانه ، وكنفٍ تفيأتِ ظلاله .

وأمامي أن ألحق بمن استُشهد من إخواني أو أن أجنيَ ثمار العز من رؤس الحراب ، فإن بلغ الجد بأُباة النفوس ساحةً تتحقق فيها أحلامهم فذاك ، وإن أبى الدهر إلا مُناوأتهم فليست بأول غدرةٍ منه ينزلها بالأحرار .

وسوف لا أضن على وفائك يا أسماء بالدموع التي أريقها بين يدي آثامي يوم أسأل عن رعاية حقك ، والقيام بما لك عليّ من واجبٍ في الحياة .

ولولا اجتناب الذام لم يُلفَ مشربُ
يُعـــاش به ، إلا لديَّ ومأكل

ولكنّ نفساً حرّةً مـــا تقيم بي
على الضـيم إلا ريـــثما أتحوّل[1]

(خالد)

ثم عقّب نجيا ...

لا أكذب نفسي ، ولا أجهل عليها ، أحبّ الجاه العريض ، وأطمح إلى المناصب السامية ، لكن لماذا ؟

ألأكون عبد هواي ونفوذي ؟ ثم اللقبُ الفـــارغ والشهرةُ الكاذبة ؟

كلا !! بل لأخدم أمتي وأكون زعيماً عليها بحق :

وإذا اجتمع في المرء خلتان ، حب الوطن وحب الذات ، كان هدفه الأسمى تبوءُ المناصب والعـــدالة في الحكم .

كثير في الأمة من يحب ذاتـه فحسب ، يسعى وراء نفوذه ، لا يبالي وقد ملأ بطنه أن يجوع أخوه ، غيرَ حافلٍ بذل بلاده وهو يرفل في أثواب عزه ، وما ضره أن يتقلب غيره على جمر البؤس وهو حالم بين الأريكة والنمارق .

---

(١) من لامية العرب .

(إلى كم تسود بنـــا عصبةٌ
كبار النفوس صغار الهمم ؟؟)
(متى يفصح الشعب عن حقـــه
فيلفظهم منـــه لفظ العجم[1] ؟)

أما وقد جاشت (ميسلون) بجثث قتلانا فلن تطأ قدماي الشام بعد ، وعلى كرسيّ الحكم فيها دخيل أو خوّن مواطن ، أمامي الحجاز مصدر النهضة العربية وعاهل الامة « الحسين بن علي » ...

(١) العجم جمع عجمة وهي النواة .

أسماء

هتفت بابنتها وهي مذعورة لهول مـــا
تسمع :

أمل !! أمل !!

لا تغوّري بنفسكِ يا بنيــــة . أغلقي النوافذ وخـذي مكانك من اخوتك فقد غصت المدينة بالجند الفاتح ، أو ما تسمعين قصف المدافع وزمزمة البنادق وأناشيــــد العدو الظافر ممزوجة برنين الأيامى ؟؟

رفهي عن اخوتك يا بنية وها أنا ماضية

أتأثر[1] أباكِ فقد أخبرتني إحدى نساء الحي أن أحد الناجين من المعركة يحمل كتاباً منه ، فاحرصي على أن لا يفلت منهم أحد يا أمل .

على أن نبأ القتلى ، يا لهفَ نفسي !! قد أخفت في المدينة كلَّ نابس وأقام في كل بيت مناحة . فلا يسمع العابر في شوارعها غير أنين الثكلى ونشيج العجّز ، يجتاز قصور جيرون قبوراً مجللةً بسواد الحداد . . هذه سنة الطبيعة يا بنية ، وذلك هو شأن القوي مع الضعيف من بني الإنسان .

فتعلَّمي يا أمل !!!

---

(١) تأثره تتبع اثره .

خالد[1]

كم ذا أتقلب على فراش النّعمة ولا عمل لي؟

على أن جلالته عرض عليّ عدة مناصب، وأنا لا أحب أن اقع فيما فررت منه فإني أرى من تنافس هؤلاء العبيد — عبيد الأهواء — على كراسي الحكم واستبداد الملك برأيه وعدم تدبره عواقب أمره ما أوثر معه أن أكون بعيداً عن كل عمل، وربما تلوح لي بارقة أمل أبصر من ورائها

(١) من مذكراته في رحلته الى الحجاز .

مستقبلاً أستطيع معه أن أخدم امتي وبلادي .

وأراني شديد الرغبة في التعرف إلى قبائل البادية ، إنما لا بدّ لي قبل ان أهبط تهامة من الاستشفاء بضعة أيام في الطائف فانه على ما أسمع بلد طيب الهواء رحب الفناء كثير الأنهار والأشجار .

***

في التهاميّ بين رقة النسيم تفلي به أنامل السحر روش الروابي فتترك على نواصيها كجعود الشعر الأشقر ، خطوطاً وتعاريجَ يعطيك تعاقب القسمات منها في الثانية بعد الثانية أشكالاً متداخلة يقف الفكر عند تكييفها ناضب المعين..

وبين لطف الهواء المنبث تتكسر فيه أشعة الشمس فتملأه إكسيراً يموج في الأفـــق ثم يفيض على الآكام والسهول ...

وبين سكون الطبيعة المخيم فوقها بجلاله ــ وكأن صاحبها قطعة من بُغام الضأن وثغاء الإبل ــ حتى إذا ألقى الليل بجرانه فغاص بين التلال أحسست في قلب ذلك

الصمت العميق أنفاس الكواكب تطبع المجرة على لوح السماء ..

وبين رقة الماء المصفق في أيدي النسيم تعتقه الغزالة[1] في راووق الغدير فتبين منها في الظباء وحشيةً وأليفةً ، نشوات يبعثهن وروده لطفاً في الشمائل ورقةً على الشفاه والوجنات ... بين كل ذلك ، في تهامة ، رقـــة الطبع ، وصفاء النفس ، ودماثة الأخلاق ...

لا الهواء المكتظ بالجراثيم يبثه النسيم في الشوارع فيملأ به الصدور ، ولا الأنابيب تجر المياه إلى الحياض فتحول بينها وبين إكسير شعاع الحيـــاة ، ولا الضوضاء المنتشرة في الآفاق ، ليس من كل ذلك ما يحول بينك وبين أن تصغي إلى كلمات التهامي فتاس من ورائها طبعاً أرقّ من نسيمه وقلباً ألطف من مائه ...

***

لا بدّ لي من النزول على حكم الشيخ أبي وسيم . فقد

(١) الغزالة شمس الضحى .

ألحّ عليّ بالإقامة ، رغم إصراري على الرحيل ، ريثما أتبين مخرجاً مما أنا فيه. والشيخ حميد هو أكرم من نزلت بهم من شيوخ القبائل التهامية ، فقد جمع إلى سخائه سعة الصدر وإلى كرم نفسه طيب السجيحة وإكرامَ مثوى النزيل .

لبثت في منزله أسابيع كنت فيهـــا ولم أزل موضع إكرام وتجلّةٍ ، يغدو عليّ (وسيمه) المحبوب كما يروح إليّ بضروب الخدمة يتولاّها بنفسه طرفي النهار وآناء الليل ، على ما فيه من إباء وشمم . والخـــدم قد غصت بهم ندوة أبيه .

بماذا أقابل صنيعه ؟ وأية أياديه أذكر فألهج بشكرها؟؟

خصّص لي بريداً يختلف الى الطائف مرتين في الشهر فيأتيني بالصحف العالمية لأقف على ما انتهت اليه حالة البلاد كما خصص لي أجمل قبة في قصره المشيد على ضفة الغدير في عدوة هذا الوادي الجميل .

وإذا هاجت ذكرى النير بين آلامي حملني على جياده المطهّمة مع ثلةٍ من رجاله يقدمهم شبله المفـــدى وسيم إلى

الطائف حيث الغياض والرياض. فأيَّ أياديه أذكر ؟ وأيها أحق بشكري ؟؟

***

أشرفت من القصر على الغدير ذات يوم فرأيت وسيماً وهو في ميعة شبابه ينشد :

كم وقفةٍ ليَ بين الروض أمطره
دمعي وأنشد قومي أيـــةً ظعنوا
بكيت فيه حياةً كلُهـــا نصب
قضى بهـــا ليَ دهرٌ كلُه إحن
بالله يا نسمات الروض هل بعثت
فيكِ الشذا شامي الفيحاء أم عدن
هيجتِ وجـــد فتىً لم يُدمِ عبرته
منـــذ الطفولة إلا انتِ والوطن
حتى أرى الوطن المحبوب تمنعــه
هضمَ العدى حلبُ الشهباء واليمن

وأذكر أني لم أنشدها أكثر من مرة على مسمع منه

فعجبت لحدة ذكائه وحسن اختياره وأكبرت مستقبل الفتى ورأيت أن من أتم الواجبات عليّ أن لا آلو جهـــداً في تعليمه لقاء ما أتقلب فيه من نعيمهم وما يلزمني تجاهـه من واجبٍ إنساني .

★★★

لم أكن لأميل إلى الوحدة قبل فراقك يا اسماء ..

فقد كنتِ لي سكناً آوي منه إلى جنةٍ سابغة تقيني سهام الدهر وآلام الوحشة بين أهله .

ولم تكن نفسي لتنزع إلى العزلة وأنتِ الى جانبي وبين يديّ حبيبتي أمل ..

أوّاه يا عزيزتي أمل !!!

من أجلكِ أخرج مساء كل جمعة إلى الضواحي حيث مضارب الحي المبعثرة وأتصفح وجوه الفتية فأحنو على الصبي منهم ، وقد تعلقت في جفنيّ عبرة الحنان ..

لا أدري يا بنية ، غير أن الدهر إذا أصاب مقتلاً لا يقف عند سهمه الصائب حتى يفرغ كنانته .

أحببت لك وسيماً يا امل فما أقرب ما فيه ممـــا فيكِ وداعةً ورقة إلى عفةٍ ونزاهة !!

أمّا ابن عمكِ ناظم ، فقد نفضت كفي يأساً منه لمـــا أعلمه فيه من خفةٍ وطيشٍ وغرور ..

وسيم ! وأبوه من أعرق الحجازيين نسباً ، وأسخاهم يداً ، رفيع عماد البيت ، بعيد مجـــال الصيت ، لم يعقب غيره ، تقرئينَ على محياه النجابة والسوْدُد، يجلس إليّ صباح كل يوم لأحدثه عن الشام وحضارتها شاخصاً ببصره إلى الأفق ، تتشكل أسارير وجهه بمـــا تتأثر به نفسه ، فهو ضاحك الديباجة متهلل القسمات مـــا أمعنتُ له في وصف خمائلها الملتفة ، ورياضها الغضة، وقصورها المطلة على الأنهار تنساب خلال البساتين .

وأجمل ما رأيته مصغياً إليّ ومقبلاً عليّ وأنا أحدثـــه عنكِ يا امل فيتوسل إليّ أن أصحبك معي من قابل[1] وهو لا يعــــلم من أمر أبيك شيئاً ، فأبتسم له وأنا أخفي وراء

(١) اي في العام المقبل .

ابتساماتي عبرةٌ تملأُ ما بين جفنيَّ فتمنعني النظر .

***

دخل عليّ صباح يوم وبين يديه الخادم يحمل طعام الصباح فحيَّاني وهو باسم فقلت له ما يضحكك يا وسيم ؟

ـ أضحك لجمال نهارنا العربي أيها الضيف الكريم . وكانت العرب تدعو اليوم الصاحيَ بصفاء سمائه : يوماً عربياً .

ـ وكيف يكون النهار عربياً يا وسيم وهو يعم العربي والعجمي ؟

ـ ربما كانت نسبة العرب اليومَ الصافيَ السماء اليهم مبنية على أنهم أكثر انتفاعاً به من غيرهم لما تعلم من أن حياتهم تتوقف على الانعام والمال السائمة ، وحياة هــذه متوقفة على الانتشار في طلب الكلأ ، وتلبدُ السماء بالغيوم يشعر بالمطر وبهذا تفيض الأنهر وتسيل الأودية فتحبس الرعاء عن السرح إشفاقاً على المواشي .

أو لأن العربي بعيشه الشظف يؤذيه البرد فإذا غامت

سماؤه قطب، وإذا أشمس يومه تهلل فنسبه اليه نسبة كوكب الصبح إلى الخرقاء[1] .

أو لأن خلوص أفقه من أكدار الطبيعة أشبه بخلوص نفس العربي من أدران الحياة لنشأته بعيداً عن الاجتماع حيث الأمراض النفسية .

أو لإعجاب كل فرد بشعبه فهو ينسب كل جميل في الطبيعة إليه ...

إن دقة نظر وسيم في جوابه مكنت الإعجاب من نفسي فاسترسلت في السؤال مقتضباً[2] :

ــ كيف تريد أن تكون في مستقبلك يا وسيم ؟

ــ أريد أن أكون رجلاً .

ــ وكيف تكون كذلك ؟

ــ أن أصلح نفسي أولاً ثم شعبي ثانياً .

ــ وكيف تصلح شعبك ؟

---

(١) الخرقاء : امرأة من العرب كانت تستمر في عزفها حتى طلوع هذا الكوكب فنسب اليها (ملخص) .

(٢) الاقتضاب هو القطع .

ـــ ألحظ أني عضو من مجموعه فأقوم بوظيفتي تجاه ذلك المجموع .

ـــ ونفسك ؟

ـــ بأن أؤهلها لذلك .

ـــ ما هي وظيفة العضو في المجموع ؟

ـــ هي أن يحترم من فوقه ويرحم من دونه وسنة التعاون في المجموع البشري من شروط الانسانية ولا تمثل الانسانية في مجموع أفرادها ما لم يرفق غنيهم بفقيرهم وقويهم بضعيفهم وعالمهم بجاهلهم ، ولن تتحقق هذه السنّة في الأفراد ما لم يسد فيها الإخلاص. أليس كذلك يا خالد؟

لم يزدني إعجاباً بسموّ مدارك وسيم في هذه النظرات وأنا أعلم أن النفس، ما سلمت من أمراض الروح والجسد، تتفتح أمامها أبواب السماء فتصل بقداستها الى مصدر الروح الإلهي ..

فقد رأيت وسيماً ولما يزل في عنفوان شبابه يقوم من الإنسانية تجاه الضعفاء من قومه بما لم تقم به قبيلة بمجموعها ورأيت أن قلوب عشيرته قد أجمعت على حبه واتخذت من

أعماله أوراداً تتقرّب بترجيعها إلى الله تقرّب العبيـــد بترجيع أنغام الموسيقى إلى سيدهم ... ونفوس الضعفاء كنفوس الأطفال في قربها من الحق غيرَ محفوفة بالأضرار الحيوية التي تنبعث عن القوة الطاغية فتحجب جواهر تلك النفوس عن اتصالها بالمصـــدر الأولي وتستمدُّ من نوره المحجوب إلا عنها ..

وهذه النفوس البائسة إذا أجمعت على حب نفسٍ كان منها أكبر مؤيدٍ لهـــا بفضل ما تستمده من جوهر الحق المكنون وإن من ساد قومه بإخلاص ملك به النفوس ، كان أثبتَ قَدماً وأرسخَ دِعاماً وأقومَ ركناً في الرئاسة ممن تعبّدهم بقوته الجائرة لا يرهب من ورائها قوة جبارٍ عادل .

والسيد إذا قام بعمل أجمع الشعب على شُكرانه ، كان هذا الشكر أكبر دافع له أن يضاعف ذلك العمل ، ولن تضعف أعمال الرجال ما ضاعفها تقديرُ جهودهم في امتهم ، ولا أقتلَ لهمة العظيم فيهم من هضم حقه وجحود فضله في أمته ..

ترى الخطيبَ يقف على رؤوس القوم تتفتح أمامـــه

أبواب الحكمة فيلفظها أنفس من فرائد الدر ، فهو ما رأى إعجاب السامعين به وحبهم له وتقديرهم ما يأتيه ، مستمدٌ منهم ما يستمر معه في سماء حكمته يلتقط من كريمها ما يبهر العقول وتستنير به في ظلَمْ الشبهات .

ولقد تظلم في وجهـــه سبُل القول ، ما أحسّ أن في السامعين من لم يشهد مجلسه إلا ليفتش في نواحي قوله على منفذٍ يخلص منه إلى ما يتشفى به من نقد جائر .

من ذلك نصل إلى ان وسيماً إنما يتكلم بلسانٍ حدَثٍ ينطق من ورائه عقلٌ شائخٌ قـــد أنضجته عيون البؤساء تحدق به فتسبغ عليه نظراتٍ يتصل شعاعها بأفئدةٍ قـــد شغفها حباً يفيض على ألسنةٍ معقودةٍ بشكر أياديه .

وكما ينمو الجسم ينمو العقل، على أن نموّ الجسم محدودٌ وليس للعقل حدٌّ في نموّه ، فربَّ شيخٍ تلاعب منه غلاماً وغلامٍ تجالس منه شيخاً .

***

أو لمّا يزل على ضفـــاف بردى المنساب في قلب

النيربين ، قصر يستلفت نظر الداخل إلى دمشق بما يحفه من شجر السرو والخلاف ويحيط به من رياض وحياض تحدق بهذه أُصص الزهر وتتخلل تلك مقاعد السمر ؟؟

أم تحول كل ذلك بعد انفراط العِقد مربضاً للهموم ومناخاً للأرزاء موحشَ النواحي مظلمَ الأرجاء ؟؟

أوَ كعهدي بكِ يا أمل ؟

تجلسين على الرصيف الأيمن حيث فروع الشجر الممتدة من وراء الجدار باسطةٌ الظلال ، وأمامك على المنصة الصغيرة كتاب كليلة ودمنة تناجين بين سطوره مستقبل أيامك ، ترفعين رأسك بين آونةٍ وأُخرى فتلبثين شاخصةً إلى الأُفق في صمتك العميق تستجمعين قوى التفكير بعد تفرقها وتجلين زجاج عينيك النجلاوين بزرقة السماء وخضرة الشجر ثم تكرّينهما إلى رياض ابن المقفع فتجنين من ثمر أفكاره ما يحول بينك وبين همّ العزلة والتفكير ، أوَ لما تزالي كذلك يا أمل ؟؟

***

طوعَ أمكِ يا بنية !!

فلقد نشأتِ منها في حجرٍ ملأ بعطف الامومة فراغ قلبك وودعتِ دور الطفولة ، والحنـــانُ دمٌ يتسرَّبُ في عروقك ، تطأين الفرش بقدمين هما أنعم من رياشه :

ولا أقدسَ من نظرات الأمّ يا أمل ، أيان تلحظ طفلها وهو يدرج بعينين تحوكانِ من نسيج الرحمة ستائر الحنان فتسبغهما على كبدها التي تتنقل بين يديها ..

أسماء

بين الموت والحياة (١)

يا ابن العم !

ما عهدتني فرطتُ في شيء من أمرك ، ولا حرصت من حياتي على نفيسٍ يسرك أن أبذله ويسوءني أن لا أكون ضنينةً به ، كم عبرةٍ أرقتها بين يديك على إثمٍ لم أقترفه إلا من وراء التهم ، وكم قبلةٍ جنيتَ بها من فمي زهر ابتسامٍ لو فتّشتَ عما وراءه لتبينتَ ما هنـــالك من همٍ كنت أخفيه حرصاً على رضاك وإبقاء على سرورك .

---

(١) من مدونات أمل .

ثلاثين عاماً قطعتها في حظيرتك ، لم أسألك يداً تمسح لي كلما جنّ الليل عبرةً تحرق خديّ ، بين وســـادٍ يخفق وصبيٍ يبعق وأنت لاهٍ عني بين طرسك ونفسك ، تقطع ليلك مكبّـــاً على الصحف وتجتاز نهارك في الأندية والمجتمعات سياسيةً وأدبية، غير مبالٍ بما وراءك من شريك في الحياة له ما لك فيها وعليك ما عليه منها ، ألقيته في قعرٍ مظلمٍ من العيش كأنه هو المسؤول وحده عن القيام بعبء هذه الحياة تربيةً وكسباً ، وكأنك أنت وحدك قد منيت بهذه النفس الحوّامة حول العز ، والفكر الجوّال في عالم الخيال ، كل ذلك قد ألحظه بعين الرضى وأجيل فيه فكر التسامح ، ما علمتُ أني أخلصت لله في عملي وأني سوف أكون ناصعة الجبين بين يدي ربي يوم أسأل عما خلقتُ له من عملٍ في الحياة ..

ولكنّ ما أحفظني منك وحال دون إغضائي عنك كلما هممت بالتسامح فيه ، أن تركتني لهمّ يرزح الجبـــار تحته واهن المتن ضعيف الكاهل ، دون أن تسأل بي في مجهلك رواكد النجم وبوارح الطير ، تسأل نفسك عن أشقى ثاكل.

(تعلّل بالذكرى فؤاداً يُعلُّـــه
حنـــين إلى وادٍ أراك تحلُّه[1])
(تحمّل من ريب الزمان مصائباً
وهمّـــاً يُزيل الراسيات أقله)
(فلا هو ذو أيدٍ يبلغـــه المنى
ولا أنت من ذلّ الاسار تحله)

ذلك ما أنقمه منك ولا أغتفره لـــك ، خمسة أعوام تتقلب فيها معتزلاً همّ الحياة وضوضاءها ، بينما هذه الشقية البائسة تقطع لياليها مكبةً على أفلاذ كبدها بين منازعٍ يجود بنفسه ومسجىً في ظلمات لحده .

أوَ ذلك وفاءك يا خالد ؟؟؟

---

(١) الشعر للعلامة الشيخ احمد رضا العاملي .

أسماء

« على فراش الموت »

بنيتي أمل ؟؟

ليكن لك من شـــقاء أمك درسٌ
يبصّرك بالحيـاة ويصرفك عن التعلق بها ،
أن تستعدي لمصائبها وتعتبري بمصيرهـا ..
ثلاثُ زهراتٍ غرستها أمك في حقل الحب
الطاهر تنبّتها واحدةً واحدة ، تمد فوقها كلما
أصبحت جناحاً من الرحمة يقيها لفح الهجير
وربما قبّلتها الغزالة[1] فلا تلبث معها إلا ريثما
تجفف عن أوراقها سقيط الندى ، حتى إذا

(١) هي الشمس رأد الضحى .

جنّ الليل أفرشتهن صدرهـــا وباتت تلطّف بردَ النسيم بأنفاسها أن يجني عليهن بَليلُه ...

تلك الزهرات يا امل كنّ كالذبالات تمدهن امك بزيت حياتها ، وكما تفيضين الزيت في السراج فتهلك فيه الذبالة ويخبو النور ، فاض حنان امك فأغرق الذبالة وأطفأ النور فأظلم الجو وعثرت بها نوب الأيام فحطمت زجاجهـــا وأمدتك بالبقية من ذلك الزيت .

والحب الخالص قد ينمو في القلوب الرقيقة يا أمل ثم يطغى في أرقها شغافاً إلى حدٍ يهلك معـــه الحبيب فيقفو المحب أثره .

هكذا جنى على اخوتك حب أمك الطاغي بترفيهها عنهم وإسباغها عليهم من الترف ألواناً حالت دون صبرهم على مضض العيش ومقاساة أهوال الحياة فكانوا في مصيرهم عرضةً لدواهي الأيام .

وهكذا سيرافقك حنان أمك يا أمـل ويفارقك من نعيم الحياة بقربها ما يفتح أمامك سبيل النجاة .

فاستعدي يا بنية لتلقّي الحياة التي يُوطئك شظفها حسكَ المصائب ، فالعثرة التي تدمي قدميك في طريق الجد حافيةً أخفُّ ألماً من العبرة التي تحرق خديك على فراش النّعمة وقد حُصّ جناحاك فلا طوق لكِ على النهوض ولا صبر على مضض الآلام .

وخشونة العيش التي تُعقبك قدرةً على العمل أرفق بك من النعيم الذي يقعد بكِ عجزاً عن السير في طريق الحياة .

أي بنيّة !!

إن دنياكِ هذه معرض آلام وإنما مثل الحياة فيها كالزهر الذي يروق منظره ويسوء مخبره ، قد تنوّع في دِمنةٍ[1] جوُّها موبوء يشتبك فيها نبات شائكٌ تتخلله أنواع الهوام بين سامٍّ ومفترس فلا يحسُّ بآلامها إلا من لطفت نفسه فشفّ زجاجها عن سر الكون الغامض .

---

(١) الدمنة : آثار الدار والناس .

والحواس التي يتألم بها الحي في طريق ذلك الزهر إنما هي أسلاكٌ تتصل بذلك السر ، فإذا تكاثفت على زجاج تلك النفس أمراض الحياة حالت بينه وبين ما ما يعترضه من الآلام في سبيل الوصول إلى خبيئ هذا الزهر .

وأراكِ إحدى موجات هذا البحر ، بحر النور المالىء فضاء اللانهاية قد هبطت إلى الأرض في زجاجة شفافة ينطبع فيها أدق أسرار الكون فاحذري أن يتنفس في وجهك مجموع هذا النوع من الحيوان نوع الإنسان فيكثف ما لطف منك ويحول بينكِ وبين الوصول بذلك السر إلى الشعور بتلك الآلام فيحجب عنكِ نورَ الحقيقة ما يتلبد من الظُلم في طريق الأوهام .

مسكين هذا الغِر وهو إنسانٌ مثلنا يا بنيـة : يدوس على ذلك الشوك إلى هذا الزهر الناضر غيرَ مبالٍ بما يعترضه في طريقه من ظلمة الأُفق وحدّة الشوك وخبث الرائحة وعجيج الوحوش الضارية وفحيح

الهوام السامة ، كلما دنا من الزهرة فلحسها زأر أمامه أسد أو فحت إلى جانبه أفعى فهام على وجهه فكانت خلساته الحلوة من زهرة الحياة في جنب أهواله التي يتلقاها كقطرات الماء التي يختلسها الطير في وادٍ كثير السباع أو خفقات البرق في السحاب الكثيف . ماذا أملي عليك يا بنية من دروس الحيـــاة وليس لدرس واحد منها حدٌّ يُنتهى إليه ؟؟

فكوني حرةً قبل كل شيء ، فإن النفس بطبيعتها تطمح إلى الحرية وهي في لطفها ورقتها كالماء الذي لا يقبل الضغط بطبيعته ؛ ولا يستمر عذباً نميراً حتى يكون طليقاً يتقلّب في الأودية وبين الصخور يغازله الطير ويناجيه الزهر ويداعبه النسيم ، فإذا حبس عن مجراه أو ضُغط عليـــه ذلّ واستكان وخضع لحكم الضاغط فتضاءلَ وتخللته الجراثيم ففسد .

وهكذا النفس يا بنية فإنها ما دامت حرة طليقة ، تشفُّ عن سرّ الحياة القدسي وتكون لناظرها كالمرآة

التي تريه عيوبه فيصلحها حتى إذا ضُغط عليها كبتها اليأس فتسربت إليها جراثيم الفساد فأظلم جوها ، فإمّا أن تربي قوةً خبيثـــةً تعمل على الفتك في المجموع البشري وإما أن تستسلم للكآبة فيأسن غديرها ثم يخبث فتتلاشى .

ولا تستسلمي لعواطفك يا بنية فإن العاطفة كثيراً ما تكون مدعاة لهُلك صاحبها ولذلك قيدت بالعقل فإذا كان العقل مقيداً بها كانت لصاحبها كالقائد الأعمى وكان هو كراكب الاسد أنى التفت تمثّل الخطر دونه .

أي بنية !!!

ليكن أول عمل تقومين به في سبيل رضى أُمك أن تتخذي الحياء ثوباً فضفاض الجيوب وتجتنبي مجالسة القيان وبنات الهوى من هذه الفئة الدخيلة على بلادك والموغلة فساداً في أخلاق قومك والتي جرّها على عنصرنا الخالص عبيد الأهواء والنفوذ فاتخذوا الزعامة في الأمة

هدفاً لا يبالون ما يجرون عليها من الدمار في سبيل الوصول إلى هذا الهدف ، ولست بالغة مكان التشفي من نفسي بهذه الجملة الوجيزة ولكني معوّلة في تثقيفك وإرشادكِ على أبيكِ الجديد بإيقافك على ما حالت دون تبسّطي فيه على فراش الموت يد الآلام .

فكوني منه مكانك مني يا بنية ، فإني ربيتك وأنا على ثقة من بلوغ نفسك في النجابة حداً يقف بينك وبين العقوق وكفر النعم سداً منيعاً .

وكما أردتكِ أن تكوني يا بنيـــة فليكن شريك حياتك ، فإن حياتك الأولى في بيت أبيك إنما هي كالغرسة تثمر حياتك الثانية في بيت قرينك فطعم الثمر هو خلاصة الغذاء الذي تمتصه عروق الشجر فطيبه وخبثه منوطان بطيب الأرومة وخبثها . ولشدّ ما أجهدت النفس في سقي غرسك والسهر على تنبيته ولعمري إن كانت عواطف الأم الرؤم تثمر فلقد أثمر أو كاد يثمر فرعك رحمةً وحناناً .

فأدني مني جسدكِ يا بنية !! ألمس منه ديباجة طالما رفهت عنها بدموعي وضمختها بعبير حياتي وأشم منه عرفاً سيرافقني الحنين إليه والهيام به إلى مضجعي الأخير حيث الوحشة في ظلمات القبر .

دنت منها أمل وأكبت على صدرها كالزنبقة لفحها هجير الشمس فأطرقت تحنُّ إلى التربة التي غذتهـــا ، فضمتها إليها ضمّاً رفيقاً ثم أُغميَ عليها وهي تقول حياتي يا أمل !

وانتفض الجسدان تخفق عليهما بؤسى الحياة بين فيظ نفس وفيض عبرات .

خالد

« على رأس وسيم »

يا بنيّ !!!

إني وإن كنت أرى فيك من سموّ المدارك ونضج الفكر ما يكفيني مؤنة الإدلاء إليك بما ادّخرته في خزانة فكري لمن يهمني أمره ، إلا أني بما ترامى إليّ من عشرات الأعوام مشحونةً بالعِبر تتلوها عبر ، لَمشفقٌ على خلاصة أربعين عاماً قد سبرت فيها غور الدهر ، وأطلعني على أسراره عقل أنضجه العلم ، ونفسٌ لم يحل بينها وبين الروح القدس من الأهواء

ما يحبس عنها النور ، إني لمشفق على ذلك النخيل أن لا تكون خليقاً به وأنت مني مكان السمع والبصر اللذين هما كما تعلم ، مناط الجوهر من الإنسان ..

أي بنيّ !.

إن أباك لم يكن صديقاً لي فحسب ، وقد مرت بنا ثلاثة أعوام كنّا فيها كالفرعين يحملهما جذر واحد وتغذيهما تربةٌ واحدة تسقى بماء واحد ، فكنتُ منك مكانه ، وأنزلتك مني منزلتك منه ، وإنما كنّا أخوين كأنما قد ولدتنا أمٌّ واحدة وأنجبنا أبٌ واحد ، فإذا أفضيت إليك بما أجدني ضنيناً به على غيرك فإنما أنطق بلسان أبيك وأحمل إليك قلبه .

تعلّم يا وسيم !!

إن الرجل لا يكون عظيماً ما لم يعظم عمله ، ولن يكون عظيم العمل ما لم تعلُ همته ، ولا يكون عاليَ الهمة ما لم تسمُ به نفسه ، ولن يكون سامي النفس ما لم ينهض به جدُّه ، ولن يكون ناهض الجدّ ما لم يقطع

الشطر الأول من حياته مكبًا على كتـــابه مستظهراً زخرف الحياة الدنيا يستقبل منها ما يجعله وهو فرد، أمة كثيرة العـدد، وينشره وهو في حفرته على مرأى من الأعين ومسمع من الآذان .

فما لم يفنِ المرء زهرة شبابه في سبيل حيـــاته لا ينهض به جده، وما لم ينهض به جـده لا يكن سامي النفس، وما لم تسمُ به نفسه لا يكن عاليَ الهمة، وما لم تعلُ همته لا يكن عظيم العمل وما لم يعظم عمله لا يكن عظيماً في نفسه، وإن غرّه منصبه الموروث ولقبه المستعار .

فإن حفرة القبر يا بنيّ أخلق بمن تقمص منصباً لم ينله عن جدارة وإن مرارة الموت في فمه أحلى من الشهد يسيغه دون أن يشتاره فتجنيَ عليه يد جانيه[1] .

إن الرجل الحقير يا بني من ساد قومه باسم أبيـه وجده لا بسعيه وجده، وأحقر منه من باع ضميره في سبيل

---

(١) جانيه النحل يشير إلى قوله : ودون اجتناء النحل ما جنت النحل .

شهواته التي لم يدركها إلا فوق كرسي حكمه ، وأحقر من هذا وذاك أمة جعلت منصب الرجل مناط مدحه وذمه ، وعليه يدور رقيـــه وانحطاطه ، فهي لا تعظم الرجل مهما كان عظيماً ما دام أعزل ، فإذا ولِيَ الحكم ملأت هيبته صدورها ، وعقد ألسنتها بمدحـــه ولو أنه العضو الأشلّ في جسمها ، والعامل الأكبر على هدم كيانها .

وإنَّ الرجل العظيم يا بنيّ من ساد قومه بسعيه وجده لا باسم أبيه وجده ، وأعظم منه من تُثنى له الوسادة وهو لها كاره خشية أن لا يحس من نفسه ما يؤهله لأن يتوسدها ، وأعظم من هذا وذاك شعبٌ وسّد أمر الحكم فيه لمن هو خليقٌ بأن يسهر على انهاضه فأفنى حياته جهاداً في سبيل حياته ثم مات فترك وراءه أثراً حيّاً لا يُبلي جدّته الدهر ولا ينزل بساحته العفاء .

يا بنيّ ! إنك ممن يؤهله لكل ذلك شرف البيت ، ورخاء العيش ، والهيبةُ في صدور الشعب ، فانظر إلى

نفسك قبل أن يصلب عودك ويشتدّ عصلك[1] فلا يمكن تثقيفك ويُعيي على المؤدب تقويم أودك .

فأثّرت كلمات خالد في نفس وسيم ، تأثيراً لم يملك معه عبرةً وقفت في محجره بين عاملين هذا يمسكها وهذا يدفعها ، عامل السرور الذي تنبّه له ، وعامل الحسرة على ما فاته من أيام كانت كافية لأن يصبح فيها رجلاً وهو لم يبلغ أشدّه ثم نهض وقبّل يدي أستاذه وأبيه وقال :

لعمري يا عم إن كان كلامك هذا لأفضلَ شرابٍ من عين ماءٍ قرّةٍ بلغتها في قلب مجهلٍ ضللت فيه أياماً لا أهتدي منه إلى منفذٍ ينقذني من حرّ الهاجرة ولفح سمومها حتى أصابني من العطش ما غارت له عيناي وجفّ ماؤهما ، فلم أتبين بهما مما كنت أرى ، إلا مثل الضباب ، ونضب لعابي حتى أحسست أن لساني يلامس مما حوله خشباً جافّاً ، ويبست لهاتي حتى شعرت كأنها لوح من

---

(١) العصل اعوجاج في صلابة .

واهي الزجاج لو مسه طفلٌ لتصدّع .

وأفضلَ حُلةٍ نسجتها يد الفضيلة من منوال الحكمة، وفصّلها الإخلاص ثم خاطها بيد المحبة فاتخذت منها جُنةً تقيني سهامَ النوائب، وبُرداً موشىً أختالُ به في زمر الأعداء .

فلا أحبَّ إليّ، وقد لمست منك إخلاص الوالد لولده من أن تضاعف عليّ هذه القطرات، فإنك ان ضاعفتها فإنما تغيث بها بذوراً ألقيتها منذ الساعة في صدر مخصب النواحي لم يحل دون نموّ البذر الصالح فيه خسة في نفس أو حطة في نسب .

فقال له خالد لا أزيدك يا بني على أن تكون إلى جانبي هذه الأسابيع التي مُدَّ بها في أجل إقامتي عندكم لأقضيَ ما عليّ من واجبٍ تجاهك في تعليمك لتقف من الكتب المطوية في خزائن العلماء على ما يضيف إلى عقلك عقولاً، فإني أتوسم فيك بلوغ المنزلة التي تحتاج معها إلى عقلٍ يجمع بين حكمة الماضي وروعة الحاضر .

وأرى من عجزي وضعف بنيتي ما لا أطمع معه بالعود إليكم من قابل على أنه إن قدر لي العود فسأجتهد في إتمام هذا الواجب تجاهك وإن تكن الأُخرى فقد أفضيت إليك بسري ولم آلُ جهداً في نصحك مـــا استطعت .

صلـة[1]

تتدفق المياه من أفواه السحب منتشرةً في الأودية وعلى الهضاب ، ثم تتألف فتشكل أنهاراً تجري لمستقر لها ، لا تبالي ما يعترضها في سبيله من ضعيف تجرفه أو عاتٍ تتخذه مجازاً تعبر عليه إلى غايتها (البحر) التي نشأت منه وعادت إليه .

وهكذا الروح الوثّابة لا تحفل بما يعترضها من مشاق الحياة في سبيل صعودها الى العلم الكلي ما علمت أنه مصدرها الأول وأنه نور الله وهي قبسٌ منه .

وكلما تضطرب المياه في البحر مختلفة الأعاصير فتعبُّ منه ما تصدر به إلى الجو فتصفيه وتنقيه إلى أجلٍ

(١) بقلم متتبع أشخاص الرواية وهكذا كل صلة بين أقوالهم فهي منه في معرض القصص عنهم .

تتلاشى عنده السحب فيرفض ذلك العبـاب هابطاً إلى عنصره الأول (البحر) ، هكذا العلم الكلي ينبعث تيّاره من السماء ويزخر في فضاء اللانهاية فيضطرب فيه الأثير فتحمل ذراته قبسات أو تتكون هي قبسات من ذلك النور تلبث معها مـا شاء الله أن تلبث وهي على اتصال خفي بذلك التيّار يختلف شدّةً وضعفاً باختلاف المادة كثافةً ولطفاً حتى إذا تلاشت المـادة خفت الروح إلى مصدرها الأول الذي عنه انفصلت ومنه تجزّأت .

فإذا وثبت بوسيم روحه الفيّاضـة إلى الملأ الأعلى خلال أعوامٍ ثلاثةٍ لازم فيهـا خالداً فلا ترَ في ذلك عجباً ، فقد حال دون كبت نفسه وصدّها عن الوثوب لطف المادة التي امتزجت بها فكانت شديدة الاتصـال بعنصرها الذي هبطت منه فخفت إليه .

***

ذيـل

المعلم هو السبب الأول في حيـــاة أمته والدعامة الكبرى التي يقوم عليها البيت الذي تأوي إليه ، والأمة إذا لم تستضيء بنور معلميها فلا تلبث أن تخبط في ديجور جهالتها ، ويهوي بها الجهل المطبق إلى هوّة من الذل سحيقة .

فالانحطاط في الأمة إنما ينشأ عن إهمال منصب التعليم فيهـا ، وتحقير من ينخرط في سلكه ، فيتحاماه كل قدير على التثقيف ويتقلده السفلة من الشعب فيكون أضرّ على النشء من الجهل فحياة الأمة تدور مدار العلم فيها ، والعلم إنما يكون نافخاً في جسم الأمة روح الحياة الحرة إذا كان متحلياً بالإخلاص ، والاخلاص لا يفيد الامة إلا عن طريق العلم ، فهو الدافع الأكبر للعـــالم العامل (المعلم) على القيام بواجبه الحيوي تجاه أمته ،

وإنما ينمو هذا الإخلاص في المعلم مـــا كان محترماً في الأمة ، فإذا أُهين نبذ الإخلاص ففقدت الأمـة القوة الناشئة عنه فكانت في عداد الهالكين .

(وإذا المعـــلم ساء لحظ بصيرةٍ
جاءت على يده البصائر حُولا)

(أرأيت أَشرف أو أَجل من الذي
يبـني وينشىء أنفساً وعقولا[1])

تـتمة

فاعتراف وسيم لمعلمه بالفضل ساقنا للاستطراد إلى البحث عن المعلم ومنزلته في الامة وأنـــه الركن القويم الذي يرتكز عليه بناء المدنية والعمران ، لا كما يتوهمه بعض الجهلة من اتخاذهم لفظ المعلم وسماً على من اتصف به فيضربون له المثل هزءاً وسَخَراً ، وينسبون إلى هـذا

---

(١) الشعر لشوقي بك .

الصنف من الناس كل ما يدل على الحمق والسفه .

نعم قد يصحُّ ما يروونه عمن تقلد منصب التعليم ولا صفةَ تؤهله للقيام به كما ذكرنا ، فوجوده فيه يمثل لنـــا سفه الامة التي قلدته هـذا المنصب واعتمدته في تثقيف ناشئتها ليس إلاّ ..



تتبين في وجه خالد ، وهو في العقد الخامس ، بين تجعّد وتشنّج يعلوان جبينه الشاحب وخديه الضامرين ، وحـــدةِ بصرٍ يحدجك به وهو مطرق الرأس فيساور نفسك من الهيبة والاكبار ما يشعرك بالرهبة في مقــام أنتَ فيه إلى الأمن أقرب منك إلى الخوف .

تتبين فيه كل ذلك الى رقة الجلد ودقـة العظم في وجهٍ غار لحمه ونتأ عظمه فألقى عليه شعوره بآلام الحياة (المنبعث عن تفكيره العميق) من الشحوب كالذي يبدو لك من المحو على صفحة البدر .

تتبين ، وأنت الشاعر الحساس ، رونق جماله النفسي من وراء ذلك الشحوب ، كما تتبـين قطع الروض من وراء الضباب وزهو السماء الصاحيــة من وراء الغمام الرقيق .

ويكاد يعطيك بين كل ذلك الى يدين قد برزت في ظاهرهما أشاجع تتصل بعصب يلتف عليـــه الشرايين إلتفاف اللبلاب[1] على فروع الشجر، وتتصل بها بنان ترتعش بين يدي الهرم، يمسك بها من التراب ما يقبضه من الريح.

يكاد يعطيك من هـــذا الهيكل الشاخص، شبحاً ماثلاً في معرض من أسرار الكون الغامضة يحف به منها ما يخطئه البصر ويدركه العقل، إلى قلب يتوقد فيندلع لهيبـه من عينين يخترق بهما أجرام الكائنات إلى قلب الطبيعة.

ذلك الشبح هو خالد!!

***

إن في الشمعة تضيء فتضمحلّ لجدّ شبه بخالد ينير قلبه فيضوي جسمه والنفس الكبيرة الوثّـابة تفعل في محبسها فعل النار يُحشى بها الحديد.

---

(١) اللبلاب نبات يطول ساقه ويلتف على الأشجار ويتسلق الجدران.

(إذا سمنت همةٌ في الضلوع

فأيتهـــا البدن الناحل[1])

شبَّ خالد وعلو القدر في الحياة همه الذي أقلقه وأقضَّ من تحتـه مضاجع لم يعرف معها طعم النوم ولا رقوء الدمع ، حتى إذا غاض ماء حياته في ليالٍ نصَل تحت جناحها لون شبابه ، ادرك أن القوة التي أعدت فيه لمحاربة الدهر قد صرفها لغاية قد كان غير مغبون لو بلغها بين قوم للحق فيهم نصابٌ لا يثلم وعرشٌ لا تراه عين أعشى ولا تناله يد ظالم .

(طويت بإحراز الفنون ونيلها

رداء شبابي والجنون فنون)

(فلما تعاطيت الفنون وحظها

تبين لي أن الفنون جنون[2])

ولن تستطيع أن تجــد للنفس المظلومة باباً إلى الاطمئنان والقنوع بالمنزلة التي تشعر فيها أنها تمشي اليها

(١) للمهيار .
(٢) الشعر للجرجاني .

متقهقرة بينما تجد من تقدمته أشواطاً بعيدةً في حلبات الفضل لا يمد الطرف إليها علواً وكبراً .

(ولم أرَ أقتلَ للمرء من
تقلُّب شانيه فوق السرر)
(وأقتل للنفس من ذاك وهي
مقدمةٌ ، وضعها من أخر).

***

أرأيتَ حسرةَ الزارع الذي مرَّ عليه الشتاء يطوي ليله بين المعتلف والنثيل[1] يعلف أبقاره بين الخفقة والخفقة حتى إذا انبثق الفجر أو كاد ، نهض فتوضأ وانتصب للصلاة فإذا فرغ عمد الى المخدع فملأ جيبه من البلس (التين المجفف) ثم اعتقل عُدة الحرث وخرج يسوق فِدانه بين تسبيح وتقديس يستقبل في وجهه من الريح الصرصر ما يقف بالعبرة أن تطرّد والدم أن يجري في العروق .

ولقد يُهوّن عليك مرآه هذا أن تراه بعد هنيئة

(١) النثيل : الروث .

على الكابوس ينس[1] الفدان بيـــد وبأخرى يزجي مقوم[2] عوده وفي صدره أضعاف ما تجود به السماء من عبرات تكاد تفيض معها نفسه بؤساً وشقاء .

هكذا يسودّ أفق الزارع وتظلم نفسه . وتضيق به الأرض وتصغر الحياة في عينيه ويلقي الغم على بصره غشاوة لا يكاد يتبين من ورائها موقع قدميه ، حتى إذا لبس الأفق بين زرقة السماء وخضرة الأرض ثوباً من الضباب مطرزة حواشيه بأشعة الشمس أبصرتَ ذلك الزارع وقد نص على صخرة من الأرض يغمره بحران ذلك الضباب إلى وسطه وهو يجيل بصره فيما حوله من ثمرات جهوده فيتمثل آماله شاخصةً في كل سنبلة وعلى كل ساقٍ تخاطبه بقوله عزّ من قائل : « وكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

وهكذا يزدهر أفقه بأمانيه المنشودة وتشرق نفسه بنور الرجاء ويظهر الفضاء لعينيه مملوءاً بالأمل في الحياة

---

(١) ينس : يسوق .
(٢) المقوم : كابوس الحراث .

فيرجع إلى أهله وقد فاضت نفسه غبطةً وسروراً .

وليس هو تحت كابوسه في صبارّة الشتاء بأشقى منه فوق المنجل في حارّة القيظ يتلقى سموم الهاجرة بصدرٍ يضم بين جوانحه قلباً كلما ضغطه اليأس فتحت أمامه الآمال باباً من الرجاء وهكذا هو فوق نورجه على البيدر يستثمر جهوده قاعداً وحرارة الفقر تفعل في أحشائه ضعف ما تفعله الشمس بحرارتها من رأسه إلى قدميه .

حتى إذا كان آخر يوم من أيام الموسم وقد رأى بيدره محشوداً بالغلة يشم من ورائها ريح عرقه الذي تصبب على أكداس السنبل أيام الحصاد ، وقطع كبده التي كان يلفظها أيام الشتاء في مخدعه وعلى كابوسه عبراتٍ تحرق خديه بين يدي آلامه وآثامه .

رأى إذ ذاك غلالة تملأ بيادره خيراً فتملأ نفسه زهواً ينسيه كل ما أسلفته عواثر الجدود من ألم ، ثم هبت بعد ذلك ريح سوداء سدّت الأفق فشكّلت

باختلافها إعصاراً تجاوبت أصداؤه في الأودية وهلعت له القلوب فلا ترى إلا ممسكاً قلبه بكلتا يديه خشية أن يطير به الرعب، يمر هذا الإعصار بالشجر فيقتلعه من تخوم الأرض حتى إذا لعبت مذاريه بالغرم[1] واكفهر الجو بالغمام أعلاه سحاب وأسفله رباب، تمثلت لك إذ ذاك آمال هذا الزارع بين سيل يجرف ورياح تكتسح.

أرأيت تلك الحسرات ؟؟؟

ربما قربت لك شبهاً ضئيلاً من حسرة العالم الذي طوى رداء شبابه بين كتابه وقلمه، مكبًّا على طرسه ونفسه يلوح له شبح الحياة من خلال السطور التي ينحتها من قلبه، ويلفظ أحشاءه قطعاً تتراءى لعينيه كلما يدبجه قلمه، لم يطرق للعلم باباً إلا كلّ ساعده دونه، ولم يسلك للفضيلة نهجاً إلا تأكّل قدميه، مقوّس الظهر لما يُكب على كتابه، هزيل الجسم لما يُعمل أفكاره، حسير البصر لما يُمعن بحثاً وتنقيباً. حتى إذا نضج معقوله

---

(١) جمع غرمه وهي (صبة) الغلة.

وحصف رأيه وامتلأ من العلم وصابه ، وفاضت العبقرية من جانبيه فأهله كل ذلك لأن يكون مجلياً في حلبات الفضل فكان من المصلين[1] وهو ينشد :

(كأنيَ من أخبار إنَّ فلم يجز
له أحد في النحو أن يتقدما)

وبات يتلهف على لياليه التي لم يتخذ فيها غير سراجه بدراً وكتابه سميراً ينشد بينهما قوله :

كتابيَ ، لا زيدٌ سميري ولا عمروُ
وبدري سراجي لا سعاد ولا البدر
أناجيه بالسرِّ الذي هو للعلى
وللفضل ، تُحدى بي ركابهما ، سر
فما روضةٌ حاكت مطارف وشيها
يد السحب في شكلٍ يتيه به الفكر
ترى الورد قد أدمى حياءً خدوده
بها من عيون النرجس النظر الشزر

---

(١) المصلي : ثاني خيل السباق .

وقد غرّدت فيـــه البلابل هاجها
جنىً فوقـــه ذيل النسائم ينجرّ
فمن طربٍ إذ ذاك أعطاف دوحها
تميس وثغر الاقحوانة يفـــترّ
بأبهج مرأى من حـــدائق زهوه
لديّ ولا روض هنـــاك ولا زهر
كأني وقد عاقرت صرف بيانه
صريع طلىً مالت بأعطافـــه الخمر

***

هكذا قطع خالد الشطر الأول من حياته ثم قعد مغبوناً بزعمه يبكي من حياته أنفس دورٍ غرس فيـــه جهوده فأثمرت بؤساً وشقاء .

وغير عجيب أن يبكي شباباً لم يتمتع منه إلا بمـــا يتمتع به الغريب الفاقد من أحلامه فالشباب مصـــدر القوة في الانسان والقوة مصـدر العمل والعمل مصدر الحياة .

فكيف بالمرء، وقـــد شبَّ فلم يظفر بالقوة التي تخوّله العمل الذي يفضي به إلى الحياة، أن لا يبعث وراء شبابه حسرات تغيظ معها نفسه.

***

تلقت أمل كتاب أبيها بيد ترتعش خشيةَ أن يكون قد ناله من السوء ما اضطر معه لإغفال مراسلتها مدة طويلة الأجل فلما وقفت على سلامته اطمأنت وأفرخ روعها إلا أنها وضعت الكتاب من يدها وهي غارقة في بحار التأمل وكأنها أحست لدى استلامها الرسالة وإتيانها على ذكر وسيم ومدحه على لسان أبيها، أحست إذ ذاك بشيء ينخسها بين جنبيها لا تستطيع اكتناهه ولا أن تتبين مأتاه، أحست بشيء لفتها إلى الرؤيا التي رأتها منذ ليال على أثر ما دار بينها وبين نفسها من حوار وقـــد ركبها آنئذٍ من الهواجس ما أقلقها وأقضّ عليها المضجع فجلست على فراشها تعتمد رأسها بيديهـــا وتستعرض صحائف حياتها فأول صحيفة مرت بها هي الصحيفة التي

شهدت سلسلة ماضيها المظلم .

تلك السلسلة المتراصفة الحلق حلق المصائب والأحزان تصفحت اخوتها الثلاثة تهصرهم يد المنية غصناً بعد غصن وتغتالهم يد الخسف قمراً إثر قمر وتصفحت بعد ذلك وبين تلك الحلقات المتداخلة أمها ، وإذا ذكرت الأم فإنما تُذكر الحياة ، أو ليست الأم هي مجموعة عواطف تفيضها على الأولاد يدٌ تتفقدهم إذا هجعت العيون وأرخى الليل سدوله ، وعين ترعاهم إذا انتشروا في الآفاق ، ولسان يسبغ عليهم في كل آنٍ ستاراً من القول سداه الرحمة ولحمته الحنان ؟؟؟

تلك هي الأم التي فقدتها أمل ففقدت بفقدها العين التي ترعاها واليد التي تكلؤها واللسان الذي يعوّذها ، ثم سمت بفكرها إلى تصفح سفر الكون الأعظم الذي تطوى فيه صحائف الحياة واستمرت أفكارها ترسب وتطفو في بحران ذلك السفر العميق ساعات من الليل وهي لا تدري أين هي ؟ ولا إلى أين ينتهي بها

التفكير ؟؟؟

مرت بها صور الحياة كما تمر أخيلتها — في عصرنا — أمـــام الحشد على مسرح التمثيل ولكن أية صورة تصفحت ؟ وأي خيال مرَّ بها ؟؟؟

تصفحت وحدتها في الحياة وأنها ستكون بعد رحيل ذلك الشيخ الفاني القريب من أجله وليةَ أمرها فكيف يجب أن تحيا ؟؟؟

ومرَّ بها خيال الشقاء الماثل لها بين قفر يوشك أن ينزل بساحتها إثر نازلة فقدت على أثرهـا أُمها وإخوتها وبين خطر يحدق بهـا من ابن عمها الطامع فيها وهي لا تراه في الأفق الذي تتوسم بزوغ فجر حياتها منه .

توالت عليها الوساوس في تلك الليلة وذهب بها التفكير مذاهب شتى فكلما حاولت الهجوع متغافلة عما يعنّ لها من صُوَر الغم وأشكاله عاودها شكل جديد من الأرق فأقعدها ، تفتح الكتاب هرباً ممـــا يعتريها من ذكرى مؤلمة فتقابلها الصدف من فصوله بامضّ وآلم ثم

تعود إلى تصفح ذلك السفر ، سفر الكون ممعنة في التنقيب عن صحيفة مستقبلها فيلوح لها من خلال ضباب كثيف صحيفة مطوية قد حال دون نشرها وعلم ما فيها أن العلم وليد ما تعقل والعقل وليد ما تحسّ ، فلا يمكن أن تعقل ما لم تحس ولا أن تعلم ما لم تعقل على أن العقل قد يمكنه أن يقيس ما يأتي على ما يفوت فيسن قانوناً يعصم الحيّ فيها من دواهي ما يستقبله من صروفها ، إلا أن ما يعرض هذا الحي من آفات العقل كثيراً ما يحول دون تطبيق ذلك القانون الحيوي .

فكل حي يدرك حكمة المأثور من القول « مناط خير العمل وشره ما يختم به ، من لم يتبصر عواقب أمره فلا يأمنُ غوائل دهره » ومع ذلك نرى تاجر الحياة منا « وكلنا من تجارها » إذا عرض له في غمارها ما لا يجد عسراً في الوصول إليه من صَدَفَـــةٌ غره كبر حجمها فأغراه بنفاسة ما تضمه من كريم الجوهر ، ألقى بنفسه خلفها دون أن يفكر في طريقه وما يلزمه من العدة التي

يصد بها سباع البحر ويحفظ تجارته من ورائه وهو مع ما في ذلك من مجازفة بالحياة يجهل مـــا في جوف تلك الصدفة ، أجوهر هو أم حيوان ؟

والمرء مطبوع على حب العاجل من الخير فهو يقترفه ويعلم أن مصيره إلى شرّ آجل ، ومخلوق ليتلذذ بنعيم الحياة مندفع إلى تيّـار الشهوات بفطرته فهو مسوق إلى الهلاك بطبعه وإلى الحياة بعقله فطريق النجاة واحـــد وطرق الهلاك لا يحصرها عدّ ، والعقل أشقى ما يكون حكماً بين المرء وشهواته ولو لم يُعضـد من العلم والدين والقـانون بقوى عتيدة لما كان لوجوده أثرٌ في المجموع البشري ولساد فيه الفساد الناشئ عن تحكيم العواطف والشهوات في أفراده فآل بهم إلى الدمار .

تستطيع أمل أن تتخذ من عقلها الناضج وقلبهـا الذكيّ ، على صغر سنها قانوناً ، لتمشي عليه في حياتها ، ولكنها ، وهي في محيطٍ أضيعُ ما فيه العقل وأعز ما فيه الهوى ، جِدُّ عاجزة عن الاستمرار مقيدةً بذلك القانون .

فالمرء لم يخلقه الله وحده وإنما لبيئته ومحيطه النصيب الأوفى في تكوينه وتلوينه .

أعيا على أمل أن تهجع وعبثاً حاولت أن تتشاغل عما تُخيل إليها الوحشة في تلك الليلة من أشباح وصور مزعجة فنهضت من فراشها وصعدت سلماً أفضى بها إلى عُليا غرف البيت وعمدت إلى متكأٍ فيها تشرف منه على حدائق الغوطة الغناء وما وشّع به الربيع أشجارها المكللة بالزهر المكلل بسقيط الطل ، وقد بزغ القمر في أُخريات الليل من وراء الصحراء أحمر ضئيلاً فترامت أشعته كألسنة اللهيب المندلعة فاشتعلت بها أذيال الليل المرخاة على الأشجار والجداول ثم تكشفت حواشيها عن الفجر ، وهبَّ نسيم السحر عليل الأنفاس فكان من مجموع ذلك كله ما هاج في نفس أمل حزناً عميقاً صعَّدت من ورائه زفرة كادت تقع جمرةً فتحرق ما حولها وراحت تخاطب القمر :

(حدثْ ، وعندك سرٌّ ما   بين الكواكب يا قمر)

(يا صفحة البلور طـــا ف بها الظلام على السمر)

(عينَ الجمال ! ألست عيـ ـناً للظـلام على البشر ؟؟)

(يا بسمة الآمــال تقـ ـطفها العيون من الزَهر)

(كم أنـــة بعث الحزيـ ـن بها إليك مع السحر)

(إن الذي خلع الجما ل عليك أودعه الحوَر)

بدا لها الأفق ، فتمثّلته وقد بزغ فيه الفجر ولا يزال عليه أثر من الليل ، أحدَ اولئك البائسين يمرُّ به خيال السعادة ، والشقاء محدقٌ به ، فتظهر على وجهـــه الشاحب ابتسامة المزء بالحياة .

على أثر تصوُّراتها هذه وقبيل انتشار الصبح المؤذن ببزوغ الشمس خفقت خفقـــةً هبت منها مذعورة ، والشمس لما تزل من مشرقها في مثل اللثام يُعطيك الجبين ويضنّ بما دونه .

رأت في تلك الخفقة رؤيا هالتها[1] ، رأت كأن الفرقدين في السماء اعتنقا ثم افترقا فلم يطل عهد الرجل

---

(١) هي الرؤيا التي أخذت على أثرها رسالة أبيها كما مرّ .

بفراق المقيم منهما حتى انقضّ عليه شهاب قذف به في لجة العدم فتساقط على الأرض كسفاً ونال أملاً منها شظيّة كستها ثوباً من الشعاع حتى خُيّل للناظر إليها أن الشمس قد أفرغت في قالبٍ إنساني ثم خمدت شظاياه فتلاشى .

ورجعت أمل تتفقد الفرقد الأول فرأت الشهاب نفسه قد أعاد الكرة عليه وصدمه تلك الصدمة فتطاير كالشرر المنبث من زبر الحديد المحماة إذا أعملت فيها المقامع ثم انفصلت منه شرارة تخطّت كواكب السماء إلى كوكب في الأرض تزرّ أمل عليه جيوبها فأحرقه فانتبهت تنتفض من الذعر كما ينتفض المحموم وراحت تحسب لرؤياها هذه الف حساب إلى أن أخذت رسالة أبيها فباتت تتوقع الخطر الداهم من ورائها .

أمل

أمل بنفسها !!

ما أظلم هذه الحياة في عينيّ !! وأظلم منها نفس ضغطها اليأس فلم تتبين في محبسها منفذاً ينبعث منه خيط من النور تتسلقه إلى حيث تسمع وترى ... تسمع كلاماً غير هذا الكلام الذي تلوكه الألسن كما تلوك اللجمَ أفــــواه الحيوانات ، وترى وجوهاً غير هذه الوجوه التي تحملها قرود في شكل أناسيّ .

لا المراسح المحشودة من ورائي بعشاق

اللهـــو والطرب تستغويني بين موسيقيٍّ يعزف وشادٍ يترنم ، ولا الطير من أمامي يستخفني بنغمٍ يهتز لترجيعه قلب الجماد .

كلا !! ولا الخمائل الملتفة حولي مهدلةَ الأغصـان فوق الغدر ، ولا السماء فوقي تنعكس كواكبها في مرآة الحديقة تحتي ، لا شيء من ذلك يزحزح هذا الغم الجاثم على صدري ويقشع غمامه المتلبد في سماء نفسي .

ليس هذا الغرد المختال بين الغصون الغاوي بأناشيده يتنقل من دوحة إلى دوحة ، ثم من فننٍ إلى فنن ، وكلما نفح الزهر بأغنيةٍ نظر في عِطفيه زهواً واختال مرحاً ، كأنه هو الذي عمد إلى قضبان النور المشتبكة خـلال الأغصـان فجزّعها عقيقاً ملأ به جيوب الشقائق ، أو كأنه هو الذي فصّلها درّاً ألقى به نثـاراً على عرائس الزهر فكان في فم الأقاح ابتساماً وبين ثناياه ضرَباً وعلى أكام الورود وشياً وفي جيده عقداً .

ليس هذا بأحظى لديَّ من أخيه الصامت ، المعتزل

جمالَ الطبيعة المخيم فوق الغدير وعلى ملتف الخمائل ، إلى صخرةٍ جثم فوقها وألبس رأسه حلةَ جناحيه فحسبت ما في الليل من جلال وخشوع قد أفرغ على عينيــه اللتين يجول بهما فيما حوله ثم يغمضهما ، كأني قد وهبته هذه الروح المتألمة فراح يطبق جفنيه عن آلام الحيــاة المحفوفة من هذا الجمال الفاني بما يمثل للرائي أرضاً مخصبةَ الأرجاءِ قد اهتز نبتهــا وربما فهو يموج كالبحر بما يتخلله من آفات الأرض لا يتبينها إلا الشاعر في الحيـــاة فيتحاماها ويقتحمها من لم يميزه عن البهائم إلا الحرص والشره .

وليست أنغام ذلك التي يوقع ألحانها بين الأغصان فتترنح من تحته كالنشوى ثم تتدلى إلى الغدير فتشاطره الشعور بجمال الطبيعة بين تغريد الطيور وهمسات النسيم ، ليست بأعذب لديّ من نوح هذا الغريب الفاقد مثــلي فكلما أنَّ أنّــةَ بعث في النفس حنيناً أوهى به نظام الدمع فارفضت لئاليه والغريب الفاقد أقرب ما يكــون من

إلفه ، الذي يحنُّ إليه ، وهو يباكر الروض مع النسيم عليلين يفيضان على الزهر جمال الحب بين رقةٍ ودموع .

أقرب ما يكون هذا الغريب من إلفه تحت وابلٍ من عبراته صادرة عن كبدٍ كلما ضغطه الوجد بعث فيها رسيساً تصاعدت خلفه الزفرات فصعَّد مُذاب كبده إلى أجفانٍ قرّحها تعاقب ودقه المتواصل .

يمرُّ به الصيف وهو كاسٍ تحضنه الطبيعة فتسدل عليه من برودها ما أحكم نسجه الغمام وأبدعت وشيه يد الربيع فهو يرفل بين أثواب حيكت من عيون النرجس ، وثغور الأقاحي ، وخدود الورود ، ومراشف الشقيق ، فيكاد يبتسم لجمال هذا لو لم يدر في خلده أنه سيشيّعه غداً عارياً قد كفّنه الخريف بورق الشجر المتناثر ، وغسّله السراب بمائه الكاذب ، وصلّت عليه شمس الأصيل ودفنه الغروب في جوف الليل الكافر ، وبكى عليه سقيط الطل فخضّب الشفق من دموعه .

ليتَ شعري لماذا خلقت ؟ وكيف أحيى ؟ وإلى

أين مصيري ؟؟ أأحيى لأموت ؟
ثم أموت لأحيا ؟ أم أموت وأنا حية لأحيا وأنا ميتة ؟؟؟

لا أدري : ولست أولَ مجنيٍّ عليه في الحياة ، ولا أولَ من أجال فيها فكر شاعر وردد نظرة حائر .

كل ما في الحياة من نور هو ملء بصري ، وكل ما فيها من ظلمة هو ملء بصيرتي ، فأنا وليدة النور والظلمة وأراني بينهما كالطفل بين الجمر والتمر يهتف بالأول لما يشفُّ عن نور تجسّم هو منه ويهجر التمر لما فيه من ظلمة هو بعيد عنها في روحه .

أوَ ليس انتشار الكواكب في السماء ليلاً ، واستحالتها في النهار شمساً ، وانتشار النجوم[1] في الأرض نهاراً ، واستحالتها في الظلام قمراً ، هو من جمال هذه الحياة ؟؟

أوَ ليس من نورها ما في الروض من جمال يمليه عليَّ

(١) النجوم : الزهور .

كلما تنفس صبحي ذبول النرجس ، وإطراق الشقيق ، وحياء الورد ، ورقة البنفسج ، وتناثر الياسم ؟؟

أو ليس كل ذلك من جمال الحياة ، والحياة من جمال الكون ، والكون من جمال الله ؟؟

كل ذلك أراه بعيني فأدركه بحسي ولكن ما يغشي بصيرتي منه هو أني كلما أصغيتُ إلى نجيّ الأزهار وهمس الغُدر وهينمة النسيم ولحن الطير ، أسمعها بحسّ لا يكذب ، وسمع غير خوّان ، تناجي ذاتها بذاتها وتقول :

لماذا خلقت وكيف أحيى وإلى أين مصيري ؟؟

وهكذا يوحي إليّ ابتسام الصبح ووجوم المساء وسكون الليل وخشوع الكواكب ، وكل ما في الكون من اجرام ، أنها تتناجى وتتساءل في الحياة :

... لماذا خلقنا ؟ وكيف نحيى ؟ وإلى أين مصيرنا ؟؟

نسيتُ ومضةً من نور تلك الحياة ، بل شعلة من نارها ، يكاد كلما أوقدها الفكر يحترق بها دماغي فيسيل

من شفتيّ قلمي مداداً ، ويفيض على تراثي دمعاً .

تلك الشعلة هي هذه الأماني التي تجول في سماء خاطري ، وتحوم عليها عرائس خيالي ، فهي سلوتي التي آنس بها في وحشتي ، وسميري إذا جنَّ الليل .

كم تُخيّل لي « والشعر خيال » مَن أهواه إلى جانبي يمسح عبراتي ببنانٍ أحسُّ أن روحه من ورائها ترف على أهدابي ، وكلما غادرته لبث صامتاً يعدُّ خطواتي حتى إذا حيل بيني وبينه استمرّ شاخصاً إلى الباب ، مصغياً بكل جوارحه يتحسس عودي ، فإذا أحسَّ بي نهض مسرعاً يكفيني موؤنة قرع الباب وعناء الانتظار لديه .

وكلما أصبحت نبهني ما يتراكض منه بين نهدي وعلى مراشفي من قُبلٍ هي بعض ما يجده في الحب ، وكل ما أطلبه في الحياة .

أنتبه من ثباتي فأجده مكبّاً عليّ يطالع في وجهي سفر حياته مليئةً بالسعادة والغبطة .

يوسّع ما ضاق في عينيّ من الحياة إلى أبعد ما ترمي إليه أفكار الآمل فيها والحريص عليها ، وربما كان هو في معزل عن كل ذلك ، ولكنه الحب !!! وماذا وراء الحب للمحب من (أمل) ؟؟؟

يبلغ البائس من الشقاء حدّاً يلصقه بالأرض فيريه البدر في الافق رغيفاً والجوزاء نطاقاً ، وينتهي به إلى حال تريه ظلمة القبر نوراً يتلمس فيه الطريق إلى الحياة .

يتمنى لغُربه أن لا يرى للصباح وجهاً ، ويمقت لما يستره من الليل كلّ شارق ، حتى كأن البدر قذىً في عينيه ، والكواكب عيون تنم عليه ، فإذا مرت به من مهبّ الحياة نسمةٌ تحمل أريج الحب فتنم عن سرّ الجمال في الكون ، رأيت نور الحياة ينبعث من خلال غضونه المشتبكة فوق جبينه الصلت ، وخديه الضامرين . ورأيته وهو « ملتحفٌ أوراق الشجر يأْكل العشب ، ثم يفترش الترب » كأنه يرفل في حلل الديبـــاج على خُوانٍ من المندل الفيّاح تحت قبةٍ من الفيروزج تحملها قوائم المرمر

في جنة عالية تجري من تحتها الأنهار ، ولا غرو ، فالجمال مصدر الحياة والحياة مصدر الحب ، فالحب إذن هو :

« وليد الشعور بالجمال في الحياة »

إيه أمل !!!

ذاتَ الجمال المحفوفِ بالبؤس والشقاء !!!

ماذا خبأته لك الأيام ؟ أتراكِ تردين منهلاً لم تلغ فيه كلابُ الجشع في الحياة ؟؟؟

أم تُراكِ بالغـــةً في حياتكِ الوهمية ذلك الزوج الخيالي ؟؟

جميلٌ أنت يا ابن العمّ ! يا ناظم !؟

أحبُّ فيك لطف الشمائل ، ورقة الطبع ، وخفـة الروح ، أحب فيك الشباب الغضّ ، والفكرةَ الوقّادة ، أحب فيك العين الساحرة ، والفم البسّام ، أحب فيك كل ما فيك من جمال الحياة ....

وأتمثلك في كل خلوةٍ أخلوهـــا بنفسي ، عروسَ

خيالٍ أسكب دمعي عليها نثاراً ، فيبكيني ذكرك ثم يضحكني ، ويسرني ثم يؤلمني .

أتمثلك بجمال هذا الجسد الفاني فأضمك ، وأنت بعيد عني ، وأشم من عطفيك عبير الحياة الحرة ، ثم يعرض لي ما تخلقت به من أخلاق هؤلاء الخُنَّع من ذوي الشباب المخنَّث الهائمين في وادي الشهوات يحسبون الحياة :

(معازفَ تهلك فيها النفوس
وصهباء يهلك فيها النفس)

لا يبالون ، وهم في مسارح اللهو ، يتلوى بينهم من عواهر الغرب افعوان يعطيهم من السم أضعاف ما يأخذ من نفيس حياتهم مالاً ودماً ، لا يبالون أن وراءهم بلاداً لم تغذهم بتربتها ، وتظلهم بسمائها ، ولم يترعرعوا في حجر الطبيعة منها « بين غصون تحنو ، وطيور تغرد ، ونسيم يخفق ، وماء يتدفق على ضفتي بردى ، وبين الرافدين إلى شواطىء النيل » .

إلا لتستقبلهم رجالاً يتمشون إلى العز بأقدام تدفعها قلوب لم يعدُها قول الشاعر :

فتّش تجد خلف الضلو ع قلوبَنا ، وخلاك ذم ،
زُبراً من الفولاذ أو قطعاً من الصخر الأصم
فِلذٌ يفلّقن الحديـ ـد وهنَّ من لحم ودم

هكذا نريد رجالنا في الحياة ، والحياة نضال لا يصمي قلب الهدف من رجاله إلا من سعى إلى الرجولة من طريقها فكان رجلاً .

فهل يدرك شبابنا اليوم رجولتهم عن طريق التخنّث في سبيل الشهوات فيكونوا رجالاً يبنى على أكتافهم البيت الذي تأوي إليه الأمة ؟؟؟

والمرأة الحرة تريد في قرينها ثلاثاً لا تبالي ما يأتيه بعد وثوقها منهنّ فيه : بطولةً تحفظ كيانه ، وعفافاً يصون عرضه ، وحبّاً يدنيها من قلبه .

هكذا أريد أن أرى قريني في جانبي بطلاً تملأ

١

هيبته صدري فيملأ حبه قلبي ، أريده أرقّ ما يُلمس قريباً مني ، وأصلب ما يُعجم بعيداً عني ، آمنُ إن نظرتُ إليه صولةَ الدهر وأهله بين قلبٍ يتطاير من عينيه شرراً إذا غضب ، وروح تفيض من هيكله رقة ولطفاً إذا رضي .

كذلك شريكي في الحياة ، أريده رجلاً رجلاً لا فتاةً يقبع في كسر بيتي نهاراً ، ويذرع الأزقة وأمكنة الدعارة ليلاً ، كلما أصبحت سبقني إلى المُكحلة والمُدهن يكتحل ويدّهن ، ويتفنن في تدقيق حاجبيه ، ومسح شاربيه ، وصقل عارضيه ، وترجيل شعره وتصفيفه ، وغير ذلك من أنواع التخنث ، ثم يبرز إليّ في زينته كأني أعده بكراً تزف ليلة عرسها .

ثم كيف أطمئنُّ إلى شريكٍ في الحياة يزعم أنــــه يستطيع مبادلتي الحب وقصرَ ميولِه عليّ وهو يقطع ليله مقلّباً أكف الفتيات يتصفح وجوههن فيمسك الواحدة ويترك الأخرى ؟؟

أم كيف آمنُ عليه أن لا يحتويني أيّان يذوي غصني ، ويغيض مـــاء شبابي فيلفظني ، كجني النخيل يؤكل تمره ، ويُلفظ نواه .

لا . . لعمري لم يهبني ربي هذا الجمال يتضاءل لديه كلّ جمال ، بين زهر يرفّ وماءٍ يشفّ ، ليعيث به خليع متهتك .

وما عليّ ، وقد نضج فكري ، ولما ينضج ثمري ، أن لا أكون حرةً في زواجي بصيرة بنفسي أضعها حيث يذكو بخورها ويُجثى أمام هيكلها ؟؟...

ألأني أريد أن أصعد بكِ إلى حيث النور يمحو ظلمة نفسه المقيدة بالخرافات والتقاليد ؟؟؟

وأطلّت عليها الشمس من وراءِ الجدارن ، فرأت أمامها خيال شخص منتصب فوقها ، وسمعت صوتاً من ورائها يناديها :

أمل !!!

فالتفتت إليه مذعورة وإذا هو ناظم ، وقد وقف

على رأسها ، فوعى كل ما دار بينها وبين نفسها ، فآلمه هذا الحوار ، وذهب به سوء الظن مذاهب شتّى ، فكانت فاتحة خطابها لدى انتباهها أن ناداها باسمها ، محفوفاً بما أدركته من تأثراته النفسية ، لذلك قابلته لدى التفاتها بابتسامةٍ تنمُّ عن حياء واعتذار ثم قالت :

أأنت هنا يا ناظم ؟؟ فأجابها :

نعم ! أنا هنا يا ابنة العم منذ (أظلمت نفسك) حتى (ذكا بخورها[1]) وقد جئت بالحليب ، فوجدتُ سريركِ خالياً ، فتفقدتكِ في الحديقة ، فإذا أنتِ تغسلين قلبكِ من أوضار ابن عمك وخادمك ناظم . أوَ ليس كذلك يا أمل ؟؟؟

ألأني أريد أن أرفع عن بصركِ غشاء الجهل ، فأصل بكِ إلى حياة جديدة تتمتعين بها في عصر المدنية عصر النور ؟؟؟

ما لك ولهذه الأفكار البالية الرثة ، التي أكل عليها

---

(١) يشير إلى بدء كلامها وختامه .

الدهر أجيالاً ، أفلا نمشي يا ابنة العم كما يمشي هؤلاء الناس الذين سبحوا في الفضاء ، ولما نزل نرسف في قيود الذل والعبودية ، تحت ظلام الجهل المخيم فوقنا ؟؟؟

كيف نجاريهم ونلحق بهم ، ما لم نسر خلفهم ونأخذ الحضارة عنهم ، بما يحفها من حسن وقبيح (كما نزعم) على أني لا أرى فيما يأتونه « من دقيق في الحياة أو جليل » ما يسمى قبيحاً . .

حتى متى أراكِ تتشدقين بهذه الأقوال السقيمة ، والآراء السخيفة ، فتلهجين تارةً بالعفاف وطوراً بالأخلاق ؟؟؟

وما هيَ هذه الأخلاق ؟؟ أليست أموراً نسبيَّة في الأمة ؟؟ فربما كان حسنها في وقت قبيحاً في وقتٍ آخر فهيَ تتطوَّر بتطور المجتمع .

وما هو هذا العفاف الذي تلهجين به قائمةً قاعدة ؟؟ ولعلكِ تجهلين حده الحقيقي ، فليس هو كما تتوهمين من أنه مخالفة النفس وكبح جماحها عن الخوض في الشهوات ،

فلستِ ببعيدة العهد عن وصية أمك التي جاء فيها : « إن النفس يا بنيـــة ما دامت حرةً طليقةً ، لَتشفُّ عن سر الحياة ، فإذا ضُغطت كبتها اليأس ، وتسربت إليها جراثيم الفساد ، فيأسن نميرها ثم يخبث فيتلاشى » .

والنفس بطبيعتها تميل إلى ما في الحيـــاة من لذة واستمتاع ، فهي كالطائر الذي يقطع حيـاته تحت نور الشمس وفي الظلال بين الزهو والماء، حرّاً طليقاً، يداعب الأغصان ، ويشاطر النسيم رقةَ طبعٍ وخفوق جناح .

فلا تدعيها من إسار عقلك الخرافي ، تحت كابوس يرّبي فيها الخنوع والاستسلام ، ويحول بينها وبين جمال الحياة .

وما الحياة يا أمل ؟؟؟

هل هي إلا ما يختلسه المرء من لذة تحيط بها أنواع الآلام ؟

وما هو الموت ؟؟

هل هو إلا ما يعترضنا في سبيل الوصول إلى تلك المُتع من آلام هذه الحياة ؟

فنحن في دنيانا أمواتٌ أحياء .

وإنّ في الناس يا أمل ، من لم تصل عقولهم إلى إدراك سرّ الحياة ، فكانوا منها مكان المشرف على الماء قد أحجم به عن وروده ما يريه عقله الخرافي حول الماء من جِنة وغيلان ، فمرّ بالماء وهو يلحظه بعين أصبحت مما يُلهب العطش في جوفه ، بعيدة الغور ، مشنَّجةَ العصب .

كذلك هذا القسم من النـــاس يمشون بيننا ، لا يشعرون بالحياة ولا هم في عداد الموتى ، فاحذري أن تكوني واحدة منهم يا أمل !!..

إنّ أفلاطون « رأس الفلاسفة الناظرين إلى الحياة بعين تسبق العقل إلى الهدف الأسمى فيها » يرى أن خرق هذا العفاف الذي تعنين ضروريٌ في الحياة للطبقة العليا من الأمة ، فقد سنّ لهم الإباحة في جمهوريته التي لا تزال بين أيدي الخاصة عشرات القرون ، تملأ نفوسهم

بما فيها من حكمةٍ دهشةً وإعجاباً .

ولا أريد الآن في موقفي هذا أن أحملك على الاعتقاد بما أرى ، ولكني سوف أجتهد أن أصل بكِ ، وأنتِ غِرة ، إلى حيث أراني خفيف الكاهل من هذا الواجب الذي حملته تجاهكِ بدافع الحب والرحمة والقربى .

ولكي أمهّد لك الطريق إلى الحياة الحرة التي أسعى وتسعين لها ، فقد جئتك بقطعة من مذكرات أحـــد شعراء العصر الحاضر ، يتحدى بها اولئك الذين بلغوا الحياة ، ونحن في طريق الموت نجهل ما يرمي إليه لفظها ؛ وقد تعامين مبلغ إعجاب الملأ بهذه المذكرات ، من أنك تقرئين فيها الطبعة الخامسة لعامين من ظهورهـا كمؤلف بسيط .

ثم ناولها الصحيفة ، وأخذ يدها ليقبلهـا ، فدفعته عنها برفق واستعطاف ، وودعها وانصرف .

عادت إلى غرفتها وجلست وراء مكتبها تُعد نفسها للاطلاع على ما في الصحيفة ، وقد دفع بها كلامه

الذي كان يبعثه عن غيرة واجتهاد ، تبينتها من إشاراته ونبراته ، دفع بها لأن تقف مضطربة الأفكار بين الشك واليقين، اضطراب السمكة قد لفظها البحر على الشاطىء، ثم تناولت الصحيفة وفتحتها ، فإذا هي تقرأ في رحلة سائحٍ شرقي ، ورد العالم الجديد ، يقول في مذكراته[1] :

« يوم الجمعة السادس من حزيران سنة ١٩٣٠ الساعة الثانية عشرة ، قُرع الباب فأوقظني من سباتي ، فقمت أفتحه وإذا بصديق يحمل إليَّ فتاة في الثامنة عشرة من سنيها ، جميلة المحيا ، معتدلة القوام .

سلمني إياها وانقلب على أن يعود بعد ساعتين لاسترجاعها .

ضاجعتها والعفاف بيننا فأشعرت وأنا أقلبها وأتقلب معها أنها تقبّلني وتحسب وجهي ديناراً ، وتبتسم لي ويدها تضرب على جيبي لتسمع رنين الدراهم .

---

(١) الفصل الآتي يمثل ناحية من نواحي الحياة في الغرب ننقله إلى القراء في معرض الاستهجان لا الاستحسان .

إذن ليست هذه هي الفتاة التي أحلم بها ، فأقصيتها وخرجت قبل الوقت المضروب لاسترجاعها ودون أن أمتع نفسي بها .

عاد صديقي فوجدني فرداً ، وقصصت عليه ما جرى ، فرجع وما عتم أن عاد ومعه ثانية ، ضرب بها على الوتر الحساس مني وأخذت لأول نظرة مأخذاً من نفسي لم أملك معه إظهار إعجابي بجمالها الفتّان ، ورقتها الخلاّبة .

جلست إلى جانبي على الفراش ، وارتدّ صاحبي ليعود بعد ساعة ، فلمستُ منها بشرةً كطي القباطي أحسست من وراء ذلك اللمس اختلاجاً في صدري ، وذهولاً استولى على لبي .

ترتدي ، وهي في الرابعة والعشرين من سنيها ، حلةً سوداء مشقوقةَ الجيب إلى أُصول النهدين ، ينتهي كُمّاها حيث يبتدىء العضد ، وتبتدىء حواشيها حيث ينتهي الفخذان .

شفتان كأنما شقتا من شقيق النعمان طبعاً لا تطبعاً ، تنفرجان عن ثنايا الاقاحي ، رقــةً وبياضاً ونضداً ، فوقهما أنفٌ ليس بالأخنس ولا الأشم ، لا العريض ولا الرقيق المتناهي ، يكتنفانه وجنتان أنعم من الديباج لم تظهر مسامهما ، فهما وسط بين رقة الماء وقسوة التفاح .

فوقهما عينان بينهما وبين القلوب عراك دائم ، فيهما ذبول ليس للنرجس ، وتأثير ليس للسحر ولا للخمر .

تحت جبهة كالهلال لم تنهد ولم تغر ، ترف عليهـا طرة لم يعدُها قول الشاعر :

(وعلى الجبين أحمٌّ وَفرتهـا
غسق الدجى موفٍ على القمر)

مجومة الشعر لا هو بالأسود الفاحم ولا الأشقر الفاتح .

تحت ذلك كله عنقٌ أصدق وصف عليه أنه لا يوصف ، كأنما هو سبيكة من الدر رُكّبت فوق صدر من العاج ، قد نهد فيه حقّان يخفقان فوق قامة مجدولة

الخصر ، يموج من تحتها ردف هو ملءُ الإزار ، على فخذين ألفّين، يحملها ساقان قد تجاوزا حدّ الوسط قليلاً.

أنعمت النظر في مجموعة ذلك الجمال فبهت خمس دقائق أجيل فيها نظريَ بين تلك الأزهار ، فيعود على فكري بالدهشة ، وعلى نفسي بالحسرات مهما أطلقت العنان لقلمي في ميدان ذلك الجمال المعجز ، فلاأراه بالغاً في وصفه الحدّ الذي يمثله للقارىء كأنه ينظر إليه ويلمسه ويشمه.

إن لتلك الفتنة ، بل ذلك الملاك ، بل ذلك الصنم المعبود ، إلتفاتةً إلى الناظر إليها لا يملك معها أن لا يلفظ نفسه مع الأنفاس ختمت هذه الفترة التي خدَّر مشهدها أعضائي إلا النظر بقوله :

من رأى غصناً ترنّحه نغمات القرط والوتر
فوقــه زهر تفتّحه نسمات الشوق لا السحر
تحت خد كاد يجرحه فاسق العينـين بالنظر

عدت من مأربٍ خرجت له وتركتها تصلح من شأنها فوجدتها مستلقية على السرير وقد نزعت معطفها

وسراويلها إلا الشعار وهو قميص من الحرير العنّابي يستر ما دون نهديها إلى ركبتيها ويتصل إلى كتفيها بشريط من الحرير الأخضر يعترض (الصرة) ثم ينحدر كالوشاح فيلتف على حواشي الفضلة وقد خالفت بين رجليهـــا فأركبت يمناهما اليسرى وأطلقت نهديها من اسر اللباس فبرزا يحملان من ثمر الفرصاد ما هو بالمرجان أشبه منه بالياقوت .

لم تبصر عيني رماناً في العالم يحمل مرجانا
لكن هنالك بستانا يحلو لي منه وأنت به
نهد وبنان يد وفم

لم تنزعج أن فاجأتها ولا غيرت من هيأتها ما يشعر بانتباهها ومضت تقرأ في كتاب تحمله بكلتا يديها الضاغطتين بذراعيها نهديها الكاعبين .

وقفت استلفتها فلم تأبه لي واستدرت وهي تبتسم ابتسام العـارف المتجاهل وهو يتحبب إلى المفتون به شاخصة إلى صفحات الكتاب ، فمددت يدي إلى أصل

فخذها فأكبّت على صدرها تولّيني ظهرها البض وقد انحسر القميص عن جماع فخذها الأيمن حتى الردف ، فلم تقع عيني على أجمل مما أراه إذ ذاك ، فخذاً ألفّ ، حنطيّ اللون ، مكتنز اللحم ، يعلوه ردف مقوس مستدير أشرف منه على متن كالعاج مُشرّب بحمرة لا أكاد أتبيّنها فيه لولا ثورة هاجت بي إذ ذاك فكدت أدميه قضماً وكدماً .

ضاجعتها وأحسب أني فارقت الحياة الدنيا في بيروت وقاسيت عذاب البرزخ في بحر الظلمات ثم نشرت على الساحل الفضي وحوسبت على شاطىء الأمازون فكنت ممن زُف إلى الجنة في ديترويت وعانقت الحور العين على جانب النهر Riverside 1335 ...

أحار كيف أشفي غليلي من هذه العجيبة في حركاتها وسكناتها الفتانة في نظراتها ولفتاتها ، أهوي إلى فمها فأمكن شفتيّ من شفتيها فلا أرتوي منهما مصاً وتقبيلاً وشماً ، وكلما زدتهما لثماً زادهما الجمـــال رونقاً وزادني

الشوق بهما ولعاً أستضحكها فتبعث إليّ ابتسامة تعلمني كيف ينشقّ الياقوت عن الدر فأسرع الى ادخال شفتيّ بين شفتيها وأمتص من خلال تلك اللئالىء ما هو برد للغلة وشفاء للصدر وربما مانعتني ذلك فأخذتُ بسفلى الشفتين أمصها فلا أرتد عنها حتى أحس أن فمي قد امتلأ دماً منها ثم أرجع فأردد فيها نظراتي وأرى أني لم أصنع شيئاً .

ليس للجاني ولا لفمي زهو خديها ومبسمها
فاسألوا ألحاظها أدمي أم دم العنقود في فمها

والمرأة الجميلة الشاعرة بالجمال إذا وهبت نفسها للجميل الشاعر بالجمال ولّد هذا الشعور بينهما الحب ، والحب وليد الشعور بالجمال ، فلن يستطيع إذ ذاك كلاهما أن يسكّن ما يثيره الشوق في نفسه بالضم والتقبيل وما إليهما مهما تلاصق الجسدان وتلاحمت الشفاه ما دام من هذا الجسم فاصل بين الروحين يحول دون التآمهما التآماً كلياً حتى تفنيَ المادة ويخلص الروحان من

سجنيهما فيتحدا بدافع الحب الموّحـــد بين الأرواح المتلائمة .

لذلك ترى المحب الواله لا يكتفي من حبيبه بالضم والتقبيل دون أن يتجاوز ذلك إلى ما يظهر أثره في وجه من أحب وعلى عضديه وعنقه من زِرَّةٍ وتخديش[1] ..

كلما أحست بعزمي على امتصـــاص شفتيها رفعت رأسها تجنياً ودعاباً ثم أباحت لي عنقاً جمع بين نعومة الزهر وبياض الكافور وربما مكّنت سنّي من نحرهـا فأخذت بعضدي تستغيث بي وتحيلني إلى نهديهـا « تحسبني طفلاً أتعلل بهما » .

نعم أنا ذلك الطفل ! ألهو وألعب باليانع من ذلك الثمر والناضر من تلك الأزاهير .

أنا طفلكِ يا ملاكي أقلب طرفيّ في حديقتكِ الجميلة التي غرستها يدُ الجمال زهراً لا يذبل وثمراً لا يتناهى نضوجاً كأني أفتش بين أوراقها على رشدٍ أضعته وقلبٍ

---

(١) الزرة بالكسر : أثر العضة .

أنذرني بضياعه زند ألف وحشاً مخطف مطوي الكشح ، كلما مددت يدي إليه تصببت عرقاً للرعشة التي تملك جسمي والوجيب الذي يستولي على فؤادي .

إن الواله ليحس عند لمسه تلك الحشية من التكهرب ما يفقده حواسه ويأتي على مشاعره .

تزل أناملك عند لمسها كأنما دهنت بالسليط رقة ونعومة وإذا مررت بها على الكشح منحدراً نحو الوراك حسبت أنك تمرّ بيدك على متن المهرة الأرنة .

كشح هضيم ووركان قد تجاوزا حدّ القوام فتلبّد عليهما من مكتنز اللحم وثيرتان التقيتا فاتحدتا مستديرتين كدعص الرمل المندّى .

لم أشعر (وأنا الشاعر) ببلوغ الحلقة الأخيرة من سلسلة اللذات حتى فوجئت بقرع الباب فانتبهت من ذلك السبات العميق وتلك السكرة المدهشة دون أن أختم الورد حرصاً على الحب أن يفسد وإبقاء على ماء الحياة أن يراق .

دخل الصديق وقد أوشك صبغ الليل أن يحول ولسان الصبح أن يندلع ، فأخذ بيد الحبيبة بعد أن أمهلني بضع ثوان خلوت بها للوداع فكانت كلها قبلةً واحدة تساقط على أثرها من الدمع ما طهر صفحتينا مما لطخها به الحب من الإثام .

ليلة مرت وليس ما دار بيني وبين نعمى العيش فيها إلا :

(كلوث إزارٍ أو كحل عقال)

وهكذا الحياة ظل قالص وخيال سانح .

خمس ليال بتها بعد تلك السانحة وذلك الحلم اللذيذ على أحرّ من الجمر وأقلق من مضجع السليم . أقرأ فيها سفر الحياة ، حيـــاة العاشق ، بين عين مسهدةٍ وجفنٍ قريح ، بين وساد قلق وفؤادٍ خافق ، بين لبٍ تائه ورشد شارد .

أطل عليّ ذلك الصديق في صبيحة اليوم السادس أو

قل سقط عليَّ سقوط الطل على النبات الصادي فلم أملك عبرة السرور والهتاف بتحيته.

نظر إليَّ فبُهت لا يتكلم ثم قال: ليس ما جئتك به بأعجب مما رأيته منك، خمس ليالٍ تركتك في بدئها أنضر من الزهر الريان تنتهي بك إلى ما أرى؟ ماذا جرَّ عليك أن يذوي غصنك ويذبل زهرك.

ـ هات يا اميل ما وراءك من أخبار (وداد)[1]؟ إن ما تراه في صديقك هو من آثار الوجد الذي أضرمتَ ناره في زوايا نفس الشاعر.

ـ خلفتها أذوى منك غصناً وأذبل زهراً لم أرها إلا البارحة وهي مع إحدى لِداتها، فلما أبصرتني بادرت إليَّ تسألني عنك وتحاول أن تخفي ما قرَّح جفنها وعصفر محياها، ثم طلبت اليَّ أن أستميحك لها في أن تزورك الليلة، على أني حفظت منها جملاً اشعرت أنها أشربت حياتها ألفاظ تلك الجمل قالت:

(١) وداد: اسم مستعار واسمها الحقيقي آمي Amy.

«يا اميل: أنا في الرابعة والعشرين من سني حياتي قد قطعت ستة أعوام من ربيع تلك الحياة البائسة اقلّب أكف الفتيان أبحث عن اليد التي أضعها على صدري فيخفق لها قلبي وإذا صافحتها أحسب أني أقبض من باسطها إليّ على قلب أسمع ضرباته، حتى إذا كان مساء اليوم السادس من جون سنة ٣٠ الساعة الثانية أدلى إليّ صاحبك بتلك اليد التي لا أزال كلما لبست فضلتي[١] وتجردت من ثيابي أشم ريحها بين نهديّ وعلى مراشفي.

لا أدري يا اميل: غير اني أقول إن الحياة التي أتلمسها بيدي، وأمد إليها بصري قد أطل عليّ بدرها من تلك الغرفة، بل من ذلك الأفق الذي آمل أن يكون مطلعاً لفجر حياة جديدة، لم يزل منذ أعوام يخفق لها قلبي، وتنزع إليها نفسي».

وضعت يدي على كتف صديقي شاكراً خدمته ومثنياً على إحسانه إليّ ثم قلت له: أنا مستعد للاجتماع

---

(١) الفضلة. ثوب العمل ويطلق على قميص النوم.

الثاني في ليلتي هذه التي سيسطّر لك فيها قلم الحب المتبادل بين الحبيبين آيات الثناء الخالدة .

لم يلتقِ العقربان في الثانية عشرة من مساء الجمعة ١٣ حزيران سنة ٣٠ حتى فتح الباب ودخل منه رضوان يقود لي حوراء الغواني .....

أسلمها إليّ وعاد على أن يعود وجه الصباح فشيّعته إلى الباب حتى إذا توارى عن عيني عدت إليها فوجدتها واقفةً حيال المرآة تتفقد جمالها محاذرةً أن تقع عيني منها على ما يشوّهه ، دنوت منها فانقلبت إليّ مستظهرةً مرآتها ودنت مني حتى التقى الصدران وما يليهما دون أن أتكلم أو تتكلم إلا أن الأعين تتناجى والأنفاس تتصاعد ، وكل منّا يهم بخرق العفاف ، ولكن الهيبة مدّت في أجلِ تلك السكينة .

ثلاثَ دقائق وبضعَ ثوانٍ سادَ هذا السكون بيننا ، ثم انتهى أجله برفع يديْ كلٍّ منا إلى يسرى الآخر ، فكأنما اتصلتا بسلكٍ واحد إلى قلبين تنبعث فيهما قوة مصدرها واحـــد . أمررت باطن يميني على ظاهر

يسارها ، وفعلت فعلي صاعدَين بهما إلى الرُّسغ فالمعصم فالزند فالعضد حتى الكتف واستقرّت يد كلّ منّا على كتِف الآخر متدلّية الأصابع مما يلي الصدر وعزز كلانا يمينه بيساره فملك كتفيْ حبيبه .

ثم أوحى الغرام إلى القلبين سرّ الحياة ـــ والحب كاتم هذا السر حتى إذا كان غراماً هتكه ـــ فبلغه إلى الأعضاء على لسان الإرادة ، فاهتزت الأعصاب واعتزل العقل مكنّه ، وحلّ الهوى محله ، ثم ضغط كل منّا زرّ الكهرباء ، فاختلجت الشفاه ، وسرت الجاذبيـــة بين الفاهين فاتحدا وأخذتْ بعُليا شفتيّ فأخذتُ بسفلى شفتيها ، ثم تبادلنا الشفاه ضمّاً وعناقاً ،

لم تشأ أن تشتفي فكنت كذلك ، وأحرّ جوىً وأشدّ هياماً ، وكلما أغراني الشوق الفاضح بمـــا دون النهدين ، أمسكتْ يدي ضارعةً متوسلة وقالت حسبك ما دون ذلك .

حتى إذا أخذ سكر الغرام منّا مأخذه ، وتحدرت

أعصابنا انحلّت العزائم وتلاشت القوى ، فألقى بنـــا الضعف على الحشيَّة متحدين رغم هــذا التلاشي وذلك الانحلال ، فكأن الشاعر ناظر إلينا حين قال :

كم رام منّا الكرى في لطف مسلكه

نوماً فما انفكَّ لا زندٌ ولا عضد

والآخر بقوله :

وبتنا جميعاً لو تراق زجاجــة

من الخمر فيما بيننــــا لم تسرّب

حللتُ عقــدة جفنيَّ فإذا هي تتكلف ذلك حتى إذا أفقنا من تلك السكرة أخذنا بأطراف التشاكي.

صعَّدتُ النَفَس طليعةً لما يجول في النفس من كلمات جاشَ بها صدري ، وليس بيننا إلا ما بين طرفي الوسادة تحمل رأسها بيد وأحمل رأسي بأخرى .

وداد !!!

إليكِ ينتهي أمل الشاعر البــائس وعليكِ يرف

خياله ، ومنك يستمدّ روحه الشاعرة .

ما كنت أحسب أنْ أودِع بين نهديكِ قبلةً أودّع بها لدى وداعك كنز حياتي الثمين .

كلا !! ولا عهدت النظرة التي رماني بها طرفكِ الساحر تجرح كبـــدي ، وتستخرج مكنون سري ، وتستنفد لآلىء دمعي .

يا أملي الوحيد !!!

إن بين شفتيكِ شفاء صدري وأراني كلما زدتهما لثماً زادني الشوق إليهما نزاعاً ، إقبلي مني كَلِماً هي كل ما أدّخره من مكنون ضميري ، ينحتها الحب الطاهر إليكِ من قلب يخفق لوشاحك ويرفّ على غصن قامتك .

إرحمي مهجةً تلاشت في هواكِ ، وجفناً قرّحه الدمع المتواصل ، أقطع الليل ..

(تحت خـــدّي من يديّ يدٌ
واليد الأخرى على كبـــدي)

يا أمل الواله الغريب !!

أما لحنيني إليكِ من أجل تنتهي عنـــده زفراتي وتسكن عبراتي؟ تصفحت وجوه الحور العين (يا وداد)، وطالعت أقمارها في ليالي الجعود السود، فمـــا وقعت عيني على القمر الذي يبهرها إلا فوق محياكِ الوسيم، ولا لمست يدي ناعم الحرير إلا تحت بردكِ الشفّاف، ولا شممت عبير المسك إلا بين ثديكِ الناهدين وعلى تراقيكِ البيض.

أصدق مثال لحياتي فيك يا وداد، هذه الزهرة التي تقابلك على المنضدة، قد ألوى بها الذبول فأطرقت نحو الأرض تحنُّ إلى التربة التي غذتها، وهكذا حيـــاة الشاعر فيك يا (وداد) قد لفحها هجير الشوق منذ أيام فجفّ عرقها وذوى زهرها وتناثر ورقها.

إن من أعجب العجب يا (وداد) أن يضمني وإياكِ بلد لو تمثّلت الحرية الشخصية شبحاً لكان وقفاً على جماله الساحر بين شجره ومائه وأرضه وسمائه، وأراني معك

وأن لا معي تناجي بالهمس من وراء الشفاه أو بالعبرات بين بين الأردان خشية أن يحس الظلام بشبحها على الصرح من وراء الجدار(١).

هذه هي الجمل التي مزجت بها دمعي السخين لدى حديثي الثاني بالفتاة الغجرية، وكيف بإيصال ما تضمنتها تلك الجمل الخالدة في تاريخ الغرام الحيّ، وهي غريبة وأنا شرقي، ولا واسطة بيننا إلا (العبرات والنظرات) على أني رغم ذلك كله قد خرقتُ حجابَ الجهل إلى شغاف قلبها بالتأثر الذي بعثه الحب الصادق على قسمات جبيني، وشكلت به أسارير وجهي، معبراً عن الرقة التي أفاضت نفسي عطفاً على ترائبها وهي تضمني إلى صدرها، وتمرّ شفتيها على شفتيّ، فتحققت ذلك مني بين قلب يخفق، وزفرة تتصاعد، وجفنٍ كلما جال في الضمير خيالها تساقط منه كاللؤلؤ، دمع بعثه الحب عن مذاب كبد تنازعتها أيدي الهوى الجائرة.

---

(١) السبب في ذلك منع البغاء في الولايات المتحدة.

كلما أحست بحرارة دمعي هتفت بي وزندها تحت عنقي والآخر قد طوقت به خصري تقول :

ما يبكيك يا عزيزي ؟ ويا قمري الساهر ؟؟؟

لا أدري بأي سبب من أسباب الحب أخـذت ، فأفضى بك إلى الدمع تريقه والزفير تصعّده .

لعمري لا أدري أن بين الحبيبين ما يبعث الدمع السخين غير الهجر أو البين الحائل دون اجتماع الإلفين ، وأراني بين يديكَ أرخصتُ حياتي في سبيل رضـــاكَ ووهبتك حتى الساعات التي يتعلل فيها الغريب بأحلامه الذهبية .

ماذا تريد مني ؟؟

هذه محاسني ، ألم أوَشّحك بالمعصم منها وأوَسّدك بالزند ؟؟ وبين نهـــديّ قبلاتك تتسابق إلى النحر وعلى الشفاه والوجنات ، ماذا وراء ذلك يا ظالم ؟؟

ألم تعكف على شفتيّ فتمكّن منها شفاهك فلا

ترويانك حتى تتركها كالزهر أيّان تجف عروقه ويسقط ورقه ؟؟

ألم تأخذ بلساني ثم لا تعيده إليّ حتى تتركه كقطعة المبرد من حرارة أنفاسك ؟؟؟

ألم أجعل لك جسمي حشيّةً تتقلب فوقها غير مبالٍ بما تضمنته من ناعم الرياش أو المخمل الحريري ؟؟؟

على أنكَ لو فتَّشت وراء هذا الجسم الذي لم أحبه لمالك أخذ بأطراف العجب مني غيرك ، لوصلت إلى نار تعلمك كيف تبكي ، وهيام يملي عليك حنين الإلف إلى إلفه .

أنا بين يديك لا أعصي لك أمراً ، ولا أدع للحاسد مجالاً بين قلبينا أن يتحدا ، على أن تكفكف من دمعك وتخفض من حنينك ، وتغضي عن الخيال الذي يُطمعك بساعةٍ أراك فيها تختم الحب بلذةٍ لا يتجاوز عمرها بضع ثوانٍ تنحلُّ على أثرها آخر عقدةٍ أحكمت يد العفاف شدَّها » .

وابتسمت ....

فأدركتُ مبلغ ما تحاول من إغرائي بجمالها ، وأن هنالك تعففاً لا عفة ، فوثبت إليها وطوقتها بذراعيّ ، بعد أن ملأت فمها بقبلة جائرة ، ثم احتملتها إلى السرير متكسّرة الأعضاء مرسلةَ الشعر ، يتقلّب على منتبها وعضديها ، وأنا أسنّدها بالوسائد فقالت ، وقد حسرت شفتيها القرمزيتين عن ثنايا رَسَمَ الابتسام عليها ضروباً من الملاحة والسحر ، وعلت وجهها حمرةُ الخجل ، وأمسكتْ يديَّ الممعنتين في حلِّ نطاقها ، برفقٍ واسترحام .

وصكّت ركبتيها المليئتين البارزتين من شقّ ثوبها الأحمر الوردي ...

قالت ، وقد التهبت عيناها النجلاوان بنار الشهوة :

ما تريد أن تفعل بي ؟؟؟

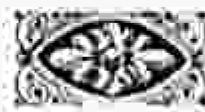
آه رحماك !!!

إرفق بي ؟؟؟

عزيزي !!!....

ولدى آخر لحظةٍ من القمر المطلّ علينـا من نافذة القصر كانت ....

وكان الصباح !!!...



أمل

« موقفها تجاه هذه الرواية »

لم نقم على هذه الأجساد الضعيفة بأنواع الوقاية ، وهي من الصخر أو الحديد ، فإن الأجسام لم تخرج عن كونها لحماً ودماً تتأثر بما يعرض لها في الحياة ، وأسرع هذه العوارض نزولاً بها وأشدّها وطأةً عليها ، هو ما يبعثه انفعال النفس المخزونة فيها ، فالهواء الذي يحمل الجراثيم والهوام التي تنقل العدوى وغيرها من العوارض الخارجية ، هو دون ما يحدثه تأثر النفس بالخوف والغضب ونحوهما مما يعرض لها

فيتأثر به الجسم ..

فإنّ الناظر إلى أمل وهي تتصفح هـــذه الحادثة المزعجة ، التي حاول ناظم أن يصرفها بها عن نظريتها في الحياة ، إلى نظريته التي يرمي بها إلى الاباحـة ، وترمي هي إلى عكسها .

فالناظر إليها إذ ذاك يقرأ على وجهها ، أجلّ ما يمرّ بها مما في الصحيفة بين ألم يقبضه ولذةٍ تبسطه ، وربمـا أدرك منهـا وهي في فصل الدعارة أنها ترفضّ عَرَقاً ، يكاد يجمد له الدم في عروقها ، حتى إذا انتقلت منه إلى الحنين والشكوى بعث في نفسها ما لم تملك معه أن تمزج الدمع بمداد الكليم .

والمرأة ـــ من حيث هي امرأة بروحها الشفافـــة وعقلهـا الساذج ـــ أعجز من أن تستعصي على الرجل الداهي ، وهو يُعمل ما فيه من سموّ فكر وسداد رأي قضى درسه العلم فناً واجتماعاً أن يحرزهما دونها .

فالمرأة المخلوقة للبيت غير الرجل المخلوق للمجتمع ،

فبقدر ما بين البيت والمجتمع من التفاوت يكون بين عقل ابن المجتمع وعقل ابنة الجدر .

بذلك تقضي العوائد الإسلامية ، وليس هو من الدين في شيء .

فلا يك بدعاً لديك أن ترى أمل — ولمّا تدرج من عشها إلى غير الشجرة التي زغبت في ظلالها ، فهي لا تعرف غير ناظم يغشاها كل يوم ، فيقص عليها ما رأى وما سمع مما يحبّب لها الحياة التي يميل إليها لتحيا محياه — والمرء نتيجة ما يتأثر به في محيطه — فلا تعجب أن تراها إذ ذاك ، وقد علق جناحها في شركٍ أحكمت صنعه يدُ خاتلٍ أفاك ، فلم تستطع نهوضاً تتبيّن من ورائه منفذاً يفضي بها إلى نور الحياة الحرة . والمرأة كالمرآة تأثراً وانفعالاً ، على أن المرآة إنما تتأثر بالكثيف من هذه الأجرام ، والمرأة تتأثر به وبعكسه مما شفّ ولطف . من أجل ذلك لم يكن الناظر إلى أمل بعد تلاوتها الصحيفة ليشك في أنها غيرها قبل تلاوتها ، فقد كانت — وهي

تطالع وصف الشاعر في الرواية جمال ما يتخيّل وهو كما رأيت ، وصف يفتتُ في عضد الشرف ويندى له جبين الإنسانية خجلاً ، على أنه يستغوي النفوس الضعيفة ، ويفتح أمامهــا باباً إلى الشهوات ، لا تبصر دونه شرفاً يضمحلُ ولا حياةً تتداعى ، —

كانت إذ ذاك ترفع رأسها فتجيل فيما حولها عينين تلتهبان بما تنمّان عنه من انفعال النفس ، كالجمر المضطرم ، ثم تنهض إلى المرآة تتفقد جمالها فترى أنه لا يزال كما تعهد ، كالزهر إبّان ربيعه ، ثم يمرُّ بها خيــال ناظم الفتّان ، فيبعث على فمها ابتسامة تملي على ناظرها الإعجاب والزهو — والمرأة الجميلة أزهى ما تبدو لك وأنت تطري جمالها أو ترى هي تأثيره في نفسك —

تلتفت إلى افتتان حبيبها ناظم بالجمال مما تقرأ ، وترى أن جمالها فوق ما يصف، فتخلد إلى الاطمئنان والسكينة، ثم يتسرب إلى نفسها فجأةً أنه ما دام مفتتناً بالجمال (المطلق) وأن جمالها المقيد كجمالِ كل فتاةٍ هو عرضةٌ لغيرِ الدهر ،

فلا تأمن يوماً ما أن يَعرض لجمالها ما يشوّهه فيعرض هذا الحبيب عنها ، وليس ذلك ببعيد ، فإن من يتعشق الجمال إذا لم يملك نفسه ، كان كالمتنقل في روضـــة من الأزهار كلما راقه منظر زهرة فهام بجمالها الفتّان ، عرضت له أخرى أجمل فجذبته إليها ، وهكذا تتنقل به نفسه الشرهة بين أزهار الجمال فإمّا أن يستمرّ في حياته موزّع الحب خليعاً ، أو تقف به نفسه عند زهرةٍ طاب ريحها وخبُث طعمها ، فتكون الخطوة التي أدنته منها هي آخر خطوة ودّع بها جمال ما فوقه وانقلب يسأل عن جمال ما تحته .

ولم تكن أمل لتميل إلى هذا النوع من العشاق ، وإنما تريد عاشقها من يتمثل الجمال المطلق في الجمـــال المقيد ، فيكتفي به إذ هو جزئي من ذلك الكلي ، فإن ثمر شجرة التفاح متنوع الجمال ولكن طعمه واحد ، والأزهار الجميلة مختلفة اللون والشكل والعطر ولكن ما تبعثه في نفس المغرم بها من اللذة لا يتجزأ .

على أن هوى الجمال في النساء لا يقاس بهوى الجمال في الأزهار فإن مناط الثاني سرور النفس ومناط الأول حياة مجموعنا البشري ، فإذا تزاحمت النفوس على هوى الجمال المطلق أحرقتها كما يحرق الفراشَ تزاحمه على النار .

تريد أمل حبيبها مقصور الحب على جمالها لا يولّي وجهه شطر غيره أيّان تتجلى آلهة الجمال فتُعبد ، ولم يكن ليعيب ناظماً في عين أمل نقصٌ في جمال أو خسةٌ في نفسٍ أو حطةٌ في نسب ، وكل ما كانت تشكوه منه أنه لم يقف من غرامه بالجمال عند حدّ ، فهي حريصة على استهوائه بجمالها والوقوف عنده حرصَه على إقلاعها عن هذا الرأي ، لذلك كانت تقتل وقتها مفتنّةً بطرق الاقناع بين جمال الجسم وجمال الروح ، وأنت تعلم أن جمال المرأة غير مقصور على انبساط الجبين ، وكثافة الشعر ، ودقة الحاجب ، وحَوَر العين ، وأسالة الخد ، ورقة الشفاه ، ودقة الأنف ، واستواء العنق الممتلىء ، ونهود الثدي في الصدر الريان ، واعتدال القامة مجدولةَ الخصر ،

واكتناز الفخذ، وامتلاء الذراعين متصلين بالسواعد الحتل، كل ذلك يكون في المرأة جمالاً ناقصاً إذا استنطقتها فبدا لك سوء منطقها، أو صحبتها فوقفت من حركاتها وسكونها على ما تمجّه نفسك وتحس منها جبلاً تروح تحته وتنوء روحك بحمله فجمال النفس جزء من الجمال الكلي في المرأة أو لعله هو الجمال كله، وملاحة الظاهر إحدى حلاه فهي منه بمنزلة القرط من سالفة الظبي الأعفر، أو العقد من جيده البضّ، أو السوار من ساعـــده المفتول.

إذا الشاعر نفسه أعيا عليه وصف ما يساوره فغيره عن تناول وصفه أعجز.

لم تنته أمل من درس الرسالة إلا وهي بما تعانيه من شتى الوساوس وصور الخيال، كالثمرة التي نضجت قبل أخواتها فكانت عرضةً لأنواع الهوام، وقد أعيا عليها بلوغ المنزلة التي تريد أن تنزلها من قلب ناظم، ولم يبق لديها وسيلة ترجو من ورائها ذلك إلا أن تمكنه من متعة

لحظةٍ بجمال جسمها ، وقد كانت قبل ذلك لا تريه إلا عينيها وبعض وجهها شأن المحجبات من ذوات العفاف ، ورأت أن موعد غشيانه المنزل أوشك أن يحين ، وقد كان يغشاها صباحَ مساء ، فعمدت إلى الحمام حيث الماء (أطيب الطيب) ثم إلى الزينة ، لا لتضيف إلى جمالها جمالاً ، ولكن تفقُد الجمال من الجمال .

برزت من زينتها ، وقد عقدت شعرها الذهبي على مفرقها كالإكليل تتخلله المواسك يعلوها شذر الجمان فكانت كملكٍ متوّج برز في يوم زينته .

ثم تدثرت برداء من رقيق الشفوف السوداء على شعارٍ موشىً يستر ما دون النهدين حتى أصول الفخذين ، ثم ألقت بنفسها على الحشيّة بين الرياش والوسائد فتمثّلت للناظر إليها تحت ذلك الدثار الشفاف ، نهراً ترفُّ عليه الظلال الوارفة وينساب منه كالجدول ذراعان تتصل بهما أناملُ كأقلام الفضة ، والبنان المتحدر من عضدين لقاوين يملي عليك من جمال الفن الإلهي ما لا تتبيّنه في فكرة

الشاعر ولا تحت ريشة الفنّان .

تعوّد ناظلم بالرغم عنه أن لا يدخل عليها الغرفة دون استئذان فإذا قرع الباب ولم تُجب علم أن الغرفة خالية فدخلها ، وهكذا كان المساء وجاء موعد زيارته فقرع الباب فتغافلت عن إيذانه ، فدخل فبهت لدى رؤيتها لا يتكلم وجمدت عيناه الشاخصتان إلى جمال جسمها كأنما هو تمثال يستقبل تمثالاً .

ما انفك في ذهوله ، حتى ذعر فجأةً باستظهارها إياه وهي متناومة تريه ، بعد أن استقبلته بجمال قُبُلها ، جمال متنبا المنحدر على الكشح والوَرِك .

فأدار عينيه فيا حوله فلم يرَ ناسكاً غيره قد جثا بخشوع أمام هذا الهيكل المعبود ، فحانت منه التفاتة إلى يديها وقد أسبلت إحداهما وعطفت الأُخرى على رأسها فتدلت أصابعها فوق ذلك الإكليل ، فقال :

رأيت فنون الحسن في الناس جمّة
ولا كالذي تُمليــــه منك الأنامل

جميلٌ بياض النحر ممن أحبه
وأجمل منه أن تضيق الخلاخل

ثم قال بحيث يُسمعها وقد وصل بذكائه إلى ما ترمي ، وعلم أن ذلك نتيجة تأثرها بما قرأته مما جاءها به ، قال :

لم أكن أحسب أن في أملٍ جمال جسم يؤهلها لأن تقف على مسرح التمثيل مَلاكاً ، وقد قطعت عشرة أعوامٍ أختلف إلى مسارح اللهو ، فلم تقع عيني على جسم يحمل هذين النهدين ويتنوع فيه الجمال متّسقاً بين متن كمجرى الماء ، وعنقٍ بعيد مهوى القرط ، وشعرٍ تتماوج فيه أشعة الشفق المُذهب، وإن لأملٍ لو أذعنت إليَّ بدرس فنيّ الرقص والتمثيل ، لَمستقبلاً يجعل بيتها هذا كعبةً تحجُّ إليها وفود أهل الأرض من عشّاق الجمال ، ولكن أنّى لها بذلك وقد تحجَّر دماغها ، وأبت إلا أن تمثّل الفتاة الجاهلية في القرن العشرين ثم خرج وقرع الباب من خارج فانتبهت من تناومها وأتزرت وآذنته بالدخول ،

وقد وعت ما دار بينه وبين نفسه تجاه آخر حيلة نثلت كنانتها بين يديه فكان نصيبها الإخفاق إلا أن تنزل على حكمه .

جلس بين يديها وهو يبتسم كأنه يشعرها بوصوله إلى ما أسرّته في نفسها فتغاضت عنه وتبيّن في وجهها كلاماً ، فقال :

كيف رأيت مذكرات الشاعر العصري يا أمل ؟

فقالت : بئست الهدية جئتني بها يا ناظم ، لم تترك شاردة من أوابد هذا العصر المظلم إلا صدعت بها شرفي وحملتني على ركوب هوجاء لا أدري أين ترمي بي ولا كيف تضعني ؟؟

حسبك يا ناظم !!

فلقد بلغتَ من نفس ابنـــة عمك مبلغاً أشفقتْ عليك معه أن يكون كفرك اليوم مسبةً عليك غداً .

ولعمري إن ما تخبئه الأيام من العجائب لا يصل إليه من ألقى الجهل غشاوةً على بصره ، وحالت دون

تدبُّره عواقبَ أمره نزوات الشبـــاب وهوى النفس الأمَّـارة بالسوء .

لقد ضحّيت بكثير من عفافي في سبيل هواك حتى لا تكون حجة عليّ فيما إذا صدق حدسي من أنك ستقع في هوّة ليس ينجيك منها إلا ما كان مما فرط منك ، وأنت رطب العود غضّ الشمائل ، فكان جزائي منك أن رحت تتمنى لي سعادة يغبطني عليها بنات السوء في مسرحٍ تُمثّل فوقه ضحايا العفاف ، فارحم هذه المحاسن التي ألبستك حليَّها ، وأسبغت عليك حللهـــا يدٌ أغفلك نَزَق الشبيبة عن شكرها .

وارحم يا ناظم هذا الشبح الذي يقابلك من رفيقة صباك ، فقد أوشك أن يتداعى رسمها إن كان في الرسم بقية من حياة .

ألم يضمنًا بيت واحد ، ونترعرع في حجر واحد ، تحت سماءٍ واحدة ، في جوٍّ واحد ؟

ألم تُرق عليك أسماء من دموع الحنان أضعاف ما

تجرعته وحيدتها أمل في موقف وداعها الأخير ؟؟؟

ألم تعدني أنك لا تفسح مجـــالاً لحب يسلبك مني ويقصيك عني ؟ ألم نتعاهد — ونحن أطفـال أقرب إلى الطهر منا اليوم — أن نقطع الحياة بعيدين عن كل ما يقترفه هؤلاء الناس في عصر المدنية الزائفة ؟

ماذا تنقم مني يا ناظم ؟

أوَ ليس لديّ مـــا تستغويك به عواهر الغرب ، وتحول بينك وبين وسادك أن يقر وعينك أن تهجع ؟

أراك تلهج كثيراً بالجمال ، وتتغنى برياته أوَ ليس في أملك هذه من جمال الطهر والعفاف والنجابة ما يغنيك عن جمالٍ يروقك لونه ويسوِّك طعمه ؟؟

وما هو الجمال ؟؟

أوَ ليس مناط الجمال في الحي لونه وشكله وروحه ؟؟

وهل جمال الروح في الفتاة إلا نتيجة تخرُّجها في بيت جمع إلى صلاح التربية رخاء العيش وطيب الارومـــة

فشبت الفتاة فيه بين حياء يقيها الصلف ، وعفاف يعصمها من الريبة ، ونعمة تحول بينها وبين خسة النفس ؟ ثم الأدب... الخ .

وأية هذه الخلال لم تصب أملك منها القسط الأوفر ؟

ولكنها النفس الغاوية يا ناظم !! يطغيها الجشع في الحياة فيحول بينها وبين أن تصعد بصاحبها إلى مستوى أوج الكمال .

ولعمري لقد سهرتُ جهدي على أن لا أخلص منك وللرحم عليَّ حقٌّ فيـــك ، فلسوف تجلس من نفسك مجلسك هذا مني وتناجيني بالدموع التي أرقتها بين يديك وسأريقها على فراقك فطب نفساً بحياتك هــذه واستَ مغبوطاً لديَّ أن أراك سعيداً بها ولا أنا بخيلة أن أتمنَّاها لك.

ثم قامت وهي تتعثّر بأذيالها ، والدمع يتحدّر على خديها ثم يتكسر فوق صدرها كاللؤلؤ يرفضّ من سلكه على الرخام فيتشظّى ، فأمسك يدها ناظم وحاولَ أن يقبلها فأقسمت عليه ليرعوَينّ عن غيه أو لتقطعَنَّ يدها ،

فتوسل إليها أن تجلس فجلست ، وألقت برأسها على المنضدة بين البكاء والرنين .

فأمهلها ريثما سكنت ثائرتها ، ثم عمد إلى شراب الورد فملأ منه كأساً رفّه به عنها حتى إذا اطمأنت وأفرخ روعها ، أنشأ يلاطفها بما طبع عليه من حلاوة النكتة ولطف الاشارة ولم يزل بها حتى استردت ما ذهب به اليأس والغضب من جمال رونقها .

والجمال أسرع ما يكون زوالاً في المرأة وهي غضبى ، وأظهر ما يكون فيها وهي باسمة ، على أن للكآبة في المرأة جمالاً نفسياً لا يتبيّنه غير الشاعر بما وراء الوجوم والتفكير العميق من رقة رنّقت في عينيّ ذلك الحزين الصامت ، ثم فاضت على وجهه فكسته شحوباً يتخلله ابتسامات تنمُّ عن الهزء بالحياة .

وإذا صمت الحزين فليس ما ينمّ على ما يجول في نفسه كعينيه الشاخصتين تخطّان شعوره بآلام الحياة على لوح الوجود .

ذلك هو جمال النفس في معرض الآلام .

لم يشأ ناظم أن يرعوي أو يفكر في سرّ هذا الجمال الماثل أمامه في مَلاك يتراءى له شخصاً ، فقد عاد أدراجه ـ بعد أن أحسَّ من أمل رجوع تلك الابتسامة الـتي عوّدته أن تقابله بها كلما نظر إليها ـ عاد يبحث عما يؤيد به نظريته ، وإن له في الاقناع لأسلوباً جذاباً للنفوس ، بما يحفه من لطف إشارة وبيان منطق ، وفصاحة لسان ، وليس هذا الأسلوب وحده كافياً في الجدل لإفحـام المناظر الحقوق مناظرَه المحق ، حتى يكون مشفوعاً بعوامل نفسية كهيبة الأول في صدر الثاني وثقة الأخير بفلَج الأول .

كل ذلك قد كان في حوزة ناظم ، وهو يجادل في إحقاق نظريته مضافاً إلى ما له من المنزلة في نفسها ، لذلك كنتَ تراها بين يديه ، وهو يُفيض في القول كالرَخمة بين مخالب الأجدل يكيّفها أنّى شاء .

وإن من نفس المناظر الهيّاب في مقام الجدل مغنياً لمناظره عليه إذ الرهبة كبتٌ للنفس وإخمادٌ لثورتها ،

وغضَّ من جماحها في مجالٍ تتسابق فيه النفوس لإحراز قصب الرهان .

قال ، وقد حدَّق بصره إلى أمل وهي مصغية إليه ،

لا أراني بين يديك يا أمل إلا كالحكيم المعدم ، بين يدي الغبيّ المثري ، أو كالناصح الشفوق أمام الطيِّع الجاهل ، فإن ثراء الغبيّ وغرور الجاهل يحولان دون حكمة الفقير ، وإرشاد الناصح المشفق ، ولن يستقيم للحكيم وهو فقير إصلاح الغبي المثري ما دام يرى في الثروة رأس الحكمة ، فمن فقدها فقد رأس ماله مادةً وأدباً .

وهكذا المغرور بنفسه ، فإنـــه لا يرى للناصح المشفق مزيّةً تخوّله حجة الإقناع ما دام يرى أنه دونه ، ولقد مرت عليّ أربعة أعوامٍ كنتُ خلالها في جهـــادٍ مستمر ، أترقّب من ورائه إصلاح من لا أودُّ أن يكون لي شريكاً في الحياة سواه ولا أبغي به بديلاً .

وكنتِ أنتِ ذلك الهدف الذي أرمي إليه وأولّي وجهي شطره ، فوقفتُ منكِ موقف هذا الحكيم من

ذلك الغبي ، تزعمين أن ما أدعوكِ إليه بريء من الحياة ، وأن ما تتمسكين به « من حبال النور[1] » إنما يتصل بالحياة التي يرمي إليها أولو البصر الصحيح ، ولعمري لا أعلم أنني غششتكِ يا أمل منذ زُرْتِ علينا برود الصبا حتى فتق الشباب عنّا أكمامه ، وإنما درست فصول هذه الحياة دقيقة وجليلة ، وخضت في العباب من تيّارها فسبرت ما رسب من جوهرها في بطون الأصداف بعد أن تصفحت ما علاها من جيَف ، فكنتُ منهـــا مكان الشاعر من جمال الكونِ ، ونزلت منها منزلةَ الصيرفيِّ الحاذق من نقد الدنانير .

إنما درست هذه الفصول من الحياة ، لِأَختارَ لي ولك نهجاً لا نجوز معه اللبـــابَ إلى القشر ، ولا نتعثر بالصريف[2] في طريقنا إلى الخزف ، فآلَ بي جديَ العاثر « ولا أقول جدكِ » إلى أن أمحضك النصيحـــة بلسانٍ ينقشها على الصخر ، أو يرقمها على الماء ، كأني إذ

---

(١) كناية عن ضعف ما تتمسك به .

(٢) الصريف : الفضة الخالصة .

أدليه بالنصح إليكِ ، إنما أنضض رأس أرقم ، ما لي ولحريتك ، وأنتِ البالغة الرشيدة ؟؟ فلن تري مني بعد اليوم رجلاً يجتهد لإنزالك على حكمه أو يبسط لك رأياً يحملك على الأخذ به ، ولم يكن ليدور تعنّتك لي في خلد ، وكنت أحسبكِ أرقّ من الماء وأطوع لي من بناني لما أثبته في نفسك من إخلاص لمستِه مني منذ نعومة أظفارك فإذا بي أراكِ ، وقد صلب عودكِ ، تقابلين نصائحي بما يشعرني أنكِ لم تبقي مني بعهد ، ولم تعرفي لي سابق صحبة كنّا فيها كالروحين يضمّها جسد واحد ، أو كالجسمين يدبُّ فيهما روح واحدة ، فكلما أدليتُ إليك برأي لم آلُ جهداً في إنضاجه قابلتِه بفتور وازدراء ، ثم انثنيتِ عني غاضبة ، فكان ثمن ما نخلته لك من الرأي إعراضاً يعقبه تبرُّمٌ وسوء ظن ، وربما بعثتِ إليّ من خلال ذلك كله كلماتٍ لم أكن ، لو لا ما أسلفتني من ودّ وعطف ، لأُغضيَ عليها طرفاً ، وأطويَ عنها كشحاً .

ولشدّ ما قرعتِ سمعي بقولك — إليك عني يا ناظم

فلست أرى منك إلا يمنوني بمستقبل أقطعه عاثرة الجد بين فساد عقل وفساد حياة — لا أدري يا امل أيَّة حياة تدّخرين لها هذا الجمال وقد أوشك أن يضمحلّ مما تتشاءمين في الحياة؟؟ أفي الأرض هي أم في السماء؟؟

لقد مرَّ على ريعان حياتك وشرخها ثلاثة أعوام، وأوشكتِ أن تستقبلي منتهى العِقد الثاني من عمرك ولما يزل لك رشدُ الطفل وعقل الغبي من الصبيان.

على من تقرئين هذه الحياة وفي أيَّ كتاب تدرسينها؟؟؟ ولعلك اعتمدت في ذلك كله على الكتب القديمة وأنتِ في عصر جديد !!!

إن لكل جيل حياة لا تتلاءم مع جيل آخر، وان من أنبأكِ أن حياة الجاهلية يستطيع المخضرَم بعد الإسلام أن يحياها أو أن حياة المولَّد يستطيع أن يتمشى عليها المحدَث، من أنبأكِ ذلك كان جديراً أن يصدق عليه أنه غريبٌ في وطنه ووحشيٌّ بين أهله، ألم تعلمي أن المرء هو وليد محيطه والمحيط انما هو مجموع

أخلاق وعادات أهله ؟؟ » والمرء أشبه شيء بزمانه وصفة كل زمان منتسخة من سجايا سلطانـــه » ثم غادرها وانصرف .

★★★

شاء خـالد أن يأتيَ الشام عن طريق (يثرب) لهوىً في نفسه دفع به الى استعراض قبائل البدو ، فلم يفصل من مكة متوجهاً الى المدينة حتى أحسّ في نفسه ضعفاً قد كان يأمن غائلته لولا عنـاء السفر وما ينزله من الشُّقة بالراحل .

على أنه ، وقـد علم من صديق له في مكة أن الشام تتمخّض لتلد ثورةً أخرى ، فضّل ، على ما فيه من ضعف ، تحمُّلَ مشاق السفر في سبيل الجهاد تحت لواء الحرية .

وكبير النفس لا يشعر بما يتأكّل جسمه من علة في سبيل الوصول الى ما أقضّ مضجعه ، ودفع به الى حيث تصهر جسمه حمى السهر في طريق العز .

قطع بين الحرمين ثماني مراحل والحمى تسايره جنباً الى جنب وهو يتجلد في وجه بلائه صابراً محتسباً، حتى اذا دخل (طَيبة) لبث فيها بضعة أيام خففت عنه بعض ما ألمّ به ، ثم استأنف متنقلاً بين القبائل التي تصل الحجاز بالشام فلم تقطع بـه راحلته المرحلة الثانية الا وقد عادت الحمى أدراجها ولم تزل به وهو يغالب الأقدار وتغالبه ، حتى لم يبق بينه وبين العقبة إلا ثلاث مراحل ، وهنالك أعياه الداء ، فلم يجد بُدّاً من العدول الى حيّ نزولٍ هنـــاك ، فلبث فيه أيّاماً كانت كلها كالحلقة المفرغة يتنقّل فيها من سيىء الى أسوأ ، ولما يئس من برئه ورأى أنه يقطع في أيامه هذه آخر مرحلةٍ من مراحل الحياة ، دعا برقٍّ ودواة فلم يطق حمل القلم لما أثقل يديه من المرض ، والتمس كاتباً من رب البيت ، فعمد هذا الى خطيب[1] الحيّ وأحضره ،

(١) الخطيب عند اهل البادية من ألمّ من العلوم الاولية بما يؤهله لان يكون معلّم كتّاب وإماماً في الحي يصلي بهم ايام الجُمع وعلى الجنائز .

فأملى عليه خالد رسالتين جاء في الأولى :

— إلى ولدي وسيم !!!

ما على الدهر يا بنيّ من عتاب ، وما هو بمعتب من نزل به فلم يحسن جواره ، ولجأ اليه فغدر به ، والقوي يا بني إذا عزّ سلطانه وأمن جانب الخسف ، فلن يحط من نزواته في مجال البغي صراخ الضعيف بين عتبه واسترحامه حتى يقابل القوة بالقوة — والحديد لا يفلح إلا بالحديد — على أن الدهر لا يقف في وجهه ، أن يأتي على كل ذي قوةٍ ، قوةٌ . .

والانسان ، على ما فيه من قوة تسخّرُ له جُماع ما في الطبيعة من قوى ، أعجزُ من أن يقوم على كيانه الواهي بيدٍ تدرأ عنه بطش الدهر .

كذلك كان عمك يا بني ذا مِرَّةٍ يذلّل بها كل صعبٍ يعترضه في سبيل حياته ، حتى اذا مدّ له الدهر يد الغيلة لجأ الى الاعتصام بقوته ، فاذا بالصبر قد وهت دِلاصه ، والسيف قد تثلّم حده ، وما كان

كأنه لم يكن .

عزيزي وسيم !!!

قد كنتُ عوّلت في جزائك عن معروف أسديته إليّ ، ومن طوقتني بها ، على مستقبلٍ تُبلّغنيه همةٌ عزّ بها الطّامحون من قبلي ، فإذا بي أمدّ بصري الى حياةٍ لا تنالها يدي ، وأحمل بين جنبيّ نفساً تنازعني الى منصب قد حصّت الأيام دونه جناحي .

ولعلي بما أفضي به اليك ، وأنا بين نورٍ أجزتُه ، وظلمة أستقبلها ، من كلماتٍ ربما كانت خلاصة ما يذخره الأب الحريص على أولاده من نصحٍ وإرشاد — لعلي بالغ بعض ما أرجوه لكَ من المكافأة على سابق خدمتك لي ومنّ أبيك عليّ ، فإذا صادفت لديك أذناً سميعة ، ونزلت منك قلباً واعياً ، فذلك ما عهدته فيك ، وإلا فقد نخلتُ لك الرأي ، ومحضتك النصيحة .

سمعتك تلهج كثيراً بالزعامة ، ورأيتك تطمح اليها يا وسيم ، ولقد سألتني غير مرة عن الزعامة في الحضر ،

وعن النيابة المرادفة لها ، وهل يمكن أن يكون في الحضر زعيم أو نائب حرّ ، وسيف الاستعمار فوق رؤوسهم ؟؟؟

وسألتني أيضاً عن الدين وحَمَلته ، وعما ينقمون به على الفئة المجدّدة في الأُمة ، يزعمون أنهم مَلاحدة قد مرقوا من الدين ، فوعدتك بالجواب عن الأمرين في وقت يتّسع للخوض في كليهما ، وقد عرض لي ما رأيتَ من أسباب مغادرتي إياك قبل وفائي بعهدي ، فعوّلت على جوابك كتابةً لدى ورودي دمشق ، ولما عراني ما يئست معه من رؤية الفيحاء ، علمتُ أنها الساعة الأخيرة التي أُوَدع بها آمالي في الحياة ، رأيت الوفاء بوعدك أولَ واجب أُقضي به الى من عهدتُ اليه بتنفيذ وصيتي ، فرسالتي اليك الآن مقصورة على جوابك عن هذين السؤالين . ولعلَّ فيهما مـــا يحقق ظنك بي ويدفعك الى زيارة قبري لدى اطلاعك على آخر كلمةٍ أختمُ بها رسالتي فإن لي بذلك مأرباً ربما

بدا لك سرُّه وأنت تعمل بها .

فاسمع يا وسيم !!!

حَملة الدين عندنا قسمان : جامدٌ — ومجدد .

فالجامد هو ذو المنزلة العلمية التي استحق بها الاحترام من شعبه بعضه أو جُله ، ثم لم يطلق لأفكاره التصرف في العلم الذي وعاه في صدره ، ولم ينظر الى الحياة التي هي علةٌ للعلم وللدين معاً ، فيصل الى ضرورة اتصالها بها . والمجدد هو نقيضه في ذلك فقد ثبت عقلاً ونقلاً أن الدين إنما هو قانون حيويٌّ اجتماعي يدور مدار حياة المجموع البشري ويتطوَّر بتطورها ، ولذلك يرسل الله في الفترة بعد الفترة رسلاً يجددون ذلك القانون ويحوّرونه بمقتضى الحياة التي عاصرها .

ولولا ذلك لما كان النسخ من لوازم الدين ، على أن ذلك التجـــدد لا يكون إلا في الفروع لأن الأُصول ثابتة الأُسس مطابقةُ للحيـاة في كل عصر ، وأما الفروع فقابلة للتغيير فالأَصل كلي والفرع جزئي ،

والتغيير إنما يعرض الجزئيات المندرجة تحت كلياتها الثابتة .

فمن السفه يا بني أن يتعمم المرء ويكتحل في بلاد ليس ذلك من عوائد أهلهـــا ، فيكون كالتيس الأبلق في القطيع الأسود يستلفت الأنظار ويكون سُخرةً بين العامة .

وأسفـهُ من ذلك من يلبس لباس الملائكة وهو بين القرود ، أو يلزم وَقاره وهو يعاشر ذوي الخلاعة ، أو يطلق للحيته العنان في بلدٍ يُوجب ذلك سخريّةَ أهله منه ويُغري به الصبية فيهرعون اليه كأنه إحدى عجائب الدنيــا .

وأسفهُ من هذا وذاك ، من يجلس الى المائدة ، فيشمر عن ساعديه ويتناول الطعام بيديه سائلاً كان أو جامداً ، يُدخل أصابعه في فمه ثم يلحس ما تسرّب الى أشاجعه من سائل المرق ، بينما تحفّ بالخُوان عصبةٌ ترى ذلك من غرائب البـــدع التي لا يأتيها إلا

الهمج الذين لا يزالون في دور التوحش .

إن تلك الصفات يا بني هي من أحكام الشرع الداخلة تحت القسم المندوب ، وربما قال بعضهم بوجوب بعضها ، على أن الشرع يحجر علينا فعلَ ما ينافي المروءة ، والمروءة إن هي إلا اتباع محاسن العادات واجتناب مساوئها .

فليس الدين زياً يتجمّل به المرء ، ولا هو ثوبٌ مناط جودته ورداءته يدُ الحائك أو نظر الخياط ، وإنما الدين قانون إلهي يوحي به الرسول الأول الذي هو العقل الى رئيس الأعضاء وهو القلب فيبلغها إيّاه على لسان الإرادة ، فلا يسوغ لعضو أن يقوم بوظيفته التي عُهد بها اليه ، ما لم يكن القلب موقعاً على الأمر بها ليستقيم نظام الحياة في الفرد الذي هو أساس لنظام الحياة في المجموع .

فإذا حال هوى النفس بين القلب وبين الإرادة فصرّفها بمشيئته ، عُطِّلت إذ ذاك دوائر الحكم ، واختلّ

نظام الحياة الفردية فكان اختلاله سبباً لاختلال نظام الحياة النوعية .

الدين أكبر من أن نتصوره في العرض دون الجوهر يا بني ، وإنما هو جوهر في ذاته ، ثم يفيض خيره فيكون عرضيًا ، فجوهرياته لا يطرأ عليها التغيير وإنما يتطوّر في عرضياته .

الدين كال في النفس يعصمها مما يعود عليها بالنقص في جوهرها .

الدين هو الأخلاق ، والأخلاق هي الحيـــاة ، والحياة مناط كون المرء ملَكاً أو شيطاناً .

ان الحياة التي ينشدها المرء يا بني لا يصل اليها إلا عن طريق الإيمان ، ولن يكون المرء مؤمناً حتى يكون مسلماً ، والمسلم من سلم الناس من يده ولسانه ، فالدين إذن هو الإسلام ، والاسلام هو سلامة الإنسان من الإنسان لا يختص به المحمديّ دون المسيحيّ ولا هما دون الموسويّ .

الدين ليس إلا الحياة التي ننشدها ، ولن نصلها إلا على سَنَن التعاون ، فعلى المرء أن يعمل لحياة أخيه الإنسان كما يعمل لحياتـــه فيكونا حيّين وإلا هلكا معاً .

هذا هو الدين الذي أوحى به الله عزَّ وجل الينا رفقاً بنا لا حاجة به الى اعتناقنا إياه ، وقد جعله طريقاً يُفضي بمن سار عليه الى الحياة التي بشَّرنا بها ووكَل الينا أمرها .

فاذا رأينا في الدين بعد إدراكنا ذلك ما هو حجر عثرة في سبيل تقدُّمنا ضربنا به عرض الجدار وقلنا ليس هذا من الدين في شيء ، وإنما دسّه فيه أعداء الدين ، فتعالى الله عن أن يسنَّ في شرعه ما يقف في سبيل حياتنا ونحن عباده .

فاذا وقفتَ على كل ذلك يا وسيم ، علمتَ أن من لم تجد أعماله ناهضةً بشعبه الى مستوى أوج الكمال من حَمَلة الدين كان جامداً وجموده بين أن يكون جاهلاً

تطبيق المدنية على الدين وهو جهل في الحياة ، أو عالماً به ولكنه لم يعمل بمقتضى هذا العلم لتهاون منه ، أو هوى في نفسه ، أو اختلال في عقيدته ، وهو أعثر على الأمة من الأول .

وليس ما أدى بنا الى حالتنا التي أصبحنا فيها أذلّ من قوم سبا نتغنى باسم مجدنا الضائع وليس بين أيدينا من عزه ما يعصمنا من كَلَب الاستعمار الذي قادنا كالبهائم نعطي الجزية عن يدٍ ونحن في صغار ، ليس ذلك ناشئاً إلا عن فقدنا القوة التي امرنا الله باعدادها لتحول بيننا وبين من يحاول هضمنا ، ولم نفقد تلك القوة إلا بالزهد في الدنيا (١) المؤدي الى الفقر الحاجز بيننا وبين المال الذي هو أكبر عامل في نشر العلم الذي هو عين الحياة في الأمة .

***

---

(١) كما يفسره بعض الجامدين من انه الرغبة عن نعيم الدنيا

ورجال الزعامة[1] عندنا يا بني ، هم عبّاد النفوذ والأهواء ومدارُ رحى الزعامة اليوم على ثلاثة أقطاب :

الغنى = الظلم = الكرم الزائف

يمدون الأخير شركاً يصيدون به ضعفاء النفوس من الشعب ويتخذونهم جسراً يعبرون عليه الى المناصب التي تخوّلهم رقاب الشعب فيلجأون إذ ذاك الى القطب الثاني ليحرزوا الأول ...

يَكِلُ الزعيم عندنا يا بني أمر الضعيف البسيط من شعبه الى القوي الجِريز من جلاوزته ، ويبسط يديه بالقروض للفلاح المسكين أيام الشتاء فيتقاضاها مضاعفة في الصيف ، ويمدُّ سُمُطه في الأعيـــاد لأولئك البُله الضعفاء ، فلم يقطع سنين قلائل ناهجاً هذا المنهج حتى ترى قصره في فردوس من النّعيم تمرح الحور والولدان منه في جنّاتٍ وعيون .

---

(١) يبحث خالد عن الزعامة في عامة الشعب وأمـــا الخاصة وخصوصاً في الحواضر فكلهم زعيم ولكن بماذا ؟؟

فالمال الذي يتقاضاه من صندوق الحكومة ، والذي يجمعه من زكاة القروض ، والذي يأتيه هدية أو رشوة ، كل ذلك لم يصل اليه من طريق شريف فضلاً عن كونه غير حلال ولا سائغ ، فالزعيم وسخله مهما نزل إنما يمرحون في رخاء لم يلجوا إليه باباً مشروعاً فهم يأكلون حراماً ، ويلبسون حراماً ، ويسكنون حراماً ، ولا ينكحون ألا حراماً ..

فالنائب منهم يا بني وهكذا الشيخ والوزير والحاكم في ذلك سواء !! وكل منصب في الشعب لا يتقمصه من رجاله إلا أحد هؤلاء أو ذَنَبٌ من أذنابهم وأنت تعلم كما أفهمتك من أن النائب هو الزعيم الذي ينال الثقة التامة من الشعب فينتخبونه قائماً على أمرهم ونائباً عنهم يمثّلهم في مجلس الحكم ، فهو الناطق بلسان قومه في ذلك المجلس ، والساهر على مصالح شعبه الذي اختاره واصطفاه ، والمدافع عن حقوقه إذا حاول هضمها من قويت شوكته واشتدّ ساعده ، فقد ضمّ

بين برديه ألوفاً من أبناء وطنه ، ينطق بألسنتهم ويعبر عن أفكارهم .

فالنائب إذن هو عنوان شعبه يمثّله للشعوب غافلاً أو متيقظاً راقياً أو منحطاً ، حياً أو ميتاً .

وأعيان الأُمة كنوابها ، في كونهم مدار النهضة في البلاد والدعائم التي يقوم عليها بيت الأُمة ، ويجب أن يكونوا فضلاً عما مرّ من كونهم مخلصين لشعبهم ، عارفين بحقوقه ، ساهرين على مصالحه ، يجب أن يكونوا محنّكين قد مارسوا الدهر ، وخبروا الكون وسبروا أغوار الحكم ، وخاضوا معترك الحياة ، فذاقوا حلوها ومرها ، وعرفوا صفوها من كدرها ، ومازوا من ضرها :

(شيوخ الشعوب عناوينها فحرّر لشعبك عنوانه)

(ولن يخطىء الشعب نهج الحياة إذا حنَّك الدهر أعيانه)

فإذا كان النائب والشيخ من ذكرت لك ، فأيّة صفةٍ من هذه الصفاة تلبّس بها شيخنا ونائبنا ؟؟ ومن

أيّةِ مدرسة تخرجا ؟؟ وأيّ علمٍ أحرزوه ؟؟ وحادث خبروه ؟؟ وأثرٍ أوجدوه ؟؟ وأيّة حياةٍ مارسوها ؟؟ وسياسةٍ درسوها ؟؟؟ وأيّ معتركٍ خاضوا غماره ؟ ودهرٍ سبروا غوره ؟ فعرفوا حلوه من مره ، وصفوه من كدره ، وهم على ما علمت مما ذكرته لك آنفاً :

أرى الشيخَ مَن خَبرَ الكائنات
ونجّذه سبر أغوارها
فما بالُ أشياخنا لم تمّز
نقار السياسة من قارها ؟[1]

نعم درسوا في مدارس الفحش والدعارة ، وتخرّجوا على أيدي الخصيان ، ومارسوا حياة الكلاب ، وأتقنوا فنّ الصيد ، وأحكموا صنع الغل والقيد ، ليتحكموا في رقاب العباد ، فيتخذوها مجازاً لشهواتهم ، ومطيةً تقطع بهم مجاهل الذل الى موارد الحياة الآثمة ؛ (وشعبٍ تمثّله للشعوب في مجلس الحكم أذنابه)

(١) النقار مذاب الفضة والقار الزفت .

(أيدفع عنه شرور العداء   وما عرف الخير نوّابه ؟)

★★★

(يروم التحرر شعب قضى   عليه تنافس أعيانـه)
(أينصفه الظّالم المستبـدّ   وأعيانه بعض أعوانه ؟)

★★★

(أيرحم شعبك في مجلس   تمثله فيه جهـــاله ؟)
(قضى إذ قضت لجنة الانتخا   ب أن تلي الحكم أنذاله)

★★★

(صعاليكنا قلدتها الظروف   مناصب لم تحترم صابها)
(فإن أنتَ جئتَ النوادي حسبتَ   رؤوس المجالس أذنابها)

★★★

(قضى شعبنا نحبه إذ قضت   عليه جلاوزة المحكمـه)
(فعند المفوّض ضحّوا به   وفي البرلمان أراقوا دمه)

أوردتُ عليك شيئاً من النقد السياسي ، لما عهدته فيك من الميل الطبيعي إلى هذا النوع من الشعر يا وسيم ، فالنائب يا بني أو الشيخ كلاهما يجب أن ينبّـه شعبه

لوضع ثقته فيمن هو أهل لأن يكون نائباً أو شيخاً .

لا أن يحتكرا ذلك المنصب ، فيجعلا بينه وبين المؤهّلين له حاجزاً من مطامعهما وأهوائهما .

النّائب يا بنيّ هـــو الذي يسهر على شعبه الذي اختاره قائماً على أمره .

النائب هو الأمين على مال الشعب ودمه ، فليتّقِ الله في ذلك المال الذي يقتطعه الفلاّح والعامل من قواهما ، ثم يؤدّيانه إلى الخزينة ابتغاء تهذيب النشء وإصلاح البلاد

ليراعِ الله ذلك النائب في هذا المال أن لا يذهب ضحيةَ الطمع والتنافس على المناصب .

فاحذر هذه الخلال يا بني إذا أُوتيت هذا المنصب في الحياة ، منصب الزعامة الثقيل العبء على كاهل الحر .

فالزعيم هو الذي يتفقد شعبه حيناً بعد حين ، ليقف على الثلمة التي وُكل اليـه سدّها ، وعلى الخلل الذي عُهد إليه بإصلاحه .

الشعب بمجموعه كالجسم والزعيم منه بمنزلة الرأس

ففي الرأس دماغ الشعب المفكر ، وعينه البصيرة ، ولسانه الناطق ، فما لم يكن الزعيم ناضج العقل ، حديد البصر ، ذرب المقول فلا يصلح أن يكون راعياً لبقية أعضاء الجسم يحفظ اليد أن تشلّ والقدم أن تزلّ .

الشعب يا بنيّ كشجر النخيل ، والزعيم منه بمنزلة الآبر (١) يسقيه ويشذّبه ويلقّحه ، فاذا أحسن خدمته وجدّ في تربيته لا يلبث أن يصعد عليه إلى قبة الفلك أيان يبسر (٢) أو يُبلح أو يُرطب او يُثمر ، وإذا غفل عنه جفّ عرقه وذوت عثا كيله وعقم طلعه ، فكان طعمة للنار ، أو مسفىً للهواجر .

الشعب يا بني كالحقل المؤهل للزرع والنّائب منه بمنزلة الزارع يبذر فيه صالح الأعمـــال فينتجها قوة يشتدّ بها ساعده ، ويقوى عضده ، وإذا ألقى ذلك البذر فيها على علاته كان الفاسد منه بمنزلة الحبة الدخيلة ،

---

(١) الآبر من يقوم على خدمة النخل .
(٢) أبسر النخل عقد ثمره .

إن غارت زاحت العروق فحالت دون غذائها ، وإن نهدت بثت فروعها فأحرقت ما حولها .

الشعب يا بني كالجند وزعيمه بمنزلة القائد فإذا كان مدرهاً في قومه حكيماً محنكاً بصيراً بمواقف القتال ساهراً على جنوده الحافين به كان خليقاً بأن يصدق عليه قول الشاعر :

طال السها بكَ جند أنت قائده

إن تسرِ فيه يرفرف فوقك الظفر

وإن تعبَّده هواه فراح يقطع أيامه في مسارح اللهو وعلى أرائك الزهو ، غير ملتفتٍ إلى جنده المحدق به ، والذي هو قائم عليه ، كان جديراً أن يتمثل بقول الآخر :

أعطيت مُلكاً فلم أحسن سياسته

وكل من لا يسوس الملك يخلعه [1]

الشعب كالإبل السائمة يا بنيَّ ، والنائب منه بمنزلة

(١) الشعر لابن زريق .

الراعي لها فهو ماسهر على رعيته هذه ، يبلغ بها المنهل السائغ والمرتع الخصيب فيدرك من ألبانها وأوبارها وأشعارها ما يدفع عنها وعنه بؤسي الحياة ، وإن أهملها صدق عليه قول الشاعر :

ومن رعى الضأن في آجام مأسدةٍ
ونام عنها تولى رعيها الأسد (١)

الزعيم كالطائر يا بني والشعب بمنزلة الجناح له ، فما حافظ على ذلك الجناح حلق كلاهما في آفاق العز ، وإن لم يحافظ عليه فلا يأمن غوائل الدهر أن تهيضه فيسقط كلاهما إلى حضيض من الهوان فكلما همّ بالنجاء لا يستطيع النهوض .

والشيخ في ذلك بمنزلة النائب أو فوقه ، إذ هو مستشاره والرقيب عليه .

حسبك يا بني ما أدليت اليك من وصاة لا تُحجم بك عن ولوج الباب الذي يُفضي بك إلى حياتك

(١) لا أعلم قائله .

الحرّة في مستقبلك الوضّاء ، ولست آسف على شيء في الحياة أسفي على أن لا أراك كما أحب أن أراك ، فلا تنسَ ما ندبتك اليـــه من زيارة قبري ، فلعلّ روحي إذ ذاك ترفّ عليك وإلى جانبك شريك لك في هذا الحنو الذي لم يزل يهتف بي إليك منـــذ عرفتك حتى الساعة التي أبرح بها الأرض وأستقبل السماء .

وجاء في الرسالة الثانية ...

عزيزتي امل !!!

أنعمي النظر في رسالة أبيك الأخيرة ، تتبيّني شبحه من خلال كَلِمها مسجّى على فراشٍ يهبط منه إلى قرار الجحيم ، أو يعرج إلى سدرة المنتهى ، وأمّا الرجعة إلى حيث يراكِ مطوّقةً بساعديه ، يطالع منك أمله المحفوف بالسعادة ، فذلك ما ليس في طوق حرضٍ تركته يد الآلام على فراش الموت خيالاً لا تحسّبن منه إلا النفس .

تلك شيمة الدهر يا بنيّة ، فلا يكن عجباً لديك أن ترَيْ أسرةً رفَّ عليها السعد في حظيرة القدس ، محفوفةً بالعناية الإلهيةِ ، حتى إذا اشتبكت فروعها ، وأوشك الربيع أن يعقد زهرها ثمراً تتبلّغه الحياة الوادعة ، قلب لها الدهر ظهر المِجنّ ، فشتّت شملها وفرّقها أيديَ سبا .

فلا توجهي إلى أبيك يا بنية سهاماً وجهت إليه أمك من قبلُ ، فاني معترفٌ أنكم كنتم كعقد اللؤلؤ وكنتُ أنا الواسطة فيه ، حتى إذا غادرتكم عبثت به يد الأيام ، فلم تبق على فريدة منه ، ولكني واثقٌ من أنك شاعرة بالحياة شعور أبيكِ القائل :

دعتْ الليـالي يجتني العزُّ زهرها
ويجتزل من آفاقها النزل الأسمى
وسالمتُ أيّامي فلمّا رأيتهـــا
ألدّ خصوم الحر كنتُ لها خصما

ذلك هو عذر أبيك عما جنت يداه من صدع شملكم وتفريق جمعكم ، فإن النفس الكبيرة يا بنيّة تحملُ صاحبها من آلام الحياة في طريقه إلى العز ما يشفع له في معرِض الآثام .

أي بنية !!!

لا أراكِ إلا بقيـــة الصالح من ذلك السلف ، والروحُ التي خبا نورها من أفراد أسرتك ، قد تزاحم

فراشها على ضوء سراجك ، فاحذري أن تكوني من قبيلك مكان الكلف من صفحة البدر ، فإني أعهد فيك ، ولما تتفتق عنك أكمام الصبا ، بُعدَ النفس عما يصم العرض ، وقربها من كل ما يشير إلى الطهر والعفاف ولقد كان لي يا بنية أمنيةٌ واحدة في الحياة أطوقك فيها بساعد الأمل ، وأحنو عليك حنوّ الأب البارّ فأفرغ على جمانك الطيب وصايا لستُ بالغاً بها رجاء ما أؤمّل ، وهي مداد على ورق ، حتى تتبلغيها جملاً من فم أبيك الحدب عليكم ، يعطيك من خشوع عينيه ، ورنّة صوته ، أضعافَ ما تعطيك ألفاظها من معانٍ هنّ عُدة كل حيّ يستقبل أيامه بنفسٍ حرةٍ وصدرٍ نقيّ .

تلك هي أمنيّتي الأخيرة في الحياة ، ولكنّ الدهر كما تعلمين يا بنية لا يقف في وجهه ، وهو يناوىء الأحرار ، خوفٌ ولا استعطاف .

ولما رأيتني سريع الخطو إلى مضجعٍ أتناول فيه صحيفة أعمالي في الحياة ، رأيت من واجبي تجاهك أن

أدليَ اليك بما لو فتشتُ غداً صحائفي السوداءلوجدتُ منه على حواشيها بياضَ وشيٍ هو كل ما أعوّل عليه في نشأتي الثانية :

فاعتبري يا بنية !!! وكلّ أيامك عبر ، فلا أبلغَ مما ترامى اليك من أمر أبيك وأمك ، عظةً تكون لك درساً في الحياة ، والحياة مدرسةٌ يتخرّج منها المرء في علمٍ ينير له ظلمةَ ما وراءها ، فمن مات ولم يدرس علم الحياة ،كان في بطن الأرض أشدّ عمىً منه على ظهرها

فاتعظي يا بنية !!! بكل عمل تأتينه صبيةً أو فتاة ، ولا تحسبي أن من الأعمال ما هو عبثٌ حتى أعمال الطفولة ، وما أجملَ أن أورد عليكِ قطعـةً صغيرةً من كتاب « ذكرى الطفولة » لأحـد البؤساء المشردين يحنُّ إلى بلاده ، فقال :

« ذكرتُ فيك يا وطني المحبوب ، جلوسي وإخوتي وأولاد أخي حول المجمر (الكانون) أيامَ الشتاء ، وبيد كلٍّ منّا ملقط ، وجيب كلٍ منا مملوء بالبلّوط أو

الكستنا نرمي به في الجمر المضطرم ، حتى إذا نضج أهوى كلٌّ إلى سهمه يلتقطه لا يتعدى احدنا على الآخر ، وإذا احترق سهم واحدٍ منّا ، أو ظهر فساده ، ساهمناه في حصصنا ، فكان شريكاً لنا بعد طرح سهمه .

فحبّذا أنت يا عهدَ الطفولة ، عهـــدَ المساواةِ والعدالة ، عهدَ الإنصاف والرحمـــة ، عهدَ العطف والشفقة ، ولا كنتَ يا عهدَ الشباب ، عهدَ الغواية ، عهدَ الفساد ، عهدَ الظلم ، عهدَ الاستئثار .

وكثيراً ما كنّا نستعيض عن ذلك بحب الحمص والذرة الصفراء ، نشتويها ، فإذا لذعتها النار تفرقعت وانتفشت كالإسفنج أفلت بعد الضغط عليه ، فبهرتِ الناظر ببياض قلبها الناصع ، فأنها تعلمنا ــ ونحن غَرار نجهل ما يستقبلنا في الحياة ــ أن نتكشّف إذا ابتُلينا عن صدورٍ نقيةٍ تضمُّ بين أجنحتها قلوباً كقِطع الثلج .

وليست تلك الحبّات إلا رسلاً بُعثتْ لإصلاحنا ، فافتدتنا بأنفسها إذ أُوحيَ اليهـــا أن قلوبنا البيضاء

ستحولُ في دور نضجنا قِطَـــعاً من الفحم لو شقت الصدور عنها وعصرت لاستحالت ظلماً تظلم منـــه النفوس ، أو ظلمة تُغشّي البصائر » .

إن أطيب حياةٍ أرجوها لكِ يا امل حياة يحسدك عليها ، وأنتِ في الكوخ ، رب القصر ويغبطك فيها ، وأنتِ على الأرض ، نجم السماء ، وحياتـك هذه إنما يُدنيك منها عَفاف يعصمك من الرجس ، وعـــلم ينير في وجهك سبل الحياة .

أي بنية !!!

ما أشبهَ عهدنا بالعهد العباسي ، ومـا أشبه الشام اليوم ، ونحن عبيد ، ببغـداد أمس ونحن أحرار ، وما أشبه فتيات المغرب وفتيانه في عهدنا ، بالقيان والموالي في عهد آبائنـا ، يتبارى هؤلاء فينا كما كان أولئك يتبارون في حلبة الفساد ليخرجونا عن قوميتنا ، ويبتزونا أخلاقاً هي كل البقية من رمقنا في الحياة .

فلا تعجبي يا بنية أن رأيت فتياتنا يقتدين بعواهر

الغرب تبرّجاً وخلاعة ، فقد رأين من تهتّك هؤلاء ما أشفقن منه على هذا النشء الغرّ أن يفسد فيحول بينهن وبين ما ينشدن من حياة .

وهكذا شأن الحرائر في العهد العباسي مع الموالي ، فقد بلين بتلك الفئة الدخيلة كما بليتن أنتنّ بها اليوم ، ولا أظنك تجهلين ما وصل اليه قيان الترك والروم والفرس إذ ذاك من خلب ألباب الرجال واستغوائهم ، بما يأتينه من فحش ، إلى حدٍ لا يستنكف الملك معه أن يقبّل رجل جاريته ، بينما تتقلى الحرائر في مقاصيره على نيران الحنق مبذولة الجمال بين خصيانه ومواليه .

وما أجرأني يا بنية على القول في أن ما جرّ على امتنا عهدئذٍ من فسادٍ دخيل ، إنما هو وليد عصبية الأمويين للعرب دون الإسلام ، ذلك مـــا ثارت له كوامن الترك والفرس ، ولم تقف ثورتهم عند انتزاع الملك من بني أمية حتى تعدته إلى ما شوّهوا به وجه الدين مما أفسد علينا أمرنا وسلب منا حريتنا .

على أن ما يأتيه الدخيل فينا اليوم بسبين زيّ وخلق فاسدين إنما يرمي به إلى إخراجنا عن قوميتنا ، وإفساد أمرنا علينا ، وسلب قوّتنا منّا ، لنكون كالمتشبه لا هو إلى عنصره ، ولا إلى عنصر من يتشبه به .

بنية أمل !!!

لا أخاف على شيء في الحياة ، خوفي على ضياعك في بلد أوشك ، بما بثّ فيه الدخيل من سموم ، أن يضيع مجد العرب فيه بين جامد وجاحد .

ولا تنسيْ يا بنية !! أن لرجال الكهنوت القسطَ الأوفر من إثم هذا البلد الطيب ، وعليهم الوزر الأول في دَماره ، بين ظلم يربو وعدلٍ يضمحلّ .

تعلّمي يا امل !!!

أن الدين ضروريٌّ للبشر ضرورة انه قانون حيويّ ولم يشرع للخاصة من الامة وإنما شرع للعامة وخضوع الخاصة لأحكامه والالتزام بها إنما يجب لاقتداء

العامة بهم ، فالحكيم المصلح في الأمة يُدرك ما لقبيح الأعمال وحسنها من أثرٍ سيىء وحسنٍ في المجتمع ، فيتحامى الأول لأثره ويفعل الثاني لذلك ، سواء تديّن أم لم يتدين ؟ فعمله هذا هو الدين بعينه .

وأمّا العاميّ فليس لديه من سموّ المدارك ما يصل به إلى ذلك ، فهو إذا آنس ما ينفعه من عملٍ يضرّ بالمجموع ، ثم أمن الطريق إليه ، فلن يحول دون اقترافه وازع العقل ، ما لم يعتقد أن هنالك رقيباً يسجّل أعماله من حيث لا يراه ، وأن له يوماً يناقش فيه الحساب بين يديْ علاّم الغيوب .

والجاهل إذا لم يَرَ في العالم ، وهو قدوته ، ما يتّعظ به من عمل ، فلن يثبت في نفسه هذا الاعتقاد ، ضرورةَ إذعان الضعيف للقوي وتقليده إياه ، من أجل ذلك يا بنية ، أرى أنّ واجب العالم تجاه الدين فوق واجب الجاهل ، وإلى هذه الفكرة ناظر قول من قال — إذا فسد العالِم فسد العالَم — فجمود العلماء من جهة

واتباعهم هوى النفس من جهة أخرى ، هو الذي نزع الثقة من نفوس العامة بهم ، ولولا ذلك لَبقيَ للامام السلطة العليا في تصريف الشعب والسير به تحت لواء التضامن الباعث رجال الأمة على الوقوف في وجه أيّةِ قوةٍ تحول بينهم وبين الحياة :

(إذا ما أمت[1] فكن واعظاً ونفسكَ أولَ ما تزجرِ)
(وعظ بفعلك ، لا البردتان يغضّان منك ، ولا المنبرِ)

أي بنية !!

ميزان عملك العقل ، والعقل هو خلاصة درسك في الحياة ، فليكن أول همك منها اختيار الزوج الصالح ، فان النظر في الزّواج قبل الوقوع فيه ، كزيت السراج يختلف ضوءه شدّةً وضعفاً باختلاف مادته صفاء وكدراً ، والزوج هو ثوبكِ الذي يستر ما فيك من عورة ، فاحذري أن لا يقي جسمكِ أمراض الحياة : على أن الثوب يا بنية سريع البلى ، وأما ثوب

(١) أمّ كان إمام

الزوابع فلا يطلق حتى يُبلي ما توارى خلفه من جمال .

فلا تزهديني بجمالك يا امل ! فإن الجمال هو كل ما في الكون من سرّ يجهله كل من في الكون إلا الشاعر حيث يقول :

(بنفسيَ استتري بالحياء فما عيبٌ مَن بالحياء استتر)
(أرى العار ، مهما تحاميته ، يدانيكِ ما لم يصنك الخفر)

***

(توخّيْ قرينكِ حيّ الشعو ر حيّ الحفيظة، حيّ الأثر)
(توخّيه حراً عفيف الضمير عفيف اللسان، عفيف النظر)

فقد أدرك أن جمال الكون بجمال الحياة فيه ، وجمال الحياة بجمال الحي فيها ، وجمال الحي بشعوره في الحياة ، فراح يحلل أسباب هذه الحياة ويشير اليها بين الزوجين وداعةً وسلاماً .

فما أجمل الحياةَ في عينك يا بنية ، وأنت هادئة مطمئنة في بيتك مع شريكك فيها !!

وما أقبحها في عينك ، وأنت قعيدة بيتك بين

ظلم وإرهاق ، قد حال بينك وبين جمال الحياة نيرٌ قُرِنتِ به إلى من ليس من شكلك خَلقاً ولا خُلُقا .

قد كنتُ أعهد في العزيز عليَّ رفيقك وابن عمك ناظم ، دقةَ فكرٍ ، وحدةَ ذكاء يؤهلانه لما في الحياة من سعادة إن لم يغلب عليه نزقٌ وطيشٌ أعرفهما فيه ، فما أحراه بك وأحوجك إليه يا امل إن كان عند ظني به ، من أنه سيكون حيَّ القلب ، نقيَّ الجيب ، وإلا فاجتهدي أن تكوني آخرُ ذريعة تتأثرين بها إصلاحه هو بسط كتابي هذا بين يديه ، فإما ارعوى فهو منا يا بنية ، وإلا فليس لك أن تقوّمي ما أعيا على الأيام تثقيفه ، فدعيه وشأنه ، فإن أمامه الدهر ، والدهر نعم المؤدب .

اي بنية !

نوّري قلبك بالعــــلم ، ولا تبقي من أمرك على ضلال فيه ! فإن العلم قوام العقل والعقل قوام الحياة .

وأعملي حواسك في إنتاج هذا العلم فانها كالاسلاك

له تتجاذب إيجاباً وسلباً فتنتج النور .

ولِحاستي السمع والبصر جُلُّ ما يتقوم به العلم من نظريات في الحياة ، فما قرع سمعك وأشعَّ بصرك من بدائع الكون فأنزليه من قلبك منزلة الدرهم الزائف من بَودقة الصائغ ، ثم أشربي نفسك جوهره ، والفظي منه ما كان خَبَثاً .

عزيزتي امل !!

من خلال هذه الاشباح والصور التي تتراءى أمامي وأنا بين مخالب الموت ، أرى شخصك يلوح لي ماثلاً بين البؤس والشقاء ، وما في ذلك من عجب يا بنية ، فإن صبيةً مثلك قد توالى عليها من المصائب ما ينوء بحمله القارح ، لجديرة بأن تكون عرضة للشقاء .

على أن صروفَ الدهر أبلغ درس يُفضي بالبؤساء إلى اكتناه الحياة والوقوف على ما تُكنُّه فيتحامى أسباب الشقاء ويتمسك بأسباب السعادة آخر الامر .

فاعتصمي بالصبر في الشدة والزمي التفكير والصمت

والعزلة ، فانها تقرّبك من جوهر الحياة ولا أقربَ إلى اكتناه هذا الجوهر والنفوذ منه إلى سر الكون الغامض ، من الشقي البائس الصامت المفكر .

لا أراني يا بنية ، وقد أثقل المرض جفنيّ وغشّى على بصيرتي ، وملّ الكاتب بين يديّ مما ألجلج به لساني ، وأستبينه جليّ ما يُثبت من تخيل رأيي ، لا أراني مع ذلك بالغاً ما أريده من الوصول بك الى جوهر الحياة ، وإفضائي بما أكنّه لك من خير عليه يتوقف مصيرك ، وإليه تمسُّك الحاجة في دنياك ، ولكني أكِلُك الى ما هو جدير بتخريج الطالب منجّذاً قد حنّكته التجارب وصقلت عقله الايام ، ألا وهو الدهر يا بنية ..

على أني لا أريد أن أُجمل لك القول في إحالتك عليه ووكولك اليه ، فقد قدّمتُ لك أن مدرسةَ الكون إنما يدخلها المرء عن طريق العقل ، والعقل هو خلاصة إعمال الفكر فيا ينتجه الحس ، فليس الدهر

بمثقّفٍ للبهائم يا بنية ، وانما يتقبّل من بنيه من أهّله لأن يقومَ على تأديبه صلاحُ التربية وثقافة المدرسة الاولى واراكِ خريّجة البيت الذي تخرج على يدي بانيه أبوك وأمك ، وهما مَن تتبيّنين صلاحهما على جبينك عفافاً يلمع نوره ، وبين نهديك قلباً يخفق للحق أنّى عرض .

فأنزلي كلماتي هذه من قلبك يا بنيـة منزلة حبك من قلب هذا الغريب الراحل ، ولا تنسَيْ زيارة قبر أبيك والمبيت عنده سبع ليـالٍ يا امل ، فإن روحه لا تزال قلقة ترفّ على القبر حتى تراك أوّل الرائحين إليه فتستقر » .

ثم التفت إلى صاحب المنزل وشكره على اعتنائه بما طلب ورجاه بتسيير الرسالتين إلى وسيم وامل في وقت واحـد ، وأن يجتهد في الجمع بينهما لدى قبره ما استطاع ، وأوصاه أن يدفنه في سفح رابية مشرفة على الحي ، وأن يغرس إلى جانبي القبر شجرتين من

الخلاف لنشأته في ظلاله بين النيريين ، وأوصى أن يكتب على قبره هذه الأبيات :

أفي الكون إبقاء على ما يكنه
وللشمس فيــه مشرق ومغيــب
فلا يأمن الدنيـا بصير بغدرها
فسيَّان غرٌّ عندهــا ولبيب
ألم ترهـا تزجي مصائب ينطوي
بهــا مخطىء في سعيه ومصيب
فكم غافـل أعيا على الدهر كسره
ومستيقظ أرداه وهـــو أريب
أرى النفس أدهى ما يسوؤك عادياً
عليك فجاهدها وأنت صليب
وكيف يصد النفس عن هجاتها
إذا لم يكن منها عليك رقيب
تزوّد فإن المرء خرقٌ تناوحت
بــه للرزايا شمأل وجنــوب

ولا تزهدنْ بالماء أنك واردٌ
سواه وأن الحيّ منك قريب
فكم طامع بالماء أخطأ وِرده
فذاق جِمام الموت وهو يلوب

ثم شخص ببصره إلى السماء ، فإذا هو يناجي عفو ربه .

***

مرّ على امل اشهر وهي قعيدة مكتبها في بيت ابيها ، كلما استوحشت من كتاب فزعت إلى غيره حتى ملت الكتب ومطالعتها ، واستولى عليها الضجر وسئمت لما ساورها من هم ، حتى الثوب الذي يشتمل عليها ، فطرحت الكتب من يدها ، ثم خرجت إلى الحديقة المطلة على ضفاف بردى ، يشرف عليها جبل قاسيون تسنده من الشرق ثنايا العقاب ، وينافسه من الغرب في نطاح الكواكب حرمون ، فرفّه عن امل خروجها ، وانبساط الطبيعة امامها ، ووقفت تجاه ذلك

المنظر بضع دقائق تدير فيما حولها عينيْ مهاةٍ مذعورة ثم جلست إلى شجرة خلاف تحمل رأسها بين يديها وتجيل فكرها في صحيفة حياتها فلم يسبق ذكرى ناظم شيءٌ منها ، ومن أعماق قلبها صعَدت لذكراه زفرة كادت تحترق بها ، لا لأنها تحبه فحسب ، بل لأنها مخلوقة له فيما تقضي به التقاليد والعادات فينا فليس لفتاةٍ تمت بها الى المجد بيتٌ عريق فيه ، أن تخطب ودّ احدٍ من الناس ، وفي أسرتها من هو كفوءٌ لها ، ولا لأحدٍ أن يمد إليها بصره ، وهو يعلم أن في عشيرتها من هو أهلٌ لأن يقوم عليها ، من أجل ذلك كان ناظم حجر عثرةٍ في سبيل حريتها ، على أنها غير خليّةٍ من حبه ، ولا صارفة قلبها عن هواه ما أمّلت ارعواءه ورجوعه عن غيه .

تركت مجلسها ثم أرسلت وصيفتها في أثر ناظم تسأل عنه ، وقد مرّ على هجره المنزل بضعة أسابيع على أثر جدالٍ بينهما انتهى بنقمتها عليه .

عادت الوصيفة تخبرها بمغادرته الشام الى بيروت ، فالتهبت نار الغيرة في قلبها ، وكانت تعـــلم ما تضمه مدينة بيروت من أمكنة الدعارة المحشودة بالقيان من ذوات التبذّل والخلاعة ، فلم يهجع لها في تلك الليلة طرف ، وغادرت مكتبها في الساعة الثامنة مساء الى محطة القطار مزمعة السفر إلى بيروت تتفقد ابن عمها وما يأتيه من ضروب الخلاعة لتكون في حِلٍّ من هجره الهجر الذي يضمحلّ معه ما بقي في نفسها من حبٍ آوتها الطفولة والقربى اليه وغذتها بلبانه ، وقد سيّرت الخادمة امامها اصيل ذلك اليوم لتقف على خبره دون ان تُشعره بها ، وامرتها ان تكتري غرفة تحاذي غرفته ثم تستقبلها صباحاً الى المحطة .

وقد كان ذلك ، فإن فريدة وصلت بيروت مساء اليوم نفسه ، واقترّت على الأنزال التي كان يلهج بها ناظم لدى عوده من زياراته السابقة لبيروت ، فعثرت عليه في الفندق العربي ، وامتثلت أمر مولاتها فباتت

تلك الليلة في جوار سيدها ناظم دون أن يعلم بها ، على أنها توقعت قدومه من المسارح فحال دون ظفرها بحاجتها ما نالها من الجهد فاضطرّها للنوم قبل عوده ، ولمـــا أصبحت بكرت الى المحطة تستقبل سيدتها ثم صحبتها الى المنزل . وقطعت امل نهارها في الفراش تسترجع ما أفقدها السهر والسفر من راحة تستعدّ بها لمراقبة ناظم في ليلها المقبل ، وهكذا كان ناظم غارقاً بين احلامه حتى إذا اصفرت شمس الاصيل نهض من فراشه يصلح نفسه بين مسح وصقل ودهان ، وهي تراقبه من خلال ستائر النوافذ حتى إذا فرغ من زينته دخل الغرفة فسمعته يتكلم فأنصتت تعجب لذلك وهي تعهده أعزل ، فما وعت أول كلمة حتى سقطت الى الارض تمسك قلبها بيد وأخرى تشير بها إلى الوصيفة أن تتجسس لها منه .

— ماذا وعت ؟؟؟

سمعت منه هذه الجملة :

جوزافين ! جوزافين ! أتتبعي .. زازي ..

فأصغت اليه فريدة هُنيأة وعادت على أثرها تعلم سيدتها أنه يخاطب فتاة لبنانية قد اتخذها خليلته ، وأنه سيسهر معها الليلة في محلة الزيتونة على مسرح يجمع بين الرقص والتمثيل ، وأما ما وعته الوصيفة من دعابه خليلته في الفراش ، وتجنّيها عليه فلم تصدع بـــه قلب امل .

اِستعدت امل لتشهد المسرح فأخذت صفة الرجال زينة وزياً وأمرت فريدة أن تفعل فعلها ، ثم ذهبتا إلى المطعم لتناول طعـــام العشاء ، ولم ينهد عقرب الساعة إلى الثامنـة حتى رأيتهما ممتطيتين سيارة عمومية إلى الحمراء حيث المسرح ، ودخلتا متنكرتين فجلستا في مكان لا ترتاده الانظار وهو يشرف على جهات (البار) جميعها فلم تستقرّا حتى أبصرت امل ناظماً قد دخل آخذاً بيد جوزافين وقصد جهة تقابل جهتها ، ثم طلب من الخادم شراباً من نوع (الشمبانيا) وأخذ

ينادم خليلته وهي تعاطيه من ضروب الغنج والتبرم ما كادت امل تتميَّز له غيظاً .

وهكذا جاء دور الرقص فقام مع من قام من شهود المسرح يخاصر خليلته فيسد فرجة تدييها بصدره حاملاً يمناها بيساره ، ومطوّقاً خصرها بيمينه ، وهي تتلوّى بين يديه كالغصن يداعبه النسيم ، حتى اذا اخذ سكر اللهو من القوم مأخذه ، أهوى الى فمها فطبع عليه قبلة تركت في قلب امل من نار الغيرة أضعاف ما ألهبت به شفتيْ حبيبته من نار الشوق)

والرقص أدوار تتخلّله فتراتٌ يجلس الراقصون فيها للراحة ثم يستأنفون العمل مبادلةً فلا يترك الراقص فتاةً إلاّ تناولها ، واحتكّ بها صدراً لصدر وبطناً لبطن ، وهو مع ذلك يجاذبها أطراف الحديث مغازلة ودعاباً ، فلا ينتهي من دوره معها إلا وقد وصل بهما الحديث « والحديث شجون » الى ضرب موعدٍ يلتقيان فيه خارج المرسح ، وربما أطفئت المصابيح فتخرق

حجابَ الظلمة الى سمعك فحيحَ أفاعٍ تنهش ما تمثّل على المسرح من ضحايا العفاف، ويُخيّل الى الغِر أنه تصعيد النفس ، وهمس الشفاه في معرِض الشهوات .

وقد استغوى جمال امل كثيراً من الفتيات واستلفت أنظارهنّ ما في هذا الشاب الحدث من روعة ساحرة وجمال خلاّب ، فتساءلن عن اعتزاله الرقص وأشعرن بذلك مراقب المسرح ، فسأله بلطف عن ذلك ، فأجابه أن عارضاً طرأ على رجله يمنعه من الرقص وأما فريدة فقد كانت تقرأ في وجه سيدتها صور ما تتأثر به من آلام نفسية تتشكل به أسرّة وجهها ألواناً تختلف باختلاف بواعثها مما ترى .

ولما حان إقفال النادي أخذ كلٌ بيد خليلته ، وامتطى سيارته إلاّ الشابّين المتنكرَين فقد ركبا سيارتها معاً الى الفندق وتفقدت امل ناظماً ، فإذا هو في المقهى العربي مع ثُلّةٍ من رفاقه يتجاذبون اطراف الأحاديث في شتّى المواضيع فأصغت اليه ، وقد سأله

بعضهم عن جوزافين ، ومبلغ علمها من فنّ الرقص ، فقال :

عبثت بي ، وخصرها في يميني ،

عبثـــاتِ النسيم بالياسمين

ثم قالت : أنىْ رأيتَ جبيني ؟

قلت بدرٌ بـدا بليل الجعود

فتهللت وجوههم وأقبلوا عليه جميعاً يهتفون له استحساناً ونادوه بصوتٍ واحد : ثم مـاذا يا ناظم ؟ فقال :

جذبت معطفي فملت اليها وجنيت الشقيق من وجنتيها

فاسألوها مـاذا على شفتيها أدمي سال أم دم العنقود ؟

ثم قام بين التصفيق والهتاف يريد النوم ، فانسلت امل الى مضجعها ، وتناولت طرساً كتبت عليه كتاباً أودعته محفظة النزل ثم غادرت بيروت عنـد الصباح عائدةً إلى الشام وقد غسل اليأس قلبهـا من وضر حبه وأهوت إلى جيبها فشقته حداداً عليه .

عاد ناظم في ساعة متأخرة من الليل ، والسكر لما يزل مثقلاً جفنيه يرنّح أعطافه ، فألقى بنفسه على الحشيّة واستغرق في النوم بقية ليله ، وضحوة غده حتى الظهيرة .

الساعة الثانية عشرة تماماً جلس إلى المائدة وبيده كتاب امل يقرأ فيه :

ابن العم ناظم ؟؟

جميلٌ خصر جوزافين وصدرها البض ، وجميلة عيناها وشفتاها بما تضمنت من حَوَرٍ ولَعَس ، وأجمل من كل ذلك يمينك من وراء خصرها ، وصدرك بين نهديها . وشفتاك على شفتيها .

وأجمل من ذاك وهذا حياةٌ تستمرُّ فيها بين تلك الأزهار يسرك لونها ، ويستهويك عِطرها ، فهل أنت من اليقين بخلودك فيها ، على مثل أمنية الشاعر الخيالي ؟

إن ما أفرغتْ علينا الطفولة من طهر الحياة ، وما يمتّ بنا معاً إلى دوحةٍ عريقة في المجد ، وما تركته

الإلفة لك في نفسي من حبٍ ملأ فراغ قلبي وكنت جدَّ ضنينةٍ به أن لا يحول بين عيني وبين جمال الحياة الفياض على وجوه الفتيان ممن يحلمون بلحظة يختلسونها من جمالي ، كل ذلك يدعوني لأن أتمنى لك كل ما في الحياة من غبطة وسعادة .

أنا معك في السعي إلى الحياة ، ولكني أخالفك في الطريق اليها .. أنت تسعى لها عن طريق يُدنيك من أجلك فيها ، وأنا أسعى لها عن طريق يمـــدّ في أجلي معها .

فاذا أمنتَ مع الشفاه التي تترشّفها غاوياً ، والجسد الذي يزدهيك بنعومته — وهما لغيرك كما هما لك — إذا أمنت معها فساد الحياة بين جسم ينهكه الداء ، ومال تأكله الشهوات ، فليس لي — وأنا منك كما أنت مني — إلا أن أغبطك على حياتك هـذه ، وأرجو لك معها خلود الذكر ، وإلا فقد أمنتُ — بعد أن رأيت منك مـا رأيت — توبيخ الضمير ، وسكنت

إلى راحة النفس ، ولا أجدني كساعتي هذه ، في حلٍ مما يلزمني تبعتُه في ساحة الوجدان ، ولعلي باذلةٌ في خدمتك جهدي يوم يتحقق فيك ما أتوسم فتدعوني لإغاثتك بلسانٍ لم يألُ جهداً في توبيخي من قبل .

« امل »

رمى كتابها من يده ثم تناول رقاً وكتب إليها ..

يا ابنة العم :

أمامي كتابٌ منك لم يزدني علماً بك ولا عِرفاناً بما فطرت عليه من عقــلٍ ساذج ، ورأيٍ فطير ، فاسمحي لي أن أقول لك ــ بالرغم عما بك من غرور ــ إن رأيك بعد لم يختمر ، وإن عقلك لا يزال في دور طفولته ، وإن الفكرة التي تحاولين بها إقناعَ مَن خَبَرَ المجتمع وأنت تشبُرين زوايا بيتك ، لَأعقم مِن أن تلد جديداً ينبعث منه النور ، وقد سبحتِ من القديم البالي في بحرٍ من الظلمات .

أي امل !!!

يتمشى المرء في حياته إلى الكمال بعقله وليس للعقل أن يبلغ اوج كماله ما دام من هذه النفس حائلٌ يقف في وجهه .

والنفس لا تنفك حجر عثرةٍ في طريق العقل إلى الكمال حتى تبلغ ما تصبو اليه ، فتستقرّ ويمضي العقل في سبيله .

وعلاقة النفس بمُتع الحيـــاة في طريق العقل ، كعلاقة الجسد بالطعام والشراب في طريق الروح ، فإذا أظلم الروح بافتقار الجسم إلى الغذاء ، فكيف يستنير العقل والنفس نزّاعة إلى ما تشتهيه من ملاذ الحياة .

كثيراً ما قرأنا :

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على

حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وأمثاله من تخرّصات الشاعر ثم جرّبنا السير عليه فكنا كمن حُكم عليهم بحرمان ما خُلقوا له ، فلم تقع لنا عينٌ على جمالٍ في الحياة نستطيع الوصول إليه ،

إلا طوينا عنه كشحاً وفي النفس من الحسرة عليه ، والشوق إليه ، ما يُضوي أجسامنا وتمشي عقولنا من ورائه إلى العز مِشية العرجاء .

إن لي نفساً وعقلاً ، ولكليهما عليّ حق ، فكيف أسلس قيادي لعقلي وأقف من نفسي موقف الشامس ؟

تطمح بي النفس إلى اللذة فأُتحفها بها ، ويطمح بي العقل إلى العز فأمشي تحت لوائه .

نعم إن هنالك حقوقاً يتبادلهـــا أفراد المجموع البشري فإن لأخي في الانسانية حقاً عليّ كما لنفسي عليّ من حق ، فيلزمني أن لا أظلم أخي في إنصاف نفسي بإبلاغها ما تلذّ ، كما يجب عليّ أن لا أظلمها في طريق إنصافه .

امل : امل !!!

لا تقيمي بينك وبين نعمى حياتك حاجزاً من عقلك الخرافي !

أوَ مُدركةٌ أنت سرَّ هذا الوجود ؟

أوَ عالمة أنت بمصدرك ومآلك ؟

إذن فكيف تدينين بما لم يدركه عقلك ولم يقع تحت حسك ولستِ مكلفةً به ؟

سرُّ الوجود يا امل هو مـــا يبعث على الشعور بالوجود ، ولن يشعر المرء بوجوده ما لم يحرر نفسه من قيود هذا العقل المكتسب ، ولن يستطيع الإفلات من هذه القيود ما نظر إلى الحياة نظرة جامدٍ مقلّد .

من شعورنا بالجمال نُدرك سرّ الجمال ، ولن نصل إلى هذا الشعور ما لم نتجرد من كل مـا يقف حائلاً بين النفس وبين ما تنزع إليه بطبعها .

سرُّ الحياة يا امل مكنونٌ في ضمير امها الطبيعة ، فكل ما يجذبنا اليه طبعاً وسجيةً فإنما هو أحد تلك الاسرار .

أفيحول عقلك دون إبلاغ نفسك مـا تصبو إليه ثم تزعمين أنك إنما تحاولين الوصول به إلى كنه الحياة ؟

فإذا كنـا من الطبيعة وإلى الطبيعة ، فما تسوقنا

اليه إنما هو علة وجودنا ، والسر الذي كنّا له ، والمعبر عنه بالحياة المعبر عنها بجمال الكون ، ووقوفنا في وجه رغباتنا التي تشير اليها مسوقين بدافع الجمود والتقليد إنما هو بُعدٌ عن الحيـاة التي خلقنا لنعشو إلى ضوئها عن طريق الحرية والاستقلال .

★★★

جوزافين إلى جنبي ولِداتها [1] بين يديّ ، وامل من ورائي وهكذا هن مع غيري ، لم يُخلقن لي فقط ، ولم أخلق لهن فحسب ، كلنا خُلق لكلنا ، فليس لي أن أنفرد بما ينفعني دون أخي وقد شركني فيه بجامع الانسانية !!

ما أجمل هذه الحياة يا امل ، وهي في الموسح أو على ضفة النهر ، حديقة منوّعة الأزهار أمتع نفسي بها نظراً وشماً ، وأحرص على جنيها حذر الذبول ، وإن أبت النفس إلا قطفها ، فلتكون وساماً على صدري

(١) لداتٌ الاتراب .

أو إكليلاً لحبيبتي .

وما أبعدها عني وأظلمها في عيني !! حياةٌ موزّعة الجني في كل نفقٍ منها زهرة قد حال بينها وبين شعاع الحياة ما في عقولنا من جمودٍ ، وما وراءها من قلوب هي أقسى من الصخر .

أرأيتِ خــدّ الورد يحمر ، وطرف البنفسج يحورّ ، وفم الاقاح يفترّ ، إلا للهواء ، والماء ، والنور يا أمل ؟

وهل يصفرّ فيذبل ، فيتناثر إلا في ظلٍ يحجبها عنه ويأذن للجراثيم ؟

كذلك المرأة عندنا يا امل !

ليست هي في جمالها إلا كالزهر منوّعَ الجمال بين لونه وشكله وعطره ، نرتادها صباح مساء ، حديقةٌ من حدائق الجمال ، تشرق عليها شمس الحب ، فيداعبها نسيمه ، ويطلّها بدموعه .

عزيزتي امل !!

تعاليْ معي نرتع في روض الحياة ، ونتمتع فيها كما يتمتع الزهر بين عُصفورٍ يغرّد ، وأغصانٍ ترقص ، وغدير يُصفّق ، تعاليْ معي يا أمل !!

فما الحياة الا أن نشعر بالحيـاة ، وكيف يشعر بالحياةِ مَن اقام من التقليد والجمود حجاباً كثيفاً بين نفسه وبين الحياة ؟؟

تعالَيْ يا أمل !!

تعالَيْ معي إلى ضفة النهر ، حيث الفتيات والفتيان يسبحن في الغـدير ، فترفّ شعورهن على أجسامهن البيضاء رفيف الظلال على الماء ، وقـــد حفت بنا الزهور ، تضحك سروراً بنا ، وتطرُق تحيةً لنا .

تعالَيْ معي يا أمل !!

الى الحياة الحرة ، الى الهواء الطلق ، الى نور

الشمس ، الى جمال الطبيعة ، الى جمال الكون ، الى جمال الله .

تعاليْ إلى ذكر الصبا وجنونه
وأحلام عيش من ددٍ وأمانِ [1]

« ناظم »

(١) لامير الشعراء شوقي .

امـــل

على ضفاف بردى بين النيربين وتحت شجرة من الصفصاف، كرسي نُصب، والشمس في طفل الربيع ، فجلست عليه امل وبيدها كتاب ناظم تقروه ، وقد ملأ نفسها إعجاباً بما فيه من وصف خلاّب ، يشفّ عن نفسٍ أنضر من الزهر ، وطبعٍ أرقّ من الماء .

لأمل نفسيتان ، إحداهما افتتانها بالحياة وما فيها من جمال ، وهذه هي نفسية ناظم ، وعليها درجا من عشمها ايام الطفولة، وثانيتهما افتتانها بالكمال ، فقد أوتيت من

هذه الجهة عقلاً وسَعة مداركِ لم تسمح الطبيعة لناظم بشيء منها ، فكلما عرضت لها الحياة بجمالها الفتّان ، وهمت بالسير نحوه ، وقف العقل في وجهها يشير لها الى الهوّة التي تسير اليها بدافع الشهوات .

والمرء أشقى ما يكون ، وهو يجاهد النفس بين عقله وهواه ، فما هو في هواه الا طالب لذة يعقبها ألم .

وليس هو مع عقله الا مكابد ألمٍ تعقبه لذة .

من أجل ذلك كانت محنة أملي طويلة الأجل في جهادها بين هاتين النفسيّتين ، ولما مُنيت به من شيطانها النفسيّ ، وشيطانها الإنسيّ (ناظم) ، ووَحدتها ، وعدم إقدام الشبّان على خطب ودّها ، كلُّ ذلك مضافاً الى حبها ناظماً ، وهذا الى كتابه الاخير في يدها ، وهما الى ما فيها من غرام بالشعر ، لذلك كله عمدت الى تغيير نظريّتها ، وهمت بمبادلة ناظم رسائل الحب ، فلم تنهض من مكانها ، وتجلس إلى مكتبها ، حتى وافتها فريدة برسالة أبيها التي مرّت بك فسقط

في يدها .

ولم ينتهِ ناظم من رسالته السابقة ، ويضعها في صندوق البريد ، ثم يعود فيضطجع ، حتى أحسَّ بصُداع في رأسه ، وحرارة في دمه ، فاستدعى الطبيب ، وفحصه فحصَ مدقق ، ظهر على أثره أنه مصابٌ بفقر الدم الناشيء عن الانغماس في الشهوات ، والمفضي به الى الدرجة الأُولى من السلّ الرئوي .

فلْنتركِ الآن ناظماً يقاسي آلامه ، ونتمشى مع أمل بعد أبيها :

لم تقع عينها على أول الرسالة ، حتى أمسكت كبدها بيدها ونادت فريدة بصوتٍ يلجلجه الذعر ، فأسرعت اليها وقد مال بها الكرسيّ ، فخرَّت الى الأَرض مغشيّاً عليها ، فلما أفاقت ملكت نفسها وأخذت الرسالة ولم تزل بها تغالب العبرة تتلوها العبرة ، حتى أتت على آخرها فمي — والليل قد أرخى سدوله — أظلمُ منه وجهاً ، وأقربُ الى الجنون منها

الى العقل ، حتى تستقرّ على قبر أبيها .

أمرت وصيفتها بالاستعداد للسفر من ساعتها ، وقد أوشك قطار المساء أن يزفر .

وأما ناظم ، فقد كان من وراء هذا الاهتمام كله لديها ، وكان كتابه في سلّة المهملات .

اربعةَ أيامٍ استمرّ سيرها بين الشام ومرقد أبيها في البادية من قطار الى قطار ، ثم من جوادٍ الى جواد ، ولما أشرفت على الحيّ ، أمرت الرسول أن يعدل بها الى القبر قبل النزُول ، فامتثل وسار بها اليه ، وهو الى الشرق من الحيّ في الرابيةِ المسماة بالكثيب الأعفر ، فلما استقبلت الشرق ، وقد أوشك صبغ الليل أن يحول ، وتوالي نجمه أن تتغوّر ، بعث السحر صَباه ، فحرّكَ من امل كل ما في نفسها من شجن دفنه الصبر في قلبها منذ فارقتها أمها ، حتى الساعةِ التي تستقبل بها قبر أبيها .

ولما تبيَّنت شبح القبر ، والشجرتين على جانبيه ،

همّت بأن تلقيَ نفسها عن الجواد ، ولكنها تمالكت عن ذلك ، حِرصاً على ما فيها من بقية رمقٍ تحبُّ أن تُريقها على القبر وفاء بحقّ أبيها .

أدارت عينيها حولَ القبر ، وقاست بهما الرابية ، ثم حولّت نظرهـــا الى سهول البادية المنبسطة تحتها ، فأدركت نفسيّةَ أبيها ، النزّاعة بـه الى حيث يشرف على الكون ، من اختيارِه هذا النشز مدفناً .

قعد بها فتور الجسم وانحلال العزيمة الى الجانب الأيمن من القبر ، فاكبّت عليه ساعةً ، قضت فيهـا حق الدمع والزفرات ، حتى أيقنت أن ما تسرّب الى تراب القبر من دموعها ، كان كافياً في إيصال ما تحمله من الوجد الى أبيها لدُن لامس دمعها جسده من وراء الصفيح ، فانتفض يُصغي الى ما ترثيه بـه وحيدته امل ، فإذا هي تخاطبه بصوت خفيّ ، تكاد تسمع من ورائه نشيجاً سكن له الليل ، فحسبت ما في السحر من رقّة أنفاسٍ قد تلاشى فيه :

أقول كأني لست أحفل وانبرت

جفوني فأبدت ما يجن جناني (١)

خليليّ أبصرت الردى وسمعته

فإن كنتما في مرية فسلاني

خذا من فمي هلاّ وسوف فإنني

أرى بهما غير الذي تريان

ولا تعِداني أن أعيش الى غدٍ

لعلّ المنايا دون ما تعدان

ونبّهني ناعٍ من الصبح كلما

تشاغلت عنه عنّ لي وعناني

أغمّضُ أجفاني كأني نائمٌ

وقد لجّت الأحشاء بالخفقان

هذا هو الخطر الداهم الذي كنت أتوقعه !!!

ها قد تحقّق ما حامت به من رؤيا هالتي وقعها .

ها هو الفرقد تقذف به الأقدار في لجة العدم

(١) لابي جعفر الطليطلي الاندلسي .

فيتلاشى .

هذه وصيتك يا أبَهْ ! قد لبستها ثوباً من النور .

أبه يا خالد !!!

قد كنتُ أبقيتُ على مافيّ من رمقٍ يوم ودّعتْ قبر أسماء لِأكون سلوةً لك عنها ، فامن بعدك أدّخر هذه البقية . يا أبه !!!

هذه وحيدتك امل تحضن ما دونك من حائل تشفق على صخره أن يلامس جسمها .

بأيِّ ظلٍّ ألوذ ؟ والى أيّ كهفٍ ألجأُ ؟ وعلى من أعوّل في الحياة بعدك يا أبتاه ؟؟؟

تركتني في مجهلٍ قفرٍ لا ماء يُروي ، ولا ظِلّ يُؤوي ، ويلي !! كيف أحيى ؟؟

لا ابَ يكنفني ظله فأرفل في وشي العز بين يديه ، ولا أمَّ تُسبغ عليّ من حنانها ما يحول بيني وبين الآلام — وهل الحياة إلا نعيمٌ بين عز الأب وحنان الأم ؟؟

أبهْ يا خالد !!

لمن تركتني ؟ والى من وكلت أُموري ؟
قد كنتَ لي جبلاً ألوذ بظله
فتركتني أضحى بأجرد ضاحي

لقد علّمتني برزئك كيف آلم ، بين زفرة تضعف ، وعبرةٍ تتضاعف ، فهل علّمتني كيف أنجو من خطرٍ يحدق بي وهمٍّ يساورني ؟؟

علمتني يا أبه !! كيف أحيى بين قومي ، وكيف أستقبل أيامي ؟ كيف أنشد الحيـاة ، وكيف أمدّ اليها بصري ؟؟

ولكنك لم تعلمني كيف أفرّ من ليـالٍ أشخص فيها إليك وقد هجعت العيون دوني .

ليـالٍ أبيت أجلو عليك بدرها ، وأسألُ عنك زُهرها ، ليالٍ أُحييها عليك فكراً ، وتميتني بك ذكرا ،

أبهْ يا خالد !!!

علمتني كيف أطير في سماء العز ، وكيف أناضل

أقراني وأبارِيهم في مَيدان الفضيلة .

ولكنك لم تعلّمني كيف يناضل الأجذم ، ولا كيف يطير مَن حصّت الأيام جناحيه .

هذه عبرتي يا أبهْ !!

وهي كل ما في طوق وحيدتك امل .. ولا أوفى من العبرة يبعثها الحنين ، بحق من أسخنها ، وقد كان قرّة عينها .

للباكي الثاكل عينٌ واحدة ، واما بضعتك يا أبا حسن فإن لكل جارحةٍ منها عيناً يتدفّق دمعها .

فليس لهذه العين بعدك أن تكتحل بالغمض يا أبه ، ولا لناظرها أن يرى زهرة الحياة ، ثم لا يحول بينه وبينها حاجبٌ من الدمع .

وليس لهذا الفم أن يترنّم بعدك ، ولا لصبح الحياة أن يبسم على شفتيه .

... يا فريدة أدركيني فقد أحسستُ أن صدري ينشقُّ مما أجد .

فاحتضنتها فريدة ، وقد كان الرسول تركها وأتى الحيّ فأخبر سيد عشيرته ومُمرّض خالد ، فجاء ومعه رهطٌ من قومه والنساء يحملن المـــاء والزاد ، فأدركوا املا وفيها بقية من الرمق ، فاحتملوها الى الحيّ ورفهوا عنها ، حتى تماسكت وبقيت على ذلك سبعة أيّام تختلف الى القبر ، ونساء الحيّ يهوّنّ عليها المصاب بأنواع التعزية ، وقد أصبحت كالزهرة جفّ عرقها ، فذوت ، ثم أطرقت .

ولما كان اليوم الثامن وقـــد عزمت على السفر صبيحته ، فنامت تلك الليلة الى جانب القبر ، ولم تزل تبكيه حتى الصباح .

انتبهت مذعورة أن رأت على مقربة من الكثيب شاباً وسيم المحيا ، يقود طليعةً من الخيل تُقلُّ عشرين فارساً ، حتى اذا دنوا من القبر ترجلّوا ، ثم أحاطوا به وتقدم الشاب منها فسلم عليها وقال ، امل !!

يا بقية السلف الصالح ، ويا ثمرة الغرس الطيب .

أفتراك أنت تلك البضعة ؟ بضعــة ذلك البطل الخالد ؟ بلى : أراك شعلةً من فكرته الوقادة وآية من ضميره الحيّ .

أوَعنكِ كان يحدثني سيدي بما لم أزل اتخيّلك فيه مَلاكاً هبط الى الأرض ، ليفيض علينا من ملكوت السماء ما يحول بيننا وبين ظلمة الحياة ؟؟؟

وأنكِ أرفع بنات الخدر ذيلاً عن الرجس ، وأدناهنّ من الطهـــر فضلَ رداء ؟ أدناهن من دارة القدس ، وأبعدهن عما يبعث الريب ؟؟

تخيّلتكِ يا امل ، وقد ملأ سيدي خالد بجوهر نفسك سمعي وبصري ، أطهرَ من ماء المزن ، وأنقى من فريده في أكمام الزهر ، لم يحل دون نُخبركِ الدهر عَمىً في القلب ، ولا عمهٌ في البصيرة ، ولا أحدّ من النفس الخالصة من درن المفاسد بصراً بالخطب قبل وقوعــه .

والجزع يا امل ! هو الغمام الذي يتلبَّد في سماء

النفس فيحجب عنها نور الحياة .

فليس للقبر أن يضمّ روح أبيك وقد ضاق به الفضاء الرحب ولا للعين أن تنكر شخصه وهو في الضمير حيث القلب .

ثقي يا امل !!!

أن لِأَبيك نفساً لا تزال مِنّا بالمنظر الأعلى ، خفاقةً فوق كل علَمٍ ، ونزّاعةً الى كل عز .

وليس لهذا الداء الاجتماعي الذي يسمونه موتاً ، والذي يسلب النفوس ما تجسَّدت به ، أن يحول دون رؤيتها بعين الحيّ المجرّدة من أشباح الوهم والخيال .

فما الجسم الذي يضم الروح ، إلا كالثوب الذي يستر الجسم ، وكما يبلى ثوب الجسد يبلى ثوب الروح ، والداء الذي يصيب الساتر الأول ، هو عين ما يصيب الثاني فيُبليه .

فليس للموت يا امل على النفوس من سلطان ، ولكن هنالك موتاً يأتي على الروح ، ولما تزل زاهية

الثوب (الجسد) فينا .

ذلك الموت هو الذل يا امل !!

كما أن ثمّةَ حياةً ، غير الحياة التي يعرفها هؤلاء الناس ، حياة تجعل المرء ، وهو فردٌ أمةً ، كثيرة العدد وتنشره ، وهو في حفرتــــه ، على مرأى من الأعين ومسمع من الآذان ، فتبعثه فينا حياً خالداً وقد مرَّ على هلاكه قرون .

تلك الحياة هي العز يا امل !!

فليس لمن عرف خالداً ، أو وعى صدرُه خبرَه ، أن ينكر ما خلّد من ذكرٍ سوف يبعثه في الأجيال المقبلة حيّاً خالداً .

فمِمَ إذن بكاؤكِ يا امل ؟؟؟

ومِمَّ تجزعين ؟؟ فأشفقي على غصنك أن يذوي ، وعلى زهرك أن يذبل ، فإنك خلقتِ للحيـاة ، ولم تخلق الحياة لأحدٍ من قبلك .

ثم نهض فأمر رجاله بمـــدّ الطراف الكبير في

حضيض الجبل له ولهم ، وبضرب القبة الحمراء في سفح الرابية لأمل ووصيفتها فريدة .

قطع وسيم ثلاث ليالٍ في جوار استاذه خالد ، وكأنما قد قطعها محاضراً ، يُلقي على أمل من تعازيه الدرس تلو الدرس حتى قتل اليأس من نفسها ، وأعاد الى زهرتها ذلك الرونق وتلك الرقة الخلاّبة . وفي اليوم الثالث نادى بالرحيل بعد أن أقنعها بأسلوبه العذب الذي ردّ عليها نضرة آمالها في الحياة ، أن تصحبه الى البادية لتتمتّعَ أياماً بحياتها الهادئة التي ألفها أبوهـــا ، والنفس جِدُّ نزّاعةٍ الى الوقوف على آثار من تحب ، ولمعاهد الاحبـاب ، وهي أطلال ، حنينٌ في نفوس المحبين لا يقف عند حدٍّ حتى تقف بهم دونها يراوحون بين أكفهم على الأكباد ، ويفيضون فيهـا من الدمع ما يقضون به حقّ هذا الحنين .

...

قد كان وسيم فتح الى قلبه طريق الحب منذ

أشهر ، أيامَ كانت كلمات أستاذه خالد تصقل نفسه ، وتُعدُّها للتأثر بما يعرضها من جمال الكون ، ومن خلال كلماته كان يلتقط « أمله » في الحياة ، فقد بثَّ خالد في نفسه دعايةً كبرى لأمل ، اذ توسَّم فيه كرم النفس ، وبعدَها عن الخسة ، وطموحَها الى معالي الامـــور .

ترك وسيم أملاً تحمل رأسها بيديها ، ويوشكُ ان يهويَ به النعاس على الوسادة ، وعاد يُعدُّ في نفسه ما يؤهله لازدياد شغفها به .

في صبيحة تلك الليـــلة كان القوم مصداق قول الشاعر :

أجمعوا أمرهم عشاء فلمـــا

أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء[1]

أمر وسيم رجاله بالرحيل وعدل مع أمل الى القبر يودّعان مصلحها المضطجع فيه ، وكانت لهما حوله

---

(١) من المعلقات .

ساعة قد كان في مقدور الفكر ان يشرحها لو ان في مقدور اللسان ان يُعرب عنها ، ولم تزد أمل بعدلئم القبر على أن ودّعته بقول الشاعر :

هيا نائماً ، وحياة البلاد تناديه من أفقها ، لا تنم !!
بماذا يفيك البكى من بكى وينظم فيك الرثا من نظم؟؟
لقد مات بعدك حيُّ الشعور وعيَّ اللسان وجفَّ القلم

★★★

ولما علت وجهَ النهار كآبةٌ

ودارت به للشمس نظرة مشفق (١)

عطفت على الاجداث أجهش تارة

وألثم طوراً تربهـــا من تشوّق

وقلت لمغفٍ ما يهبّ من الكرى

وقد بت من وجدي بليل المؤرق

لقد صدّعت ايدي الحوادث شملنا

فهل من تلاق بعد هذا التفرق ؟

(١) لابن خفاجه الاندلسي .

ثم أهوت الى الارض مغشياً عليها ، فبادر وسيم الى الترفيه عنها ، واحتضنتها فريدة الى المحمل فلم تفق إلا والجبل الأعفر من ورائها ، كسفين يرسب في الآل ثم يطفو ، فجعلت تطيل النظر اليه ، والدمع يسبق لفظها وهي تنشد :

أأحبابنا ان ايامنا ليالٍ فقدنا بهن القمر
قفوا بالركائب ريث الوداع على عجلٍ زوّدونا النظر

★★★

لم يشأ وسيم ان يجهد الركب فيسرع المسير رفقاً بأمل ، فقد كان يراوح السير بها طرفي النهار ، ويقيل ما بينهما ، فإذا دهم الليل كان سميراً لأمل في خدرها يستطرف لها من أخبار العرب وأشعارهم ما يزداد به علواً في نفسها ، وما تجوز به ظلمةَ الماضي الى نور ما تستقبله من حياة تكاد تتبيَّن فجرها من جبين وسيم وتلمس ثمرها اليانع وشيكاً من روض شبابه الريان .

لم يحل طريف سمره دون عناء السفر أن يتسرّب

الى نفسها فحسب ، بل تجاوز ذلك الى تهوين مصابها بابيها فانها لم تشرف على قبة مصلح العرب الاكبر في المدينة إلا وقد حـــال ذلك الشحوب الذي لبس وجهها منذ أسابيع رونقاً يرفُّ على روض من الجمال يندى بما يفيضه الحب على قسماته .

فليست نظرات وسيم التي كانت تعبث بزهر جمالها الا الأشعة تنشرها شمس الحب عليها من وراء شعوره بجمال الحياة .

وليست كلماته التي كان يتحدث بها الى أمل سوى سقيط الطلّ يتراكض في جيوب ذلك الزهر وعلى أكمامه .

فصلُ الربيع جميلٌ في كل مكان ، وأجملُ منه أن يمرَّ بك وأنت في ربيع حياتك . فقد غادر الظعن مدينة « طَيبة » الى « وادي العقيق » حيث الربيع كسا جانبيه مطارف ممـــا حاكت السحب ، وعلى حواشيها وشيٌ من الزهر يرفُّ على ماء العقيق .

وفي أنزه بقعةٍ من الواد ضربت قبة أمل ، تطلُّ على جنباته ، فتغترف عيناها من بحر جماله المصفَّق بين أيدي النسيم ، والى جانبهـا وسيم يغوص بفكره في ذلك البحر فيعود ملء اليدين من فريدٍ هو كل ما في الحب والجمال من سرٍ تخبئه الطبيعة فينمُّ عليه الزهر في الربيع تحت أشعة الشمس المتكسرة على زجاجـه الرقيق تكسوه من نورها ألواناً شتى .

هنالك ، وقد فاض شعور أمل بالحيـاة . وهل الحياة الا أن تكون الى جانب من تحب يفيض عليكما جمال الحب بين جمال النور وجمال الزهر ؟؟

هـل هيَ الآن تتوسد حشا من تحب ، ويداك يدٌ توشّحه ، واخرى تعبث بالازهار المنثورة حولك وقد فرّق الافق بصرك بين جمال الارض وجمال السماء ؟؟

هنالك ، نظرت امل في وجـه وسيم ، وهمت شفتاها باطلاق ما يجول في نفسها من عقال الحيـاء فجرأها على النطق بابتسامة نمت على ما يُكنُّه من شعورٍ

حيٌّ تجاهها فقالت :

يا وسيم !! ثم أطرقت الى الارض . فقال لها :

إيهٍ يا امل ! تكلمي ! فإنك في اجمل ارض تحت اجمل سماء .

فقالت : ما كنت اظن أن في العالم شخصاً يُعيي عليّ ، فيما أنقّبه بين جنبيه وفي زوايا نفسه ، أن أعثر بخلة من خلاله يمجها طبعي ، وترزح تحت عبئها روحي ، لِما أجدني في هذا العالم الفاسد غريبة الشكل كأني لست من سنخه حتى اذا غادرت الشام رأيتني أجول منك في روضٍ من جمال الحياة ، كلما جزتُ زهرةً منه تلقّتني ثانيةٌ بأروعَ مما ملأت أُختها به نفسي دهشةً وإعجاباً .

يعجبني فيك يا وسيم : دقة النظر في الحياة ، وذلك ما يستهويني فيها ، فقد مُنيتُ بنفسٍ لا يستخفها من جمال الحياة كالشعر ، ولا يُطربها من أنغام الطبيعة إلا ما يوقعه الشاعر من أبنائها على أوتار الغرام الحي .

قبل لك أن تحدثني بأجمل رواية تركت في نفسك أثراً كنت به شاعراً ؟؟؟

فقال لها : سوف لا أضنُّ عليك بروايتين ، كل ما يتراءى لك في نفسي من جمال ، هو أثرٌ منهما ، إحداهما حديثةٌ حدثني بها أبوكِ ، والأُخرى قديمة حدثني بها أبي .

وستسمعين هذه قبل مغادرتنا العقيق ، والأولى لدى ورودنا نعمانَ الأَراك ، حيث الجمالُ التهاميّ ، مهبط روحي ، ومغرس آمالي ..

قال ذلك ، وهو ينظر في وجهها ليعلم مبلغ كلمته الاخيرة من نفسها ، فرآها وقد امتقع لونها ، وتوارى خلف ما اكفهرّ من وجهها ، رونقُ جمالٍ كانت تشرق به نفس امل ، فأدرك ذلك وسيم منها ، وزاد في وثوقه من خلوص نفسها ، وصدق حبها ، فقال لها :

ليُفْرِخْ روعك يا امل ! فلسوف ترين أن آمالي التي أنشدها ستغرسها في تهامةَ يدٌ لم يملك قياد نفسي بها

أحدٌ غيرك ، فاطمأنت وسكنت ثائرتها ، ثم مضى في حديثه براً بالوعد فقال :

...... حدثني أبي يا امل ، عن مقدار ما وصل اليه جمود التقليد في آبائنا ، قال :

إن في العرب يا بنيّ خلةً غير محمودة ، هي الزواج عن غير حب ، والحيلولة دون المتحابين قبل الزواج ، ولو أدى بهما الى الغرام[1] ، فالعشق عندهم من الخلال التي تُلحق بأُسرة المعشوق عاراً يؤدي بها إلى هدر دمِ العشيقين ، ولو كان فيه دَمار قبيلتيهما .

وذلك إنما ينشأ فيهم عن احتفاظهم الشديـــد بالعرض ، أن لا يتّخذه الفاسق منديلاً ، وذيادهم عن حوض الشرف أن تلغ فيه كلاب العار .

من أجل ذلك نشأ فيهم الغرام ، وهـو الحب القاتل والمسمى عندهم بالهوى العذريّ ، والحب يا بنيّ إنما هو من عوارض النفوس الحيـة بشعورها ، ولا

(١) الغرام الهلاك .

يكون غراماً ما لم يقف به الخوف أو العفاف عند الحديث والنظر ، فاذا تجاوزهما إلى الضمّ والتقبيل ضعف ، ثم إذا تعدى ذلك إلى ما وراءه تلاشى"[1].

« مرّ بأحد فرسان العرب المشهورين ، وهو في حميّ له ، شابٌ قضيف ، أسمر اللون ، لم يطرّ شاربه ، ولم يُنهِ عقده الثالث ، على جوادٍ أصهب ، مدَجّجٌ بالسلاح ، تلوح على رأسه خوذة تتصل بدرع محكمة السرد ، قد أورد سنانَ رمحه ما بين أذنيْ جواده ، وتقلّد سيفاً ترفُّ حمائله على منكبيْه .

مرّ به وهو من زهوه وخُيلائه يكاد يحك السماء بشمم أنفه فيحسب أن ما يتطاير تحت سنابك فرسه إنما هو النجم يدوس فوقه والشهب تتساقط بين يديه .

مرّ به ، فلم يزد على أن لحظه بمؤخّر عينه ، فحيّاه مقتضباً ، وراح ينهب الأرض بجواده ، غير

(١) قد ذكر المؤرخون هذه الحادثة ، وكذا حادثة سعد وليلى التي ستمر بك في بضعة اسطر فالحقيقة فيها تكاد تتضاءل في جانب الخيال ، « المؤلف »

هيّابٍ ولا مكترث .

فهبَّ الكميّ من مكمنه يتردّد بين عاملين : هـذا يدفع به الى الأمام طمعاً بسلاح المدجج وفرسه ، وهذا يُركسه إلى الوراء بما ملأ بـه صدره من هيبة وبطولة .

وبعد لأيٍ خضع لعاطفته ، فوثب نحو العابر ، وقد ولاّه ظهره ، ثم قال :

مكانَك ! أيها الدارع !!!

فالتفت اليه مستخفاً دون أن يأخذ من شكيمة الجواد ، وقال :

وراءك يا عمّ خيرٌ لك !!!

فلم يأبه له عمرو ، وهمّ به ، فعطف عليه ، فإذا هو تحت سيفه يستقيله ، مُكْبِراً بأسه ، معترفاً بطوله ، فعفا عنه وخلاّه ؛ ثم استأنف السير فاستوقفه عمرو ، وعرض عليه صحبته ملحفاً بسؤاله ، فصحبه على أن يخضع لسلطانه .

مرّ اليوم الثالث به ، وهو يترامى خلفه عياء ، حتى لم يبق في قوسه منزع ، قال عمرو وما هو إلا أن نكّب صاحبي عن الطريق فتبعته ، حتى اذا قطعنا الجزع من بطن الوادي ، عمد الى سفح جبلٍ أجرد ، ثم توارى خلف كهفٍ أنزلنيه ، وقد أوشكت عقارب الليل أن تدب ، فألزمني جواده ورحله وقناته ، وقال : إلبث هنا ريثما أعود إليك ، فإن أبطأت ، فتفقّدني وراء تلك الرابية ، وأشار بيده الى ربوةٍ تشرف على حيٍّ نزولٍ في منعطف الواد .

هالني أمر الرجل ، وعميَ عليّ ما يرمي إليه من قصده ، رغم أني لم أترك وسيلة أنفذ بها الى أعماق نفسه ، فلم أستطع الوصول الى مكنون ما يضمر مما قصَّر جفنيه ، وأطال حنينه ، وألزمه الصمت والتفكير .

لم تقعد بي نفسي ، وأنا أقلق منه لاستطلاع امره ، فمضيتُ أعدو وراءه ، متحسّساً مستخفياً ، فكلما وقف وأنصت ، تواريتُ عنه ، وأخملت حركتي ، حتى إذا

هبط الجانب الأيمن على مقربةٍ من النزل ، وركن الى كنفةٍ تطلُّ عليها صخرةٌ شاهقة ، وجلس هنالك ، كأنه يتوقع قدوم غائبٍ لموعدٍ بينهما .

ألصقتُ بطني على ظهر الصخرة ، وأنصتُّ أتلقّف نجيّه بأذنيّ فأسمعه يقول :

« ها هو المنعطف ، وتلك شجرة الأثل المنحنية على الغدير ، وهذا هو المسيل المنحدر من رأس الجبل ، وهذه هي الصفاة المشرفة على المسيل ، وقد حان مرورك يا سُعاد ، ولمّا أرَ من خلال هذه الصخور الشاخصة شبَحاً يتحرك ، فيؤذنني بوفائك » .

ثم غادر المكان ، وجَزَعَ [1] المسيل الى الجانب الأيسر واستمرّ يعلو الجبل عرضاً ، حتى غاب شخصه عن عيني ، وفات حسّه سمعي ، ولبثتُ مكاني رجاء أن يعود .

سكن الليل وهجعت العيون ، وخبت أنوار

(١) جزعه قطعه .

الحيّ ، وخفتت أصوات السمار ، وأطلّ القمر ضئيلاً من وراء الجبال ، فعمّمها من نوره الكاسف ، بكساء بُرْجديّ ، وإذا بي أنظر الى جانبي ، وعلى الصخرة التي أتوسدها ، خيالَ رأسين هلع لهما قلبي ، فطفقت أشدّ بكلتا يديّ عليه خيفةَ أنْ يطير من الذعر ، وفجأةً أدركت أنه ظِلُّ صاحبي ، ومعه حبيبته قد أطلاّ عليّ من رأس الرابية ، والقمر وراءهما ، فهرولتُ مسرعاً الى الرحل حيث الجوادان يعتلفان ، فلم آخذ مقرّي إلا وهو يصيح بي :

عمرو !! فقلت لبّيك !! قال هلمَّ الجواد ، وخذ أهبتك للسرى ، فبادرت اليه بجواده ، فركب وأردف وراءه فتاةً كشف القمر عن وجهها ستر الليل فإذا هي كدمية محراب ، ثم ركبتُ وتبعتهما ، عائدين من حيث أتينا ، ولم نزل نطارد الليل ، حتى أوشكت ذيوله أن تنكشف عن طلائع الفجر ، عدل عن الطريق وهوّمنا ساعة ، ثم نبّهني واستأنفنا السير ،

حتى غزالةِ الضحى ، وبينما أنا أفكر في شأن الرجل وجرأته بإقدامه على ما فعل بنفسه ، وما عسى أن يكون آخر أمره ، حانت مني التفاتة الى الوراء ، فإذا بي أرى أربعة فرسان تنهب خيولهم الأرض ، وقد عقدت سنابكُها فوقهم سُرادقاً من العثير ، فهالني ما رأيت ، وأخبرته بما وراءنا ، فلم يلتفت ولم يزد على أن سألني على قيدِ كَم نحن عنهم ؟ فقلت على مسافة ميلين ، فجار الى أصل الجبل ، وأنزل الفتاة ثم التفت إليّ وقال : أتحمي الظعينة [١] أم تدافع وأحميها ؟ فقلت بل أحميها ، فأخذ لامة حربه ، وادّرع ، ثم أقبل على الفتاة وأحدق بها مليّاً ، وهو ساكت ، حتى امتلأت عيناه بالدمع ، فدنت منه ومسحت خديه بكفيها ، ثم احتضنته ووضعت رأسها على صدره ، ونشجت طويلاً حتى أغمي عليها ، فأضجعها الى جانب الرحل ، ثم أهوى الى رأسها فقبّله وهو يقول :

(١) المرأة ما دامت في الهودج ، وهي هنا مجاز .

ودّعته وبودي لو يودّعني   صفوُ الحياةِ وأني لا أودّعه[1]

ثم رجع الى الطريق ، ووقف موقف المناجز ، حتى اذا دنوا منه وعرفهم ، نادى كبيرهم وهو عمه ، فقـــال :

النَّصَفَةَ يا عم !! قال حباً وكرامـة ، فبرز اليه خطيبها فقتله ، ثم برز أخوها الأكبر ، فتوقّف عن مبارزته ، وقال : استبقني يا عم !! فإني خيرٌ لك من فات ، فلم يجبه منتصحاً ولا راثياً ، وبارز أخويها فقتلهما ، ثم أعاد القول على عمه وقال : لعلي أكفيك مؤنة هذين الشهيدين في حياتي ، فقال : لا خيرَ في الحياة بعدهم ، ثم بارزه الشاب فضربه ضربة مشفق على عجزه ، ولم يحترس منه فاتّقاه الشيخ بطعنةٍ بقرت بطنه فوقعا قتيلين .

كل ذلك كان على مرأى من سعاد ، وقد همت بعد ذلك أن تنهض الى المعركة ، فلم تستطع لما عقل

---

(١) لابن زريق

رجليها من هول ما رأت ، فحبت إلى مصارع القوم حبواً حتى توسطتهم ، ولبثت تُدير عينيها فيما حولها فاقدةً رشدها : أبوها عن يمينها ، وإخوتها عن يسارها ، وابن عمها وراءها ، وحبيبها أمامها ، تنظر الى نفسها ، ثم الى الأرض ، ثم إليهم ، فتبتسم ، ثم تتكلم بكلمات تشعر بالجنون ، وحانت منها التفاتةٌ إلى عمرو فرأته ينظر اليها ، فقالت له أعطني سيفك يا عمرو ، فقال ما تصنعين به ؟ قالت : أُدافع عن قومي ، أما ترى الكتائب ! أنظر ؟ أنظر ؟ فقد أدركونا ، اسرع !!

قال عمرو : فعلمت أنها جُنت ، ورجعت إلى الرحل لِأُمهّد لها مركباً وأحتملها ، فلم أدنُ منه حتى التفتُّ إليها وإذا بها قد تناولت سيفاً من سيوف قومها ، وأحنت عليه ، فنفذ من ظهرها ، فكان أعظم مشهد رأيته في حياتي » .

هذه أولى الحادثتين اللتين تركتا في نفسي أثراً هو كل ما فيها من شعور بآلام الحياة يا امل !!

ولا أفعلَ في النفس من مأساةٍ كهذه يخلقها الحب ، ثم يبعثها في النفوس الشاعرة ألماً يضطرم في الأحشاء ، ويتحدَّر على الوجنات .

***

رواية العقيق وما تخللها وأطاف بها ، من سحر الحدث ، وجماله الشعري ، كانت أولَ كاس من حميًا الحب ، تناولتها يــد امل مطمئنةً الى خلوصها من شوائب المكر ، مكر الرجال المموّه بالحب الزائف .

تناولتها والدى أول نهلة منها تحوّل حبها شغفاً ، فلم تستطع بعد ذلك أن تنام ، فتغمض جفنيها على غير خياله ، ولم تكن لتتجمّل بعد أو تتصنع ، ولا لتتفقد جمالها أو تتحاشى ، مغبةَ أمرها معه ، لما وثقت من شغفه بها ، واغتفاره لجمال روحها ما في الطبيعة من عيبٍ تتلافــاه المرأة بالتصنّع ـــ والحب يُعمي ويُصمّ ـــ .

فليس لمن ملك الحب فؤاده ، أن يرى حبيبه بعين

تتناول عيوبه ، من وراء جمالٍ يأخذها بسحره .

ولا أن يسمع فحش القول من فمٍ يفضح الصبح بابتساماته ، ويوقّع على أوتار النفس لحناً هو كل ما في الغناء من جمال الفن .

هكذا قطعت امل مـا بين العقيق وعرفات إلى نعـــمان الأراك ومهبطها منه إلى تهامة ، تتنقّل من حديث وسيم وسحره ، على طبَقٍ من ثمار الصيف ، يتخلل أنواعه زهر الربيع ، حتى إذا نزلا بطن نعمان ، اختار لها أجمل بقعةٍ ضُربت فيه قبتها ، وأعدّ متكأً للسمّر في جانبه يطلُّ على مناظر الأراك المنتشر كالوشم في بطن الواد ، حتى إذا لبست الشمس برد الطَفَل ، وآذنت بالمغيب ، وأطـــلّ عليها القمر من وراء عرفات ، عطفت عليه أمل وقالت هلمَّ حديثك عن أبي يا وسيم ! فما أجمل الليل نخلو به ، والحديث بيننا شجون !!

فقال لها لبيكِ يا أملي !! ثم أخذ وسادة فاعتمد

عليها وقال :

حدّثني أبوكِ يا امل في عُرض حديث كنّا نتناول البحث فيه عن تأصُّل العادات والتقاليد في نفوس الشرقيين حتى تصبح غريزةً فيهم ليس في مقدورهم التحوُّل عنها .

قصّ عليّ الحادثة التالية مؤيّداً بها هذه النظرية ، قال :

« اتصل بي عن ثقةٍ، أنّ في العراق، كما في الشام وسائر المدن العربية، عوائدَ لا تزال حتى اليوم قذًى في عين الأُمة يحول دون ما ترمي اليه .

ذلك ما يتصل بكَ مما أُحدثكَ به الآن يا بنيّ :

« في الغريّ [1] إحدى مدن العراق ، أُسرةٌ عريقةٌ في المجد ، يتولى كبيرها رئاسة التدريس في إحدى مدارس البلدة ، يقوم بالتثقيف الأعلى فيها ، ورجال هذا القسم من الطلاب يعنون بالتثقيف الأوّلي

(١) الغري مدينة النجف .

لمن دونهم ، وتلك طريقة التدريس في الغربيّ ، فطالب العلم في مدارسها معلم وتلميذ في آنٍ واحد ، والتعليم افرادي ، فقلما تجد أستاذاً يلقي دروسه في قاعة تضمّ أكثر من تلميذين أو ثلاثة ، هذا إذا استثنينا المرجع الأكبر من الأساتذة ، فإن له في كل يوم محاضرة يلقيها على مئات من خريجي تلك المدارس ، يتناول فيها بحثاً فلسفياً ، يأتي على خلاصة ما يدرسه الطالب في سنيّه الأخيرة التي يتخرج بها أستاذاً مجازاً ، على أن التدريس لم يقم على الشكل الحديث نظاماً وترتيباً ، فالمدارس إنما هي مساكن الغرباء ممن يرتادون العلم ، وابهاؤها كمساجد المدينة ، نهارها عامر بالمناظرة والجدل.

وليس للدرس مكان مقصور عليه ، ولا وقت خاص به ، ولا معلم مسؤول عنه ، فالطالب يختار الأستاذ ، والأستاذ يختار المكان والوقت ، فقد يكون الوقت ليلاً كما يكون نهاراً ، وقد يكون المسجد كما يكون بيت الأستاذ معهداً للتدريس .

في أواخر القرن الثالث عشر للهجرة ورد الغريّ من بادية العراق فتىً مراهق لم ينهد من عقده الثاني ونزل إحدى مدارسه التي يشرف عليها الشيخ المذكور زعيم أسرته ، فكان محل إعجاب الطلبة فيها رقة طبعٍ ، وحــدة ذكاء ، واتصل بالشيخ أدبه وحسن سلوكه وجهاده في سبيل ما هاجر اليه ، فنزل من نفسه منزلةً قرّبته منه وعطفته عليه ، وخصص له وقتاً يغشاه فيه صباح كل يوم في داره كعبة الوفود العراقية ليأخذ عنه الحكمة والبيان درساً خاصاً به .

دار الشيخ داخليٌّ وهو مقرّ أهــله وولده ، وخارجي ، وهو حجرتان تقابل إحداهما الأُخرى ، يستقبل الزائرين في اليمنى ويخلو بنفسه للمطالعة في اليسرى ولكل منهما منفذ الى الداخل .

لم تنشر الشمس أشعتها من نوافذ البهو ، إلا وقد جلس سعد في زواياه مكباً على كتابه ينتظر أستاذه للدرس ، على ذلك مشت الايام به اعواماً ثلاثة كان

فيها مثال الجد والنشاط في درسه وكان ذكره وردَ أستاذه ، ونغمه المردّد في قومه وبين اهله فلم يكن ليضمه مجلس أتيَ به على ذكر العلم واهله إلا ولسعدٍ النصيب الاوفى من الثناء والتقدير ، ذلك ما وقفت منه ليلى احدى كرائم الشيخ موقف المفكّر الصامت ، تعلو وتهبط في وهاد الفكر تتصفح خيال سعد وكيف ينبغي ان يكون ؟؟

ومن هو هذا الشاب الذي عقد لسان ابيها بالثناء عليه ؟ وما هي نفسيّته التي جعلت مدح ابيها وقفاً على تعداد مواهبها ؟

على ذلك سهرت الليالي مفكرة صامتةً تتلمس وجهاً من الرأي يُريها حقيقة ما تراه من وراء الأشباح التي سدت في وجهها كل طريقٍ يفضي بها الى المجموع .

إن ما لهج به أبوها من خلال سعد ، قد كان شغلها الشاغل في خلوتها وتفكيرها يكتنفه الخيال شبحاً يتلاءم مع رغباتها ، فتضمه اليها وتخلو به في وحدتها

أنيساً يطرد عنها الوحشة ، وعروس خيــالٍ تجلو عليه آمالها .

فهي ما سبحت في هذا البحران ، لا تستقرّ حتى ترى شخص (سعدها) ثم تعرضه على مـــا تتخيّل لترى ، هل تنزل حقيقته من نفسها مـــنزلة خياله ؟ فتعمد الى تمثيل روايتها التي مضى على تأليفها اعوام تتوقع خلالها تمثيل هذه الرواية على مسرح الغرام ؟

واخيراً ، وبعد تفكير عميق ذهبت فيه مذاهب شتى ، وقلبت فيه وجوه الرأي قررت في سبيـــل رؤيته هكذا :

أن تتمارض فجر يوم مـا ، فلا تصحب أبويها لزيارة قبر الإمام عليّ ، الذي يغشاه المؤمنون صباحَ مساء للزيارة ، أملاً بورود سعد للدرس ، ولما يزل ابواها في الحضرة ، وقد كان ذلك ، فإنها عمدت الى مكرها وتخلفت عن الزيارة ولم يولّ ابواها البـاب ظهريّاً ، حتى بادرت الى المرآة تتفقد جمالها ثم برزت

وقد اخذت زينتها ، كالقطاة تتهادى على النمارق من غرفتهـــا الى البهو الداخليّ فحجرة أبويها فالمكتب الخارجي المشرف على الديوان ...

فتحت مصراعي الباب ، ثم أطبقتهما خِلافاً لتقابل من شقهما الباب الأوّليّ فتتبيّن الداخل منه ، فإن كان اباها أسرعت مهرولةً الى الداخل ، وإن يكن سعداً فتلك بُغيتها .

وما هو إلا أن قرع الباب ، فقالت :

من هو ؟؟

فسمعت صوتاً ضعيف النبرة ، رخيم الغُنَّة يجيبها : أنا ، سعد ، فأجابته بصوتٍ مرتعش : باسم الله[1] ، فدخل سعد ، وهي تحدّق إليـه ، وهو مطرق ، لم يشعر بمـا احتالت له ، وجلس في صدر الثويّ [2] فقابلته من ثُقب المفتاح تعزز نظرتها الأولى ، حتى

(١) تستعمل عند العراقيين إيذاناً بالدخول .

(٢) النادي .

أدركت بين رقة جسمه ، وبريق عينيه ، وملاحة وجهه ، ورشاقة قوامه ، سرّ الجمال الروحي ، الماثل لها في معرِض الأشباح والصور الخيالية .

وهل تقع من نفسه إذا عرضت له موقعه من نفسها فتبادله الحب ؟ ذلك ما همت بتحققه إذ فتحت باب المكتب تتجاهل أنّ باب الديوان مفتوح وأن التلميذ في صدره وتراجعت فجأةً حين رأت سعداً قد حدجها ببصره ، وأغلقت دونه الباب فحجبها كما يحجب الغمام البدرَ ليلة تمامه ، بعد أن القت عليه نظرةً أهوت إلى أبعد قرارٍ من نفسه ، ترسم ما نمت عليه تلك النظرة في نفسها من معاني الحب ، وأعادت الكرة من ثقب الفَلَق تتبيَّن تأثير جمالها في نفسه ، فتحققت ذلك منه بين قلقٍ استولى عليه ، ونظراتٍ يتفقد بها الباب كلما احسّ بحركة من ورائه .

من هذا كله ، ومن اضطراب أفكاره بين يدي أستاذه تأكد لها شغل قلبه بها ، وأنه علق في شرك

الحب ، فذهبت تتحسس من وراء الباب ما يدور بين الأستاذ وتلميذه من حوار .

جلس الأستاذ للدرس ، وجثا التلميذ (بين يديه) وخاض الشيخ في البحث ، فلم يتبين في وجه سعد عينه الذكية ولا أذنه الواعية ، ولا لمس منه تلك الأفكار التي كانت تحدق بالدرس بحثاً وتنقيباً .

وعبثاً حاول في تنـــاول الموضوع من جميع أطرافه ، ليستجمع به أفكار تلميذه المبعثرة ، ووجد أخيراً أنه إنما يبحث مع شخص كالتمثال المنحوت من الحجر ، يدنو منه بجسمه ، وينأى عنه بروحه ، فأدرك الشيخ شيئاً من وساوسه ، ومرّ في خاطره بارق حدسٍ عرض له ، ومن ورائه ابنته ليلى تشرف على سعدٍ من مكتبه ، إذ عاد من الحضرة فلم يجد على ابنته أثر ما ادعته من وعكة الجسم ، ورأى باب مكتبه مفتوح المصراعين ، وقد أغلقا خلافاً فلم يتنبـــه آنئذٍ للأمر بدافع ثقته من كرائمه ، وأن ذلك يكون مسبباً عن

تنظيف المحل أو تخليل النسيم غرف الدار ، ولكنه بعد أن رأى من تلميذه ما لم يعهده فيه من شرود الفكر وذهول العقل ، كاد يعتقد بوقوع الكارثة ، كارثة الحب بين تلميذه وابنته ، لولا ما تنبّه له التلميذ من إدراك الأستاذ سرّ ما خامره ، فاندفع يعالج ما في نفس سيده بما طبع عليه من ملكة الإقناع ، حتى صرفه عن رأيه وحوّل اعتقاده إلى ظن محفوف بعوامل القلق النفسي .

كل منهما أدرك نفسية الآخر ، فالشيخ أدرك في بادىء الأمر قلق تلميذه ، وأن هذا القلق ناشىء عن هوىً نفسيّ جديد وأن مبعث هذا الهوى نظرات قد تبادلها تلميذه وابنته بشهادة تمارضها فجر ذلك اليوم ، واختلاف مصراعي الباب مقابل الديوان ، ووضع كرسي وراءه .

وأدرك سعد ما داخل استاذه من الريب ، وأن إشعاره بما ساوره هو من الفكر ربما وصل بسيده إلى

رميه بالتهم في الجرأة على حرمة البيت والتعرض لعفاف مقاصيره، فبادر إلى تحويله عن هذا الظن بما أوتيه من منطق وبيان .

ثم أدرك الشيخ ثانياً أن تلميذه قد أدرك ما يختلج له صدره وان تنصّله ضِمناً مما اتُّهم به مبنيٌّ على اجتناب ما يلحقه من وصم الظنون الجائرة فرفق بـه لذكائه ، وحدة بصره وأشفق عليه ممـــا توسوس له النفس ، فجاراه على ما ادّعى ، ومضى في تحوير الدرس من العلم إلى الأخلاق فكان جلّ كلامه يرمي إلى تهذيب النفس ، وضرورة تقييدها بالعقل ، وأن جهـاد الشباب الأوليّ هو مناط صلاحها ، والبصير لا يكون قريباً من الحياة التي ينشدها ما لم يزن الأمور ببصيرته فيحجم عن الدخول فيها حتى يتبين منفذاً يخرج منه .

والأديب آدب ما تنجبه الفضيلة على كتابه وبين رقه ودواته ، كليلَ الطرف أصمَّ السمع عمـــا يصم العرض ، ويهوي بالنفس إلى أسفل درك من العار .

بمثل ذلك كان يرمي الاستاذ (موريا) إلى زجر تلميذه عما يُشفق منه عليه من حب لا يجني منه غير الإخفاق ، لما وقفت عليه في صدر هذا الحديث المؤلم من عادة أثيمة .

فالشيخ من أسرة عريقة في المجد حريصة على أن لا تصاهر من ليس من شكلها ، وليس لسعد من شرف الأسرة ما يُثبت كفاءته لأن يقترن بليلى ، على أن في عشيرتها من يؤهله علمه وأدبه لخطبتها ، ويقف سداً منيعاً في وجه من يمني نفسه بها ، لذلك كان سعد كلما فكر في حبها فوصل إلى ما يعقبه من ألم أشعر باليأس يضغط نفسه فيتحوّل الأفق الزاهر في عينيه ظلمةً لا يتبين من ورائها ، حتى السراج الذي يتّقد بين يديه .

خرج التلميذ ، وفي نفس استاذه من الظنون ما ليس في مقدوره القرار معه ، وجعل مناط صدق هذه الظنون ، عودَ تلميذه في غده مبكراً ، فإن العاشق لا يملك نفسه أن تخفّ به إلى مهبط إلهام الحب من

حيث لا يشعر .

وقد كان اهتمام الشيخ في تحقيق ظنه ، بما يتلمسه من وجه ليلى طيلة يومه ، خليقاً بإيقافه على ما أكنّته تلك الفتاة البائسة ، لو لم تكن هي أحذر من أن تتناول نظرات أبيها ما استقرّ في نفسها ، والمرأةُ على ما فيها من رقة ، هي في معرض الخوف أقوى من الرجل على الجلد في الحب .

يشتدُّ الحرّ في العراق أيام الصيف ، فيصل بأهله إلى حدّ يُلزمهم السراديب في بطن الأرض ، من الغزالة حتى الأصيل ، ثم تلفظهم إلى السطوح يتبردون ليلهم بالصبّا .

يقتسم مدينةَ الغري أربعة أحيـــاء : العمارة ، والحويش ، والبراق ، والمشراق ، وفي حيّ العمارة كان يقطن سعد ، يضمه وأُمّه العجوز منها بيت حقير أشبه بكوخ أسدل الفقر على جانبيه من البؤس ، ستـائر حالت بينه وبين النور ، يتعهده استاذه وبعض أصدقائه

بما يسدّ رمقه من العيش ، وهكذا قطع هذه الحياة بائساً ، حتى ليلة الاثنين من جمادى الأولى ، أيام الخريف ، والخريفُ أجمل فصول السنة عند أهل العراق . في تلك الليلة نشط الحب بالبائس من وهدة الشقاء في الحياة ، إلى ذروة الأمل بالخلود فيها .

والحب يا بنيّ ، قد يحسبه الجاهل شقاء في الحياة ، ولكنه هو ذلك الحلم اللذيذ الذي يفتش عنه الشاعر في زوايا نفسه ، ولعله هو الأفق الذي ينظم الكواكب على لوحه شعراً ، تتراءى نفسه ماثلةً بين سطوره ، أرقَّ من هذا النسيم الذي يتنشقه كلُّ حيٍّ ، ولا يحسُّ برقته إلا الشاعر .

تلك هي السعادة في الحياة يا بنيّ ، وإن تراءت للجاهل شقاء وبؤساً .

بات سعد على سطح ذلك الكوخ يتنسم صَبا الشرق ، ويحسب أن في طيّاته عرفَ ليلى ، لم ترقأ

عبرته ولم يسكن خفقان قلبـــه ، تتنازع هجوعه فكرتان : هذه تفتح أمامه باب الأمل إلى السعادة في الحياة ما أحب ، . . . .

فيعمد إلى روضه ، وأحلام العيش لما تزل فيه كالزهر في أكمامه ، فيختار منها ما يأخذ العينَ لونه ، ويسترق النفوس عطره ، حتى إذا امتلأت يداه من وروده وفله ، مرَّ به خيال ليلى ، فراح يضفر إكليلاً من زهره يُعدُّه ليوم زفافه ، وربما حاكَ من شعاع نفسه وشاحاً لحبيبته ، تتناثر منه كلما اتشحت به حبات لؤلؤ رصعته بها أجفانه .

وفكرةٌ تقف بـــه موقف الحكيم يستعرض الحوادث مليئةً بالعبر ، فتُحيل عليه أن يظفر بأحلامه حتى يحيل الكوخ قصراً ، والبواري[1] نمرقاً ، وهبه استطاع ذلك ، فمن له بأن يُحيل العبد سيّداً ، واللئيم كريماً ؟ ولعلّه إلى أن يُحيل السماء أرضاً ، أدنى منـه

(١) البواري حصُر من قصب .

إلى أن يعيد الباطل حقاً ، وهو على أن يعتقل الهلال قوساً ، أقدر منه على أن يحيل الخرافة حقيقة ، بين قوم لم يغن عن بصائرهم أنهم يرون بأعين البقر ويسمعون بآذان الفيلة ، مـا صغّر الحق في أعينهم أنه مضيّع ، وعظّم الباطل في نفوسهم أنه متّبع .

على ذلك فضّ الصبح ختام الليل ، وحلت يدُ الفجر إزاره عن هـذا الشبح الضئيل ، وهو يخاطب نفسـه :

مالي وللحب ؟ أشقى فيه وأشقي غيري ؟؟

أتراني أبقى إلى مثلك يا ليل ؟ وقـد أتيتَ أو كدت تأتي على نفس بلغ بهـا السهد والدمع حداً لم تُبصر معه الحياة إلا شبحاً ماثلاً بين الوهم والخيال .

ياليل !!!

ها قد رقّ فيك هذا الغريب الواله ممـا يجن من حب ليلى حتى شفّ عما وراءه .

أتراك ترقّ لي يا ليل ؟؟ فتشفّ عما وراءك من إصباح ؟

أتراك يا ليل سكبت على فمها خمر الحب ، فهامت في واديه تلتقط النجم بأجفانها ، ثم تفرغه في جيوبك دمعاً ، يمرُّ به النسيم ، فيحمل إلى الزهر رقة الشعور ، وعبير الحب ؟؟

أتراك تضمني وإياها يا ليل ؟؟

حبيبين تشكو لي وأشكو لها هوىً

سرى بيننـــا فيه النسيم رسولا

من أين لي أن تظلّني وإياها سماء واحدة ، ويضمّنا أفقٌ واحد ؟ وهي غنيةٌ وأنا فقير ، هي شريفة وأنا وضيع .

... ثم التفت ، وإذا بالغَزالة قد ذرّ قرنهـــا ، فانعكست أشعتها على قبة الإمام الذهبية ، فظهر لها بريق وهّاج يخطف الأبصار ، فهبَّ من مضجعه وشدَّ مئزره ، ثم تناول كتبه يستعدُّ للدرس ، وقد حال أمله

برؤية ليلى دون تفقد الوقت ، وأعجله الذهول عن تبين ما في وجهه من أثر للحب ، يبدو جلياً بين فتور عينيه وشحوب وجهه ، على أن في عدم مطالعته للدرس وخروجه قبل الوقت ، دليلاً كافياً على ما جال في نفس أستاذه من الظن أن يتحوَّل إلى يقين ، فلم تطأ قدمه حيَّ البراق حيث منزل حبيبته ، حتى شعر بخفقانٍ شديد بين جنبيه ، يكاد يقعد به عن السير ، إذ رأى أمامه ثلاث فتياتٍ تقودهنَّ عجوزٌ شمطاء ، قد أدنت عليهن من الجلابيب تعلوها أعبئةٌ فضفاضة ، لم تدع للعين مجالاً ، تتبين فيه ما تحتها ، ورأى أُخراهن تكثر التلفت إليه ، فأحسَّ بذلك الخفوق ، وكاد قلبه يهلع أن سمع إحدى الفتيات تناديها ــ وقد قصَّر بها الخطو لما تكثر من التلفُّت ــ : هلمّي يا ليلى !

فأسرعت وكأن شيئاً سقط منها ، فأهوت إليه ، ثم استوت ، وقد توارى عنها أهلها خلف الزقاق ، ولما أشرفت على آخره التفتت إليه تودعه وهي حاسرة :

فلم يملك نفسه أن وقع مغشياً عليه ، فتداركه بعض المارة ، ولما أفاق تابع خطوه حتى وقف على باب أستاذه فسمع من داخله ضجة وصياحاً فأقبل يتحسس وإذا بالشيخ يوبخ ليلى ويتوعدها إن هي عادت إلى مثل ما فرط منها وكان قد علم أمرها من كبرى أخواتها إذ نمّت عليها بما أكثرت من تلفتها إلى سعد في الطريق ، فرجع التلميذ أدراجه منحط العزيمة خائر القوى ، ومرّ في طريقه لا يلوي على شيء يتمثل ، أنّى التفت ، شبح الموت نصب عينيه ، حتى إذا وصل منزله وأدار عينيه في زوايا البيت فلم يجد العجوز ، همّ بالفراش ليضطجع فخانه جلده ولم يقوَ على مدّه فنادى امه ، وكانت منزويةً في ناحية الدار تشاطر نارجيلتها همَّ الوحدة ، فأسرعت إليه وقد ألقى بنفسه على البارية[1] كاسف الوجه فلطمت وجهها وهمت بالصياح فطمأنها وسكن ثائرتها على أنه رجاها أن تمهد له فراش الاستراحة

(١) البارية عند أهل العراق : الحصير المنسوج من القصب وفي اللغة هي بورية وبورياء .

ففعلت وجلست إلى جانبه تقلب كفيـــه وتشمهما ثم تسكب عليهما من دموع الحنان ما غص له العليل بعبرته وأدار بوجهه عنها لئلا يفجعها بنفسه .

لم يجز حرّ الظهيرة حتى صعدت الحمى إلى دماغه فخولط في عقله واختل نظام الحركة فيه وشـــاع في المدينة خبره ، فهرع إليه أصدقاؤه والمعجبون بذكائه وكثر الممرضون حوله من ذوي العطف والرحمة لِما شاع من أنه غريب بائس ، ولم يخفَ على إخوانه ما يلهج به في مرضه واختلاطه من ذكر ليلى فقد أدركوا من حديث أمه لهم عن سهره وقضض مضجعه في ليلته البارحة ودرسه على أبي ليلى ؛ أدركوا من مجموع ذلك تعلقه بالفتاة ، فائتمروا في شأنه وقرّ رأيهم على زيارة الشيخ لعلهم يرجعون إلى المريض بما يعيد عليه رشده ويضمن له حياته .

وعبثاً حاولوا إذ بسطوا حديثه بين يدي الأستاذ الورع لِما أقنعهم من أن الفتاة مخطوبة لابن عمها وأن

حياته وحياة المتحابين مهددة بالخطر من شباب العشيرة فيما إذا أتى ما فيه خرق لعوائدهم بتزويج ليلى من أجنبي عنهم ، فعادوا وقد ملك الأسف عليهم أمرهم ويئسوا من حياة فتاهم ، وعلمت أمه بإخفاقهم فانهدّت قواهـا ووقعت إلى جانبه قعيدة همّ وخوف . وكأن الحمى طارت من رأس سعد وأدرك ما دار بين القوم فاشتد به المرض مما يئس ، وكان جلُّ همه أن يعلم مقدار ما تشعر به ليلى تجاهه ، فاستدعى إحدى صوالح الحي على لسان أحد أصدقائه المخلصين ورجاها أن توصل رسالته إلى ليلى بكل تحفظ وتلطف له في الجواب العاجل وفي الرسالة هذان البيتان :

أحاول من ليلى على القرب نظرة
ويحجبها عني من الدمع حاجب
ولو فتشت ليلى دموعي لراعها
من الحب أن القلب في الدمع ذائب

فحملتها العجوز وطرقت باب الشيخ وهو في مصلاه

خارج الدار فرأت الفتيات وامهن يشتغلنَ في إنجاز طعام العشاء ووراءهن ليلى ، قد اعتزلتهنّ إلى جانب من الدار ، ولزمت الصمت والتفكير ، فلما رأتها ليلى دلها قلبها أنها تحمل ريح من تحب ، فقابلتها بالتحية ، وبادرت إلى المكر ، فقالت :

لم أزل منذ أسبوع أنتظرك يا خالة ، لتأخذي الخمار فتُسنّمي لي حواشيه ، وأشارت لها من طرف خفيّ ؛ فلحقتها إلى غرفتها ، وأمها لم تعلم من أمرها شيئاً ، ولما حلت بها أمسكتها من يدها ، وقالت لها : أصدقيني الخبر ، ولا تُخفي عني شيئاً من أمر ذلك المسكين . ناولتها الرسالة ، فأخذتها بيدٍ ترتعش من الذعر ، ولما وقع نظرها على الشعر ، وقعت الرسالة من يدها ، وتغير لونها ، وأدركت الخطر ، وكانت قد علمت ما دار بين أبيها وبين الخاطبين بالأمس ، فأيقنت بالفاجعة ، وقعد بها العجز عن الوقوف ، فأخذت الرسالة ثانية ، وفضّتها فما أتت على آخر البيتين ، حتى

اتصـــل بهما سلك من الدمع ، تداخلت به حروف كلمهما ، ثم ألقى بها الضعف والذهول على الوسادة دون أن تشعر ، فاختطفت العجوز الرسالة من يدهـــا وخرجت خائفة تترقب ، فكان جواب الرسالة ما أحدثه الدمع فيها من المحو .

ازداد الخبر شيوعياً في المدينة فلم يبق بيت إلا وقد دخله الحزن على شباب الراحل ، واشتدت وطأة الحمى على المريض فلم يأت عليه اليوم الثـــالث إلا وخلفَ الأجداث من هو أرجى حياةً منه .

اضطربت المدينة بأهلها ، وأقفلت أبواب التجارة ووقف سير التعليم ، وازدحمت وفود العواد ببـــاب المريض وكثر اللغط حول الحـادث ، واجتمع أكابر أهل العلم فألفوا وفداً من كرامهم يأتون الشيخ فيلتمسون منه بطريق الإلزام الشرعي أن يرخص ابنتـه بزيارة المريض المشرف على التلف إبقاء على ما فيه من رمق ، ورفقاً بأمه الجنازة المسجا إلى جانبه ، فأجابهم الشيخ

بعد جدالٍ عنيفٍ دار بينهم ، وأمرَ كريمتـه بالتأهب لزيارته ، فامتثلت أمره وادّرعت ثوبها ، ثم مشت لتعثر بأذيالها ولتوقع الخطب الفادح ، وكأنها لما تهدّم من قواها ترسف في القيود أو تنزع قدميها من الحمأ[1] ، وتقدمتها البشائر إلى المريض وأهله ولما قاربت المنزل ساد الحشدَ الحافين بالمسجّى سكونٌ كادت تتلاشى معه الأنفاس منهم ، وما هي إلا أن أقبلت من الباب تخترق الجموع ، وتقدمت أم سعد من وحيدها وهو غارق في بُحران سبات عميق من الحمى فنادته :

ولدي ! ياسعدي ! ويا قمري الكاسف ! انتبه من سكرتك ، هذه أملك ليلى جاءت تزورك ، فلما سمع بذكر ليلى ارتعش بدنه وفتح عينيه فإذا هي مكبّة عليه ودموعها تتحدر على وجهه فلم يزد بعد رؤيتها على أن زفر زفرةً فاضت وراءها نفسه وهو يقول :

---

(١) الطين الأسود اللازب .

ولما رأتني في السياق تعطفت

عليّ وعندي من تعطفها شغل

أتت وحياض الموت بيني وبينها

وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

ثم أغمض عينيه والشمس تجنح للمغيب كاسفة النور ، فلم يلبس الأفق ثوبَ الحداد عليها إلا وقد تحوّل الجمع المحتشد إلى مأتم تعالى صياحه ، فلم تسمع سواد تلك الليلة إلا صوت نائحةٍ أو نائح .

لم تفض نفس سعد حتى أكبّت أمه عليه فلم تُفصل عنه إلا وهي جثة هامدة، وابتدرت إحدى النساء إلى ليلى، وقد غشيَ عليها ، فانتبذت بها ناحيةً من الدار ورفهت عنها فأفاقت وقد حفت بها أخواتها ، فأخذت كبراهن بعضدها وخرجن بها ، فلم تولّ الباب ظهرها حتى وقعت جنازةً بين أيديهن وأشرقت شمس الصباح على مدينة الغري وهي قطعة من سواد الحداد قد تحولت إلى مأتم لم تشهد العراق مثـله مأتماً في الحب ، يشيع ثلاث

ولا أدري كيف أحول بينها وبين من لم يصلني به جديَ الأدنى ؟ ولو شئتُ لعصرتُ من شمائله أرقَّ من الخمر ، ولقطفتُ من أخلاقه أنضرَ من الزهر إلى علمٍ وافرٍ وأدبٍ زاهرٍ ؟؟؟

وليس ما يُظفر بها ذلك الوحشَ ، ويحجب عنها هذا الوديع إلاَّ قرب الجد وبعده .

أولسنا كلنا فروعاً تتصل بجذرٍ واحدٍ تمدّه بالغذاء أرومة واحدة يا أمل ؟؟؟

أوَليس في الجنس الذي يضمنا بجامع الانسانية ما يقوم مقام العشيرة نسباً ومحتداً ؟؟

إن ذلك لمن مهازل الحيّ في الحياة يا أمل !!

تتصل نفس الشاعر في الحياة بنفس الشاعرة فيها ، ويتبادلان هوى الروح الخالص من أوضار الحياة .

تضمّ جوانحها عليه أحظى ما تُجن ، ويُطبق عليها أجفانه أعزَّ من سواد عينيه .

فليس للقدر إذ ذاك ، على ما فيه من قوة جبارة ، أن يحلّ عقدةً ما بينهما ، والحب الصادق يحكم شدها ، فالروحان روح واحدة ، والقلبان قلب واحـــد لن يتقضب حبلهما ، حتى يتحوّل البياض سواداً ، أو يحول الحب بغضاً .

ثم يعمد هذ الانسان العاتي إلى ذلـــك السرب فيروّعه ، وإلى تلك الشعـــلة فيخمد جذوتها ، وإلى هذه الروح الوادعة فيمعن في إرهاقهـــا ظلماً وتعذيباً ، كأنه هو الذي أخلص سبكها في قالب الحياة الحرّة ، أو كأنه هو الذي خلع عليها ما في الحياة من جمالٍ يفيض على العيون نوراً وعلى المباسم سحراً .

. . . ما أظلم الانسان ! وأقسى قلبه يا أمل !!!

★★★

لم يدع وسيم فرصة تمكنه من زيارة أمل والتحدث

إليها بما يطبع قلبها بطابع البداوة وينزع منه كل ميل إلى سواه ليمحو ما تخطه الحضارة في صحيفة خاطرها من بهرج المدنية وزخرفها الكاذب .

ولم تدع أمل في نفسها فراغاً إلا وقد حشدته أملاً بالحياة تتبين من ورائه مستقبلاً تزر فيه جيوبها على البدر ، وتتنقل بين الكواكب عروساً يحلم بها الفجر فيخضب الشفق عليها بدموعه .

وربما مرّ في خاطرها خيال ناظم فتحس من نفسها بجرح بعيد الغور ورسيسٍ جدٍّ عميق يكاد يأتي عليه ما يتجدد من آمالها في طريق الحب ، ثم يُعقب ذلك فجأةً ذكر ما شب عليه من الخلاعة والتهتك فحوّله من حملٍ وديع كانت في صغرها تأوي منه إلى نفس وادعة وخلق يتدفق حياء وكرماً ، إلى خاتلٍ أفّاكٍ لا يحفظ ذمةً ولا يرعى حرمة فتبدو عليها إذ ذاك أمـارات الحنق والتشفّي ، ثم تلتفت إلى ما غرسته يد العفاف في صدرها من شجر مثقَل الفروع بثمر الحياة الطيب ،

فيفضض فمها ابتسامٌ يفيض منها على وجه طافح بالأمل السامي في الحياة .

بمثل تلك الخواطر كانت تعوم وترسب أمل في بحار الفكر وتتنقل أحياناً بما ينفحها به وسيم من نكاته كلما دنا منها منحدرين من نعمان الاراك إلى السراة حيث القطيف قطيف الغمر .

ولتهامة أيام الربيع منظر خلاب لما يتخلل صخورها ويكلل هضابها من الزهر أكثره شقيق النعمان ، وكلما تنفس فم الصبح في وجه أمل بعث في نفسها من الحنين فوق ما تبعثه فيها تلك المناظر من عميق الأثر .

حنينٌ رجع بها إلى عهد النيربين وظلال أشجاره المشتبكة على ضفاف بردى وفي غياض جيرون فتدحرجت من عينيها دمعة وقعت على يدها فانذعرت لها وكأنها انتبهت من ذهولها فالتفتت إلى وسيم وإذا

هو يقرأ أفكارها من حيث لا تشعر به ، فابتسمت له واعتذرت عن استسلامها للفكر وإعراضها عنه ، ولم يكن ليُخفي دمعها عليه ما مرّ في خاطرها من نجيّ نفسيّ ، وشعر بما يتنـــازع حنينها من هوى يقتسمه الحبيب والوطن .

ولما أشرفت بهم القافلة على حيّ أبي وسيم ، وقد تقدَّمتهم البشائر ، طلعت عليهم الخيـــل ، تستقبلهم بالأعلام السود حداداً على خالد ، والنساء ينشدنَ المراثي من وراء الخيل ، وكأن الحيّ كلـه قطعةٌ من ظلام الليل لِما خلّفه خـــالد بينهم من الذكر الطيب المقرون بجميل الثناء ، فهاج ذلك أشجان أمل ، وأجهشت باكيةً ، فأحدق بها وبجاريتها فريدة طائفة منهم وأخذت بركاب الأمير طائفة أخرى ، حتى إذا جـــازت بهم الخيل مضارب الحي إلى طرافٍ من الأديم ، تخفق عليه أعلام العز ، وتحفُّ به أجمةٌ من شجر المران نزل القوم ، وتقدم وسيم من أمل فأنزلها بين مقاصيره ريثما

تضرب قبتها ، وباتت تلك الليلة وبعض اليوم التالي تستريح من عناء السفر .

انتبهت في صحوة اليوم الثاني ، فكان جلّ همها أن ترى مسكن أبيها من قبل ، فوعدها وسيم بإيقافها عليه ، وأنه على مسافة ميلين إلى الشرق ، وقد غادره الحيّ منذ وصل نعيّ خاله ، لمكان الألم من نفوس العشيرة وراءه ، ثم أمر رجاله أن يختاروا أجمل ناحية من مسيل الريان تضرب به القبة الحمراء ، فلم تبرح الشمس دارة الحمل ، إلا والقبة تلوح على ضفة نهير صغير ، يسميه التهاميون نهر الريان ، وإليـــه ينسب الوادي والمسيل اللذين يشتملان عليه ، فيقال وادي الريان ومسيل الريان ، وقد ملأ السفوح وتدلّى على جانبي النهر شجر المرخ والأراك ، تحسبه وقد تناوحت الرياح فيه ، بحراً يموج به الوادي ، والجدول في قلبه كأنما هو فُلك ماخر ، هناك فاض حنان أمل على الوادي ، حتى كان منه الزهر الذي يتكلل به الشجر ،

واللحن الذي يترنم به الطير ، فيردد أنغامـــه النهر المنساب .

والمفتون بالطبيعة كالفصيل حيلَ بينه وبين أمه ؛ فكلما عنَّ له مرأى يشعره بها بغم وحنّ وهكذا ابن الطبيعة يحنُّ إلى أمه كلما هاجه ما يدنيه منها ، والطبيعة كالأُمّ الرؤوم تتفقد أبناءها فتحنو على الضعيف منهم . والساذج بطبعه ، القريب منها بروحه ، ولا أقرب من الشاعر بروحه إلى أمه الطبيعة ، ولا أرقّ طبعاً منه ، فهو كالطفل ، وهل أقرب إلى حقيقة ما في الكون من نفس الطفل التي حال بينها وبين ظلمة الحياة بُعدها عن كل ما يشير إلى غير الحقيقة .

كذلك الشاعر في الحياة ، يحنُّ إلى أمه الطبيعة ، فترؤمه في الروض ، وعلى الشاطىء ، وبين الدغال ، وتحت ستار الليل ، يُقبل الفجر ، ويهيم مع النسيم ، ويساجل الطير ، ويحنو على الزهر .

جلس وسيم إلى جنب أمل ، وقد اشتدّ بياض

القمر في أجمل أفقٍ يطلُّ منه على أجمل بقعةٍ ، يتمثل فيها أجمل روايةٍ للحب .

فقالت له :

ما أحب الشعر إليَّ ياوسيم ! وأحب إلى نفسي منه أن أقرأه على محياك وأنت تمليه عليَّ ، فهل لك أن تجعل حديثنا الليلة مقصوراً على الشعر ؟

فقال : والحب يا أمل ؟؟

أفلا تريدين أن يكون لشعرنا في هذه الليلة الخالدة نصيب منه ؟؟

ولعل الحب هو الغرض الأسمى من الشعر في الحياة ؟

فلم ترفع رأسها حياءً منه .

والتفت إلى يمينه فقطف زهرة نيلوفر ثم قدمها إليها وقال : هذه بيت من الشعر يا أمل ، يسرني أن أهديها اليك ، ويسركِ أن تضعيها بين نهديك ، ولكن

يسوؤها أن تفصل عن أمها فتجف وتذوي بين يديك ، ويسوء الواديَ أن لا تكلل بعد اليوم غديره فتخلع نشرها على هوائه ولونها على سمائه .

وإذا غنّاكِ الشاعر بأنشودة خالدة فإنما يتفحك بزهرة جناها من روض حياته فسره أن يتحفك بها كما سرك أن تتقبّليها منه ، ولعلها قطعة من كبده وحشاشة من نفسه .

إذا رأيت الشاعر يا أمل يصعد الرابية ، والقمر يهبط من عُليائه ، فيفترش التراب ويتوسدّ الصخر يصغي إلى نجيّ الكواكب فيستوحي منها الشعر ، ثم يُلهمه الطبيعة حتى إذا تنفس صبحه وهبط إلى الأودية فهام فيها عائماً في بحر ضبابها ينشد هذا الجمال — وقفت به آلهة الشعر بين الرياض ، والفجر لما تخمد أنفاسه ، فأحنى على الورد يلثمه ، وعلى النرجس يمسح دمعه ، يضع خده تحت الزهرة ويده فوق كبد يكاد يعصرها دمعاً يتحدر على وجناته . . .

إذا رأيته كذلك يا أمل فارحميه فإنه شاعر صامت لم يخلد بشعره لكن بروحه الشاعرة .

وهكذا هو في وكره يندب فرخه وعلى فننه يحن إلى إلفه ، وفي ضمير الليل ينشد حبيبه ، وتحت عناء الأسر يبكي على وطنه ، هذا هو الشاعر يا أمل يشيع أحلامه في المشيب ويودع ربيع حيـــاته على ساحل البؤس ، فارحميه فإنه شاعر صامت لم يشعر بلسانه ، لكن بقلبه المتفجر عيوناً تفيض بالدمع على خديه .

والشاعر مسكين يا أمل ! يمسك الماء ويقبض على الريح سعياً وراء الجمال في الحيـــاة (وهو هائمٌ به) ولعله الروح التي تخفق بين جنبيه والشعر الذي يحوم على شفتيه .

يهيم في وهاد الفكر . . . يناجي زهر آماله بفم يخلع على الشفق لون شفتيه اللتين تستمدان رونقها من قلب جنَّحه الحب فحلَّق في سماء النور .

الشاعر هو روح أمته يا أمل يتأثر بما يعرضها في الحياة فهو إذا نشطت من عقـال هونها ومشت إلى استقلالها تحت ظلال الأسنة ـ بلبلها الغرّيد يحلّق في سماء عزها فيستوحي آلهة الشعر ثم يهوي إلى علَمها الخفاق فيعقد قلبه عليه بنداً ويخلع شعره عليـه وشياً . . .

وإذا رأى أمته وقد مدت يد الظلم الجائرة فوقها رواق الاستعباد ، تعاني تحته ذل الأسر فتأكل الاغلال من أعناقها أضعاف ما تأكله القيود والأصفـاد من سوقها وسواعدها . . . هبَّ إذ ذاك من كمينه يقود الكلم جنداً ويتطاير الشعر من فمه شرراً في المحافل وعلى أعواد المنابر .

يرسل الجنـد كلاماً وإذا نفخ العزم به شب ضراما
فهو إن غنى به هز القنا وإذا ناح به أبكى الحساما

يتنقل بين الأحياء والأمصار فلا يبرح قطراً إلا وقد ترك علَم أمته فيه يخفق على أرض حشدهـا إباء

الضيم أسوداً كلما حركتها الحمية ثارت بها عزائم تندك من تحتها شم الجبال .

تتمشى إلى العز بقلوب يربّيها الشباب الغض على الحفاظ المر والباس الحديد وتطير بآنافها الشم نخوة تشمخ بها عن أن تكين للذل أو تستسلم للهوان .

فمن الحطة في الشعر يا أمل أن تحيط بالشاعر أمةٌ ضغطها الظلم فكادت تُسمع بأنينها الموتى ويتفطر لها قلب الجماد ثم لا يحترق دماغه وتفيض عواطفه شعوراً بآلام أمته . . . يعالج شعبنا العربي اليوم أشد آلام الحياة يا أمل !

وتكاد تهتزُّ لصرخاته أسلاك الفلك الدوّار ، بينا الشاعرون من أبنائه الذين همُ المسؤولون عن معالجة دائه ، آخذون في مناجاة الأزهار ومساجلة الطيور ، عبيد الإطراء الكاذب والتملق الممقوت :

(من لنا بالشاعر الحر الذي
يلشد الحقَّ لنا غير مُبال)

(لا يرى غير هوى أوطانه
باعثاً في شعره روح الكمال)
(ويرى أقصى الأماني عيشه
وهو حرٌّ بين نفيٍ واعتقال)
(وإذا الظلمة غشّت أفقنـــا
بعث الشعر سليطاً للذبال)

الشاعر هو عنوان عصره يا أمل ، ولعصره عليه حق تمثيله على مسرح الفضيلة في الأجيال المقبلة .

فإذا ركبت في عصري بنت النار أو الكهرباء ، تتخلل بي أفخمَ القصور الشاهقة وأجملَ الحدائق الغنّاء ، وأنا أشعر بوصف الناقة أو الفرس تجتاز بي كثيب الدهناء ، أو سباسب ما بين النهرين فقد نظمت الشعر ولكن بشعور من تقدّمني فكنت في معزل عن الشعر الذي أمثّل به لمن يليني محيطاً ساغ لي ماؤه وأظلّتني سماؤه ، في عصرٍ كنت وليـــد حضارته وربيب معاهده .

قوام الشعر يا أمل ، عاطفةٌ تبذرها الغريزة وينميها المحيط ، فليس للمحيط أن يخلق هـذه العاطفة خلقاً ، ولا للغريزة وحدها أن تنتجها ، ولكنها معاً مناط كونها ونتاجها ، فالعوامل التي ينشأ شاعر الغريزة تحت تأثيرها هي التي تكوّن منه شاعر المجتمع ، أما أن يكون خالداً في شعره ، فذلك ما ليس في مقدور هذه العوامل ما لم تكن وليدة عصره ، قد يتأثر الشاعر ، كما مرّ ، بعامل خارجي يتولد معه من دوس حياة لم يخلق لها ، فيلهمَ هذا التأثر شعراً قد كان حرياً بالخلود لو صحّ كونه عنواناً على عصر تكوّن هو منه ، وهذه البذرة التي تخلق مع الشاعر ، يعبر عنها بالسليقة تارة وبالقريحة أخرى ، أما الشعور فهوَ ملكة راسخة في كل نفس ، فليس منّا من لم يشعر بما يتأثر به ، ولكن إبراز هذا الشعور في شكل يستهوي النفوس الشاعرة ، ويحمل إلى الأجيال المقبلة صورةً تمثل الشعور بالحياة تمثيلاً حقاً ، فليس هو إلا آية من آيات الفن الخالد ،

يحتاج معه الشاعر ليكون فناناً إلى درس عميق في الحياة ، ونظر سام في اكتناهها مع كونه مثقف اللسان ذكيّ القلب .

وبعدُ النظر في الشاعر إنما ينشأ عن شدة تأثُّره بالعوامل الطبيعيّة ، واستسلامه لعواطفه استسلاماً يستحيل معه شعوراً بالحياة .

أما إذا وقف العقل أو غيره من العوامل حاجزاً دون هذا الاستسلام ، فلا يمكن للشاعر أن يكون خالداً بروحه الشاعرة وربما خلد بحكمته .

ومثالاً على ذلك يا أمل ، شاعر الحب ، فليس له أن يخلد بشعره ما لم يلفظه قطعاً من كبده ، ولن يستطيع أن يلفظه كذلك ما لم تملك عليه عاطفة الحب ، وتضمحلّ كل عاطفة دونها ، من أجل ذلك نرى الهوى العذري أحفل بالشعر الخالد من غيره .

وهكذا عاطفة الحماسة والحنان والشهوة ونحوها .

فالشاعريّة إذن داخلة في قِوام الفن وليست الفن كله .

والشاعر يكون صامتاً كما يكون ناطقاً ، ولكنه لا يكون فناناً في الشعر حتى يبرز شعوره في قالب يتمثل فيه الجمال فناً .

. . . . فكر الشاعر لا يقبل الضغط يا أمل فليكون شاعراً بروحه يجب أن يكون كالطير لا يحاو نغمه ، ولا يعذب ترجيعه إلا متنقلاً على الدوح من فنن إلى فنن بين الماء والظلّ .

لكن هنالك واجباً يلزمه في تنمية العاطفة الشاعرة إزاء ما خلق له ، لكي ينفح أمته بشعرٍ تتغنى بــه ، وتبعثه إلى الأجيال المقبلة مثلاً صالحاً تخلد به في ظل شاعرها الحي .

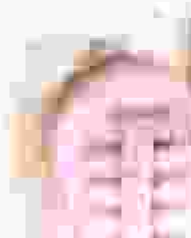
وليس قصره الشعر على الشهوات بمخرجــه عن كونه شاعراً في ظل أمتـــه المهضومة مثلاً إذا كانت

عوامل هذا الشعر الشهوالي وليدة عصره ككثير من شعرائنا اليوم ، فهو خالد من هذه الوجهة ، ولكنه إذا شعر بما هو أسمى في الحياة كان أبعد ذكراً وأسمى خلوداً ، فالواجب إنما يتوجه على الشاعر في توجيه أفكاره إلى ما لو تأثر به لكان أبقى أثراً وأخلد ذكراً في الحياة ، حتى إذا نمت عاطفته الشاعرة فيه كان حراً في تجواله ، لكنه يحتاج مع هذا التوجه إلى عقل يقفه على الواجب في حياته ويهديه إلى مظاهر التجدد والابتكار فالشاعرية شيء والتجدد شيء آخر .

إذن فالعقل محتاج إليه في تنمية العاطفة الشاعرة .

والحب يا أمل ؟

قد نراه وليد هذا الشعر أو لعل هذا الشعر وليد ما نحب ، فليس للعين يا أمل أن تنظر إلى الآلام النفسية إلا من وراء الحب ... وليس للنفس أن تلمس الحياة إلا من وراء الشعور ، وما أبعدها عن الشعر ، وهي في معزل عن الحب ، وليس لها أن



تتذوق حلاوة لذته في مرارة الألم ما لم تتأثر بما يحدثه ، بل ليس لها أن تتأثر بما يحدثه هذا الحب ما لم تشعر به من وراء شعورها بالجمال .

الحب يا أمل هو الحياة !

ينزل من النفوس الشاعرة منزلة الربيع من النبات ، يغرسه الجمال ويغذيه الأمل ، فينمو في الصدور زهراً ، من نور الحياة لونه ، ومن العبقرية عطره ، يُنضر الروح بروحه وإن أذاب الجسم بوقده ، فهو كالسموم تُذوي الزهر وتنشر عطره ، أو كالنار تحرق العود وتُذكي عرفه .

أما البلوغ في الشهوات فإنه وإن أنضر الجسم ، يذوي الروح ويخمل شعورها السامي بأسرار الحياة فلا صمت ولا تفكير ، وحامل الحب يا أمل : كحامل باقة من الزهر المطلول ينفح بها الحبيب ، فتمطره وابلاً من الدمع يرصع به تاج ملكه الخالد في القلوب ، أو يصبّه رقةً على عينيه تبعث الحنين في نفس المحب ،

فيعلّمه كيف يُفيض الشعر على الزهر شعـــاعاً وعلى الطير نشيداً وعلى الغدير تصفيقاً وعلى الغصون طرباً .

الحب يا أمل هو ما تسكن منه النفس إلى مـــا تستشعره بين قلب يخفق ، وعبرة تحرق ، من لذة تفتح أمامها باباً إلى الأمل بالحياة فتهوّن عليها ما يعترضها من الآلام في طريقها إلى الخلود .

أرأيت يا أمل ؟ هذا الذي يرشح من جبين البدر إما تعرضين له فيخجل ويحتمّ ، ثم يطلُّ بـــه الزهر فتتفتق أكمامه وتتوشح حواشيه ؟ هكذا يفيض الحب على القلوب الغلف فتتلقف إلهامه شعراً ترتله الملائكة في السماء فيهتز له مبدع الكون على عرشه ثم يوحيه إلى الطبيعة فتلهمه الطير على غصنه ، والبـــائس في كوخه ، والباكية وحيدها في ظلمات الليل .

فليس بكاء هذا الصامت في مخدعه ، ولا رنّة ذاك النـائح على فننه ، كلا ولا أنّة تلك المفجوعة بزهرة

آمالها ، إلا إلهام الطبيعة يوحيه إله الجمال على لسان الحب شعراً يفتق مسمع الدهر وتتغنى به الأجيال .

وهكذا شدو الفنان على وتره يا أمل ! ولحن المغرد بين ظله وثمره ، هو من هذا الإلهـــام الذي يسمونه شعراً .

وأن للروح الكلية يا أمل جامعاً هو الحب وما تخلّل هذه الأجسام من جزئياتها إنما يتصل بعضـــه بالبعض الآخر ما دام يربطها سلك من الحب .

ولا أقرب إلى فهم المحب مما يجول في نفس حبيبه إذا تبادلا هذا الحب فربما كان ما ألقيه في روعك من جمال الشعر النفسي إنما أتلقاه من عينيك الشاخصتين إليّ وأنا أفيضه على سمعك .

أو ربما كان ما يجول في عينيك من شعر إنما هو فيض نفسك التي تتأثر بما تفيض به نفسي من وراء تأثري بجمال الحب ، أوَ لا تشعرين بذلك يا أمل . . .

فأطرقت أمل عند ذلك وقد طفح وجهها حياء، على أن ما ضرج خديها، وفاض على جنباتهما من دم لم يخف على وسيم أن وراءه عاملاً طفح به وجهها بشراً قبل أن يطفح حياء.

«ذلك العامل هو الحب، أو ليس هو إلا الحب»

. . . ولعلك تقولين يا أمل!

ما لهذا الفتى البادي بروحه، الخشن في حياته، البعيد عن كل ما في الحضارة من جمال، يفيض عليَّ شعراً يسترق به شعوري ويتلو عليَّ جمال الحب في الحياة بلغةٍ:

كأن أبا عبادة شقّ فاها
وقبّل ثغرها الحسن بن هاني[1]

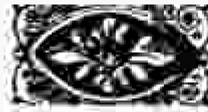
لعلك تقولين ذلك!

ليس على بنات الهواء والماء وأسلاك البرق بعيدٌ يا أمل..

---

(١) للشريف الرضي.

وما على من صحب أباكِ أعواماً يقبس من نوره أن لا يكون أقربَ إلى روح الحضارة، وهو في باديته، ممن يتلمسها بين جدران المدرسة وعلى مسارح التمثيل؟ هذه الصحف العالمية تأتينا في كل أسبوع مشحونة بأخبار العالم ولعل من يشرف على المدنيّة وهو بعيد عنها كالمشرف على الحضيض من رأس الجبل يتبينه بنظر أوسع من نظر الحابس فيه.



أمل

« في القبة الحمراء »

لا أدري ما هذه النفس التي مُنيت

بها .

يضمها الليل فتتأثر بجلاله وصمته وخشوع ما في سمائه ، من عيونٍ تخترق جوفه إلى النفوس اليائسة مثلها ، فترى أن جمال الكون قد أفرغ على جمال هذا الليل ، وما أحبَّ إليها ، إذ ذاك أن يكون مصداق قول القائل :

لخديك من كفيك في كل ليلةٍ

إلى مطلع الصبح الأغرّ وساد

تبيت تراعي الليل تبغي نفـاده

وليس لليل العـــاشقين نفاد[1]

ما أحب إليها أن تكون حياتها كلها ليلاً تخلد فيـه إلى السكينة ، وتقرأ سفر الطبيعة المكنون في قلب ذلك الصمت العميق .

فإذا دبَّ إليهـــا نسيم السحر في حشا الظلماء ، يحمل أغاريد الطير مؤذنة بالصبح . . تأثرت بما فيه من روعة وبهاء يتدفق منهما نور يملأ الفضاء ، فتغترف عيون الشعراء منه ما تفيض به نفوسهم شعوراً بجمال الحياة ، فكان لهـذه النفس مما تأثرت به ثانياً شغف بالنور ، وودت أن تكون إحـــدى تلك القبل التي يطبعها الصبح على وجنات الأفق .

أو أنها الوتر الذي يوقّع عليه الطير ألحـانه في ظلال الشفق . .

---

(١) لبشار بن برد .

هذه هي نفسي ، وهي على حيرتها ، مفتونة بالجمال

تنشده في ظلال الطبيعة حيث الشعر . . .

وهل الشعر إلاّ . . .

(ما تشعر به النفس تحت تأثير الجمال في الحياة)

فيسمو بها إلى عالم الخلود ؟؟

بالأمس كانت نفسي هذه وقفاً على جمـــال الشام وحضارتها ، إذ كانت ترى ناظماً فيها ، ولا تحسب أن في الكون جمـــالاً ألهمَ الطبيعة شعراً لم يكن هو بيتَ قصيده .

واليوم ترى الجمال كلَّ الجمـال ، وقفاً على البادية حيث الحب . . .

كيف لي بذلك الحُلُم أن يتحقق فيك يا وسيم ؟؟

أفأنتَ ذلك الخيال الذي كانَ يمرُّ بي وأنا سابحةٌ في بحران تأملي ؟؟؟

أفأنت ربيب خالد الذي كنت ألمح شبحـه من

خلال كلماته في رسائله إليّ ؟؟؟

أوَ كان اجتماعنا هذا هو السرُّ فيما أوصى به إليّ من لزوم زيارتي قبره ، والمبيت عنده اسبوعاً ؟؟؟

إنكَ لشاعر يا وسيم ، وإن الشعر لهوَ الجمال في الحياة .

ولقد يسمو بك في عيني أنك إنسان . بل مَلاك في صورة إنسان !!

وجهٌ وسيم !! رقَّ حتى لَيكاد يشف عن روح أتناولها حفنةً من الدمع أو باقةً من الزهر — إلى عقل جاز الشيخوخة على بساط شبابه الغضّ — في نفس ملأها العز بأشرف الخلال ، وقلبٍ جمع إلى الكرم شدة البأس .

هكذا يملأ الرجل نفس المرأة بطولةً ، فيملأ قلبها حباً . لا حاجةَ لي بعد أن أبيت على فراشٍ وثير ، أو أرفل في الدمقس على الديباج ، بين قوم لم

أجد في كل ما تلمّسته منهم ما يشير لي إلى الحياة التي أنشدها .

وإن قبضة التراب أستفّها عن سغبٍ في ظلال حياتي التي أبكي عليها ، لَأسوغ لي من أنواع الأطعمة في ظلال القصور الوارفة حيث أجدني عزلاء مما أخلد إليه في وحدتي وآنس به لدى وحشتي من الحياة .

وسيم !!!

يا شبح آمالي التي حلمت به وبلما ينهد ثديي !

من لي بأن تسمع خفقان قلبي ، ويتصل بك ما يبعثه الحنين في زوايا نفسي ؟؟؟

ليومٍ وليلةٍ بعثت إليَّ من الشغف ما يأتي على حب كان وليد عقدٍ كامل من ربيع حياتي الغضة[1] ، وليس ذلك من عجبٍ يا وسيم !

فإن الحب إنما يطغيه في نفس المحب حتى يكون

---

(١) تشير إلى حبها ناظماً .

غراماً ، دوام ما تتأثر به في الحبيب من خلال غرست بذور ذلك الحب في حقلها حتى وشجت عروقه ونما ، فإذا عرض تلك الخلال ما يضمحلّ معه تأثيرها كان هذا العارض كريح السموم تلفح زهر الحب فلا يلبث أن يصبح هشيماً تذروه ريح البغضاء .

ولا أجد لقول القائل :

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى

مـا الحب إلا للحبيب الاوّلِ[1]

صدقاً في الخارج إذا لم يوجّه إلى الحب الثابت في النفس بتأثير الجمال الحيّ وهو ما لم يعرضه في الحبيب من نفس الحبيب تأثيره في نفس المحب .

الآن علمت أن السعادة لا تشترى بالمال ولا بالمجد ولا بشرف المحتد فرب غنيّ يتقلب من ماله على فراش أقضّ مضجعه فيه الحرص والشره ، وعزيز بسلطانه أو نسبه يساوره من همّ الملك وعبء السيادة ما يمثّل

(١) لأبي تمام .

لك معه احمرار وجه المسلول تحسبه صحة وهو طريد حمّى تنفض وتئيه .

ولكن السعادة ما تشعر به النفس بين يدي الحب من لذة في ألم وسرور في حزن .

سعادة النفس أن تجثو أمام هيكل الحب فيسمو بها الإيمان إلى السكينة في ظل الحياة الأبدي .

وإذا غاب عنها من تحب لبثت تتوقع قدومه بين شوق وحنين تفيض وراءهما دمعاً يسقي روض الحب فينبته الجمال بين رقة وخشوع .

هذه هي السعادة ، ولا أراني ، وقد ملك هذا المخلوق عليَّ شعوري ، إلا واثقة بأن ما جنته يد أبي من شقاء في الحياة قد غرسه الحق في صدر وسيم حكمة تثمر لي وله تحت سماء البادية ، وفي ظلال الأودية ، وعلى ضفاف الغدير ، سعادة يغبطنا عليها ورثة كسرى وقيصر في فردوسهم حيث العز والسلطان .

* * *

أقام وسيماً تلك الليلة واقعده أرقٌ أقلق وساده وحال دون جفنيه أن يلتقيا لكرى أو تهويم ، فترك مضجعه وخرج يتصفح سفر الطبيعة وأول نظرة بعثها كانت رسوله إلى القبة الحمراء حيث أمل... فراعه ، وقد مرَّ الهزيع الأول من الليل ، سراجها المنير ، وخيالها جالسة إلى جانبه فهمَّ باستطلاع أمرها ولكنه خشي إزعاجها فتردد ثم عزم على تحسس خبرها من حيث لا تشعر ، فجاءها من وراء الخباء وأنصت لها فوعى من حديثها المجمجم ما أقره على حدسه السابق الذي أشعره بميلها إليه من نظراتها التي كانت تمليها عليه وهو يتكلم معربة عن شعورها .

ولا أدلَّ على إحساس المرأة من نظراتها في وجه محدّثها ، فقد يدرك منها ــ وهو الشاعر ــ ما يجول في نفسها حتى لَيكاد يسمع نغم كلمه الذي يوقّعه على أوتار قلبها ويحس بقلبه نور ما يصبه في نفسها من تأثيره ، يتماوج بين أجفانها ثم ينحدر إلى شفتيها .

في صباح اليوم التالي أوقظت أمل جاريتها فريدة وأمرتها بالاستعداد لزيارة المنعطف مقرّ أبيهـا أيام هجرته ، وإنها لعلى أهبة ذلك إذ غشيها وسيم ومعه بعض مواليه يحملون الزاد ويقودون رَكوبها فأركبها ومشى إلى جنبها يعرّفها الأماكن من تهامة فيشير لها إلى الأودية والهضاب ويفاكهها بفم لا تفارق الإبتسامة شفتيه ، تعلوه مسحة من رقة البداوة .

ولما فصلا من حرّة السّراة بدت لها هضبة مشرفة على ما حولها من الربى والوهاد ، تلوح على ذروتها وفي سفحها أطلال شاخصة فسألت وسيماً عنها فجمجم في كلامه وتشاغل عن جوابهـا بخطاب بعض الموالي فعلمت أنه المكان المنشود مهبط أبيها من قبل فصعّدت نفساً عميقاً ثم شخصت إليها ، وقد أطلت الشمس من ورائها فحالت دون امتداد النظر إليها . . .

أمر وسيم مواليه أن يتقدموه فيمهدوا مكاناً للجلوس في سفح الهضبة وعلى قمتها ، وأن يفرشوا الغرفة

العليا من القصر في قلب الواد .

وعلت بعد ذلك أمل رأس الجبل ثم انحدرت إلى السفح فالحضيض ، وفي مواقفها الثلاثة كانت جدّ كثيبة تكافح من الهمّ الذي ساورها والغم القابض على نفسها ما كادت تفقد معه شعورها ويأتي عليها باليأس لولا أن في جانبها بقية أمل تسكن إليه وتعول عليه ، ذلك هو حبيبها وسيم . . .

تشرف من تلك القنة على تهامة اليمن ، فتكاد تتنوّر صنعاءها جنوباً ، ويقابلك البحر الأحمر من الغرب رهواً ، ويطلُّ عليك الحجاز من الشرق بسلسلة جباله الممتدَّة من الشمال إلى الجنوب تحجز نجداً عن تهامة فتتلقى نسيم الصبا النجدي بليلاً لما يمرّ به من جنائن الطائف الغنَّاء ، وتطلُّ بك الهضبة على نعمان الأراك وما يليه من سهول الحجاز حتى ديار طيّ ، ثم تنحدر من الهضبة إلى جزع كثير الشجر والمياه الراكدة أيام الربيع وبعض الصيف ، يتحلب أيّام

الشتاء من الهضاب والسفوح ويفيض على المنعطف فيستقرّ هنالك بين الأشجار غُدُراً تأخذ العين بجمالها لما يُسفّ عليها من أسراب الطير ، ويحيط بها من أنواع الزهر ما يفتن الشاعر بابتسامه وسحر عيونه .

وقد بُنِيَ إلى جانب الغدير قصرٌ عليه آثار الجلالة إلا أنَّ القِدم حطَّ من جماله .

كل ذلك كان باعثاً في نفس أمل ما يلثمها ترب المنعطف ويُلصق خديها بصخره تتنسّم ريح أبيها بين صروده وفي ظلال دوحه ، ثم تلتفت إلى وسيم وهو يشاطرها ألم الذكرى فتستوقف نظره على ما في الجزع من مناظر تكاد تلمس روح أبيها خفّاقةً على جنباتها وتسترعي سمعه لما يأتيه الطير من سجعٍ تكاد تسمع حنين أبيها إلى الشام من ورائه ، ثم تطرق إلى الأرض فتجهش باكيةً .

ولوسيم أسلوبٌ خاص في تخفيف آلامها وتعزيتها ، فقد كان يستطيع تحويل يأسها إلى أمل يانع ببضع

جلي يصبّها في قالب بيانه الساحر ومنطقه الخلاّب .

وهكذا قعد بها الحزن فجلس وسيم إلى جانبها يستردّ رشدها بما طبع عليه من اسلوبٍ عذب ، وبيان ساحر ، ولكن . . . هل لتهامة ، بما فيها من جمـال الطبيعة العاري عن جمال الحضارة ، أن تسترقّ أملاً ، على ما يشينها في نظر الحضري من خشونـةٍ في العيش وبعدٍ عن نعيم الحضارة ، فتسلو لها دمشق وما أطاف بها وخيّم عليها من جمال الطبيعة الكاسي بما في المدينة من جمالها الحديث ؟؟؟

تلك ما كان يتلمّس وسيم تحققه في وجه أمـــل ويتهيّب مكاشفتهـــا به من طريق القول ، على أنها أدركت ، وهو يحاول ذلك منها ، مـا يجول في نفسه بطريق القلب كليم الحب كليم الله . . .

فقالت : يا وسيم !!

ليس لي في الشام بعد اليوم حاجة أتبلّغ بها سائغاً من العيش ، وقد فارقت فيها أحبابي فخلا أفقها من

الشمس التي تشرق عليّ وحدي ، وأقفرت أرضها من كل ما أمدّ إليه بصري وتنازعني إليه نفسي ، وإن هذه الأرض البعيدة عن ضوضاء المدنية ، صافيةَ السماء من كل ما يتلبّد في جوها من غمام يحجب النور ..

إن لي فيهـــا لَوَطناً تفيض سماؤه نوراً تنبته الأرض زهراً يضوع حباً وتجنيه يدي أملا .

لقد ضاق بالكتمان ذرعي ياوسيم ، وأنا أعلم أنك لستَ بأقلّ مني عناء ونصباً في مقاساة ما أعاني ، ولقد بلغتَ بي بما تصوغ وترسم من جمال الشعر ، إلى أبعد أفق ينأى بي عن هذا العالم الفاني عالم المادة ، ويدنو بي إلى عالم الروح حيث الخلود ، أفلا نتشافه بما يخفق له قلبانا وتتناجى به أعيننا ؟؟

فابتسم لها وسيم ، وهمّ يضمّها إليه ، لولا أن العفّة ملكت عليه نفسه ، فقال :

لا أدري يا أمل ! غير أن النفس كالمرآة تعكس

كل ما يمرّ بها من كشف هذه الأشباح والصور ، لكن خيالاً سرعان ما يزول بزوال حقيقته .

أما النفس الشاعرة في الحياة ، فلن يصل إلى جوهرها خيالٌ يبعثه الوهم ، ولكنها الحقيقة تشفّ عن الروح المهيمن على الكون بجماله وجلاله .

فليس للحب ، وهو الحقيقة الأولى في الحياة يا أمل ، أن يطبع على مرآة هذه النفس الشاعرة صورة من صوره ، ثم يستطيع محوها ويبقى لها رسم في العالم .

قد يهيم في الحب ويعشق من حسب الحب طريقاً يفضي به إلى ملاذ الحياة الفانية ، ثم يزول هذا الحب بزوال أثره ، فليس لهذا الجاهل حدٌّ في الحب يا أمل ، فقد يحبُّ في يومه حباً يحول في غده كرهاً .

ولكن الشاعر في الحياة ، يُحبّ ويعلم أن الحب هو الحياة ، وأنه هو السعادة الأبدية التي تصل إليها النفس الخالصة السبك عن طريق الوحي والإلهام

الروحي المقدّس .

يحب وهو يعلم أن في الحب شقاء الجسم واضمحلاله فلا يعدل به عن الاستمرار فيه حفظ البدن ما علم أنه سائر في طريق فنائه إلى الملكوت الأعلى مصدر الحب الخالد .

يحب الجمال في الحياة ، وربما فتنه جزئي منه في شحوب المساء أو ضحِك الفجر في الروض أو على الشاطىء ،

(بين النهود وعلى الشفاه والوجنات)

... قد يجلس إلى ظل سرحة أو إلى جنب صخرة على رابية يراقب نزاع الشمس بين يدي المغيب فتحسّين أن شعوره يغيب معها في ظلمات الحزن .

كما قد يحنو على الزهرة في حر الظهيرة يقيها لفح الهاجرة بنفسه فكما ألوى بها الذبول شاطرها جفاف الرونق وشحوب اللون وربما لصقت بالأرض فغسلها

بدمعه، ووراها في حنايا ضلوعه .

وهكذا قد يسمو به الحب إلى وجه أمله في الحياة فيهيم مع الوحش شوقاً إلى زهره ووجداً على ثمره لا ليذويه أو يجنيه ، لكن ليرف عليه بروحه ويقيه عوارض الحياة بنفسه .

فليس لهذا النوع من الحب أن يزول ، ولا لصاحبه أن يموت وهو حقيقة فيه ، أتموت الحقائق يا أمل ؟

وهل هذا هو الحب؟ أم الشعر ؟ أم هما معاً ؟!

فعطفت عليه وهمت بعناقه ففتح لها ذراعيه وضمها إليه ، وكأن جمرةً وقعت على شفتيها إذ لامست شفتيه ، فانتفضت على أشدّ ما يكون من الذعر وقد ضرج الخجل وجنتيها ، فانتبه لذلك وسيم وقال لها : لا بأس عليكِ يا أمل .

— إنها رسول السلام إلى القلبين ، والصلة بين الروحين .

ـ إنها العقدة التي تربط الوفاء بالحب .

ـ إنها ملتقى السلكين يحترق بهما اليأس فتشرق سماء النفس بنور الرجاء .

ـ إنها الشعلة التي تُلهب الشفتين فتزيد نار الشوق التهابا .

ـ إنها نسمة السحر يتبين الواله من ورائها محيا الأفق يبسم عن صبح الأمل .

ـ إنها نفحة الشوق يتفتح بها زهر الحب عن الأمل في الحياة .

ـ إنها انفعال الروح بما يجيش في الصدر من عوامل الشوق .

ـ إنها وليدة ما يبعثه الحنين في النفوس الشاعرة من لواعج الحب .

ـ إنها المرحلة الأولى للعقل التائه في مجاهل الغرام ...

وبعدُ، فهي الوسيلة إلى استيلاء الحب على سلطان القلوب، ثم استوائه على عرش مُلكها الخالد .

ــ إنها السر الكامن في النفوس المتألمــة يدفعها الشوق ويمسكها الحياء .

ــ إنها القبلة يا أمل !!!...

فأهوت إليه ثانية بِفعل الشارب الثمل ثم قالت :

إني لأحس بين شفتيكَ كلمة الحب وأعلم أن العفاف دون ذلك ؟؟؟

ففي ذمة الحب يا وسيم : أنفاس تتلاشى بين يدي الشوق، ودموع تتهالك على صرح الآمال .

قد أخلُص من درس حيــاتك إلى جوهر نفسٍ فيك تصقله دموع الحب وتتكسر عليه أشعة شمسه، فتنعكس في مرآة نفسي خيالاً يجثو القدر لديه وتفيض الحياة من جانبيه .

أوَ أكون مخطئة في ذلك يا وسيم ؟؟

لا أدري !!!

ولعلي أجني بذلك على من فُتن بشمائلك فتنني بها ، وهو أقرب حياةً إليك وألصق نسباً بك .

فأخذ وسيم برأسها ، ثم أهوى إليـــه فقبّله ، وقال لها :

قد يكون للبيئة والعشيرة أثرهما في تكوين المرء خلقاً وخُلقاً ، أو لعلَّ هذا الأثر كائنٌ حتماً يا أمل .

على أني لا أجهل عليكِ أن للروح الوثّابة وطناً وقوماً هما دون ما يضمه ويحدق به من مكانٍ وسكان .

فقد يحيط بالشاعر الحيّ كيان تظله سماؤه ويحدق به أهله ، وهو يجول من خياله في سماء غير هذه السماء ، ويتعرَّف وجوهاً غير هـذه الوجوه ، فيكون بعيداً بروحه عن سماءٍ لم تشرق بها شمسه ، وقوم لم يكونوا منه ولا كان منهم منذُ الأزل ، وهو نسمة في عـــالم الروح . . . إلى محيطٍ ينشر جناحيه على أفقه ، ويمدّ

شباكه بين نجومه .

إن بضعة أعوام ينسلخ فيهـــا المرء عن محيطه بروحه يثقفه فيها من ليس من قومه ثم يعزز ذلك بما تحمله إليه الصحف العالمية ـــ والصحف عـــالم مستقل بذاته يا أمل ـــ لحَريّة تلك الأعوام بما يحفها أن تكوّن المرء ثانياً وتخلقه وهو في محيطه مرة أُخرى .

لم أزل يا أمل أتلمس روحك في الآفاق وفي ضمير الليل على محيا البدر تحت جبين الفجر ، وبين الزهر أمام وجه الشمس .

فهات يدك أُعاهدك ـــ وحرمة الحب بيننا ـــ على أن تكوني شريكتي في الحياة !!

هكذا تعاهدا على الحب وأن يعيشا في ذلك المنعطف بعيدين عن الحضارة وفسادها ، وقد وطنت هي نفسها أن تعيش في ذلـــك الوادي غنيةً بمناظره وبكوخ يبنيه لها وسيم في سفح الرابية فوق القصر ،

محفوفاً بالشجر يغرسانه بأيديهما ليكون ذكرى لمن بعدهما .

وبذلك الغدير المستطيل الشكل يحيط به شجر النخل والاراك والمرخ .

وبما تنبت الأرض من بقل وبُرّ وما تجود به الماشية من سمن ولبن .

غنيةً بكل ذلك عن نعيم الحياة في الشام مشوباً بالحضارة وما يحف بها من فساد .

على أنه لا مندوحة لها من العود إلى دمشق لبيع أملاكها وقطع العلائق منها وقد بسطت ذلك لوسيم فأجابها إليه .

ثم عمد هو ومواليه ومعهم أمل إلى اختيار أجمل بقعة في سفح الرابية مطلة على المنعطف وما وراءه من هضاب وأودية وأشار لمواليه بتمهيد المكان وإعداده لبناء قبة من المرمر ، وحدد لهم مكان الأساس وانحدر

مع أمل إلى الجزع وراء الغدير ، فاختـــارا مكاناً يختلفان إليه فيما بعد ، وأصلحه بنفسه وظل ينقل من فسيل النخل والسرو وشجر الكرم إلى المكان ويغرسانه ذكرى اجتماعهما وبلوغ كل منهما الحياة التي كان يحلم بها من قبل .

وفي الأسبوع التـــالي شيّع أملاً ووصيفتها إلى جُدَّة وهنالك باتا آخر ليلة كانت مزدهرة بالآمـال في الحياة ، وإن تخللها شيء من ألم الفراق القصير الأمد ، ودموع هي إلى السرور بما يرجوان أقرب منهـا إلى الخوف بما يتوقعان .

وأقامت الباخرة من مرفأ جُدَّة ، والأُفق لمـــا ينفض عنه صباغ الفجر الأول ، ووسيم على الشاطىء يودع أملاً بدموعه وهي تشير إليه بالمنديل حيناً وبيدها حيناً آخر .

ولم ينتصف نهار ذلك اليوم حتى كان وسيم على جواده ، يغوص بين الآكام مفكراً فيما يعـده الليالي

البيض التي يستقبلها ، وكانت أمل تفكر في حياتها الجديدة وجمالها في ظل الطنب حيناً ، وعلى البعير حيناً آخر ، قريرة العين ، سعيدة في جنب من فارقته وليس على وجه الأرض أحب إليها منه ، ثم أخذت كرسياً وصعدت به إلى ظهر الباخرة وهي تجري بها في موج كالجبال ، جلست عليها تتشوف إلى أعلام الحجاز ، حتى امتلأت عيناها بالدمع ، فأخذت منديلها ومسحت خديها ، ثم كرت لحظها إلى الشاطىء ، فإذا هو في مثل الضباب .



ناظم

«على فراش الألم»

بيروت !!....

يا أفق الجمال المشرق بالآمال ، يا مسرح الغيد الأوانس ، ومرتع الظباء العين !!!

أفلستِ أنتِ من لبنان الحبيب بمنزلة السوار من المعصم ، والعقد من الجيد والثغر من المحيا ، والشام هي الشامة فيه ؟؟

مالي ؟؟؟

أرى ليلك ولا فجرَه ، وأفقكِ ولا بدرَه ، ووجهك ولا ثغرَه ، وروضك ولا زهرَه ؟؟؟

الدوح فيكِ ولا بناته ، والروض ولا مهاته ، والغدير ولا قطاته ، والمسرح ولا فتاته ؟؟؟

قد أظلم في عيني منكِ ما كان مشرقاً ، وضاق بي كل ما كنتُ أراه رحباً ، وجفاني فيك من كان واصلاً ، وازورَّ عني ، كل حبيب كان قريباً مني ... حتى جوزافين ...

أوَ كذلك أنت يا دمشق ؟؟؟

يا مهدَ الصغر ، ومهبط وحي الطفولة !!!

يا مغرس أملي في الحياة !!!

أوَ أنتِ كذلك اليوم ، ظلمةٌ وشقـــاء ، وضيق وجفاء ؟؟

ولكن لا .. إن فيكِ ، أمل !!!

عفواً يا .....

.... أملي !!!

هكذا يسرع الأفول إلى البـدر ، والذبول إلى

الزهر يا أمل !!

على فراشٍ يُنيب الخاطئ فيه ، وتتمخض عليه الآثام .

قد كان يا ابنةَ العم من هذا البائس المسكين ، ما يزيّنه له الجهل الفاضح ، وتغريه به النفس الأمّارة بالسوء ، ويحدوه إليه نزق الشباب الغاوي ، وليس للعقل مهما رَصُن يا أمل وجنود الشيطان تحفُّ به ، أن يعصم النفس مما يغويها في الحياة .

فاقتراف الإثم كان ولم يزل ولن يزال سُنـــة في الخلق ، وفتنةً فينا يشيب عليها صغيرنا ويهرم كبيرنا .

وهكذا كان ما قُدّر لابن عمك من شقاء جناه بما قدَّمت يداه ، فلا ترجعي به إلى حياة تزيدك حنقاً فتزيده ألماً .

تعالي إليه يا أمل بذلك القلب الدامع وتلك النفس الوادعة تعاليْ إلى ابن عمك ناظم ، إلى ثمرك اليانع على غصنه الناضر ، فقد ألوى به الذبول ، وأحدق برونقه

الجفاف ، وآذنت شمسه بالأُفول .

أمل !!!

لك أن تلومي وتغضبي ، ولكن ليس لك أن تأخذي بالذنب مَن يعترف به ويتوب إلى ربه .

ها أنا ذا أعود إليــــكِ يا أمل ، وبين يديَّ من ذكرى الطفولة شافع أتذرّع به إليكِ .

أوَ ليس في القربى مـــا يدفع بكِ إلى التجاوز ، ويحملكِ على العطف يا أمل ؟؟ فاذكري الرحِمَ يا ابنة العم ، واذكري حياةً عقدت تمائمها علينـــــا في ظلال النيربين وعلى ضفاف بردى نحمل طعامنا إلى الحدائق الغنَّاء ، فنشرب في كأسٍ واحــــدة ، ونطعمَ من إناء واحد ، ثم نعبث بالزهر ، تؤلّـفين لي باقةً من نرجسه ، وأنظم لكِ قلادةً من أقاحيه ، وشدَّ ما كنَّـــا نتقلَّب على بساط الربيع ، تحت شجر الصفصاف إلى جانب النهر ، أنفحك بالزهر فتنضحين عليَّ الماء ، وهكذا

تفتقت أكمامنا وعقد زهرنا فحال ثمراً ، ونحن فرعان على جذر واحد ، في حديقة واحدة ، يسقيهما ماء واحد ، وتشرف عليهما شمس واحدة .

أوَ ليس لهذه الذِكَر نزوع في نفسكِ إلى هذا الغريب المسجّى على فراش الموت يا أمل ؟؟؟

آه عليك يا

ناظم

أرسل الكتاب ولبث ينتظر أملاً تحمله من النزل إلى الشام فتمرّضه وترفّه عنه بحنانها ، فاستلمت الكتاب خادمة البيت التي خلفتها أمل تقوم على مصالحها فوضعته على المكتب ومرّ على ذلك أسبوع ثم تلاه آخر ، وناظم يقاسي من آلام مرضه ما أصبح معه كالخلال في وجهٍ كالغُثاء ويدين كالقصب قد تعلقت بهما أصابع كورق الخريف يكاد يتساقط لضعف مناطه .

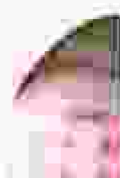
فلما يئس من جوابها وأبت نفسه تعزيز الكتاب ،

استسلم للموت وحمله بعض المحسنين إلى أحد المستشفيات فقضى فيه شهراً وبضعة أيّام يتنقل فيها من ألـم إلى آلم ، حتى نفض كفه يأساً من حياته ، والتفت إلى ما وراءه فذكر أملاً وقسوتها ولكنه عاد فكتب إليها على يد إحدى الممرضات آخر كتاب جاء فيه :

يا أمل ...

هبيـني قابلت إحسانك بالإساءة ، ووصلك بالقطيعة ، وحنوك بالجفاء والغلظة ، فكنت إذ ذاك منك مكان الجاحد من المنعم ، والولد العاق من الأب البار ، أوَ ليس من العواطف ما هو فوق العقل يا أمل ؟ وعاطفة الحب هي أسمى هذه العواطف الشاعرة ، ماثلة بين الرقة والحنو ؟

عهدتك وأنا ذلك العاتي المزهوّ بما فيّ من غضارة ناقماً عليك ومستخفاً بكِ ، عهدتك تنظرين إليّ بعين ملؤها العطف ، يمدها به قلبٌ ملؤه الحنان ، أوَ أن أصبحتُ مستسلماً لك ، مستجيراً بك ، ضارعاً إليكِ



يا أمل ! جفت من قلبك دموع الرحمة ، وغاض في عينيك ماء الحنان ؟؟

ما عهدتك ودموع الألم شافع أقدمه بين يديّ إليكِ ، إلاّ مصغيةً من وراء الليل الهادي ، إلى أنين ابن عمك ناظم في حجرة لم تدع يد الشقاء ألماً في حضيرة الإنسانية إلا وقد حشدته بين جدرانها أفاعي تنهشه ، وحُمى[1] يتململ تحتها على حسك الآلام .

أشرفي يا أمل من قمة جبل قاسيون ، الذي آوانا برهة من الزمان كنّا فيها كنخلَتيْ حلوان ، أشرفي منه على حضيض الهون تجدي ابن عمك شبحاً ضئيلاً ينظر إلى الحياة من خلال ما أحدق به من الرزايا ، نظر الغريق إلى الساحل وقد حال دونه طغيان اليمّ . . تتبينه خيالاً يتوقع الساعة التي يسكن فيها إلى حفرته .

تتبينيه يا أمل بين آثامه وآلامه حرَضاً .

---

(١) الحمى جمع حمة وهي سلاح العقرب والدبور ونحوهما .

(عيناه عالقتان في نفق
كسراج كوخ نصف متقد[1])
(ويمج أحياناً دماً ، فعلى
منديله قطعٌ من الكبد)
(قطعٌ تآبينٌ مفجّعة
مكتوبة بدم بغير يد)
(قطعٌ تقول له تموت غداً
وإذا ترقّ تقول بعد غد)
ناظم

استسلم إلى اليأس ثم أدار عينيه فيما حوله فحانت منه التفاتة إلى المرآة فرأى خياله على غير ما يعهد ، وتبين الموت يلوح على اسرّة وجهه فتأوّه وبكى :

يا جسداً قد ذاب حتى امّحى
إلا قليلاً عالقاً بالشقا[2]
ساعدك الله على هول ما
سوف تلاقي من قليل البقا

(١) لشاعر الرقة والجمال بشارة الخوري .
(٢) للمرحوم ولي الدين يكن .

خرج البريد من بيروت إلى دمشق وفيه كتاب ناظم وقد أرست الباخرة التي تقل أمل على ميناء الثغر .

لم تشأ أن تغادر بيروت قبل أن تسترد ما ذهب من جمالها خلال اسبوع قاست فيه من آلام الوحشة وعناء السجن في البحر ما أسدل على رونقها رداء من الشحوب صفيق النسج فأرسلت فريدة إلى الشام تأتيها بما يعوزها من ثياب وأمتعة ولتتفقد المنزل والوصيفة فتخبرها عما حدث بعدها ولبثت تنتظرها في الفندق العربي .

أحست وهي صاعدة إلى النزل بنزوع نفس رجع بها إلى ما قبل أشهر ، أيامَ زارت بيروت متنكرة ولم يدر في خلدها أن في الفندق أثراً لناظم ولكنها مرت بالغرفة التي كان يسكنها فسألت الخادم عنها إن كانت شاغرة فأجاب إنها شاغرة ولكن الطبيب حجر ايجارها على صاحب الفندق . فأحست أمل بوخز بين جنبيها

واستمرت تسأل عن السبب فقال ذلك على أثر شاب كان فيها أصيب بمرض السل فنقل إلى المستشفى .

ـ وإلى أي مستشفى ؟

ـ لا أدري يا سيدتي .

فارسلته يتحسس لها عن اسم الشاب ومكان تمريضه فعاد بالاول دون الثاني وباتت تلك الليلة على اقضّ من مضجع السليم ، وفي مساء اليوم التـــالي ، وهي جالسة على الطنف تتشوف إلى ازدحام المارة في طريقهم إلى ساحة الشهداء ، رأت فريدة عائدة من الشام وهي مسرعة فأوجست في نفسها خيفـــة حتى إذا دخلت عليها أخرجت كتابين ففضتها وإذا بها تقرأ فيهما من آلام ناظم ما أعاد إليها ذلك الحنين وهاجها الحنوّ إلى استطلاع أمره فنهضت مسرعـــة لا تلوي على شيء وأمرت فريدة باستحضار سيارة تقلها إلى المستشفى فامتثلت أمرها وبعد عشر دقائق كانت أمل في باب المستشفى تسأل عنه فأخبرت أنه في النزاع وأن

الطبيب منع أي أحد من أن يدخل عليه فلم تلتفت واستمرت صاعدة حتى وقفت عليه وهو يجود بنفسه فأكبت تلثمه وتناديه بالاسماء التي كانت تناديه بها أيام الطفولة — وللطفولة أسماء — ولكن فاتها أنه يعالج آخر رمق في الحياة فلم تقم من مجلسها حتى فاضت نفسه فاحتملتها فريدة مغشياً عليها ولم تفق إلا وهي على فراشها في النزل وبقيت أياماً تختلف إلى قبره بالزهور ولبست السواد حداداً عليه وكلما جفت عبرتها وضعت كتبه أمامها ومضت تستمطر أجفانها حتى إذا أمضها ألم الذكرى ركنت إلى ذكر وسيم فهوّن عليها ما عظم في نفسها من المصاب . .

غادرت بيروت في اليوم السابع إلى دمشق ولزمت بيتها بضعة أسابيع لا تفارق مكتبها حزينة صامتة كثيرة التفكير فيما يزعجها من الاخفاق كلما فتح الأمل في وجهها باباً إلى المجوع .

على أن ما وثقت به من حب وسيم ووفائه قد

كان يحول دون يأسها من الحياة كلما استعرضت ماضيها تتصفح فيه أيامها السوداء وأنهـــا كلما أرثت حزنها بالصبر والأمل بعث الهم في نفسها حزناً يجدده فقد حبيب أو قريب . . . ولم يكن ليزيح عن صدرها هذا الغم قصور يبنيها الأمل في أحلامها ، لولا انها أصبحت وفي يدها كتاب وسيم تقرأ فيه ما يأتي :

حياتي أمل !!

القبة قامت على السفح تتطلّع إليك مشرفة على الغدير وما يحف به من الأشجار وبنيت المقاعد أمامها في ظلال السرو وحفت بها حياض الزهر ودهن باطنها باللون الفستقي الذي يستهوي نفسك وفرشت بالنمارق تعلوها الارائك على أحدث طراز صُنع في مصر وها هو النسيم يتخلل نوافذها والشمس تطبع على شرفاتها قُبل الشوق مسلمة ، وتشاطرها دموع الفراق مودعة ، ولم يبق إلا أن يعقد الجمال على مليكه فيها تاج الظفر مرصعاً بدموع الحب ، أوَ ليس كذلك يا أمل ؟

ثلاث يا أمل ... ليس في الحياة دونهن جمال ، عزلة تنجو بالمرء من فساد المجتمع ، ورخاء يكفيه مؤنة الكدح في العيش ، وزوجة يسكن إليها من طغيان النفس الثائرة .

وليس لهذه الأخيرة أن تقوم على إصلاح نفسه ما لم تُشفع بجمال الطبيعة وجمال الفن . . .

لون ورونق وشكل . وحب وشعر وموسيقى .

جميلة عزلتي هذه بين الماء والظل في أجمل قصر يشرف على ما حوله من مناظر .

والعيش الرخي مليئاً بالسعادة أجمل :

وأجمل من كل ذلك أن تشرق في سمائه شمس آمالي .

. . . أمل :

أستطيع أن أمرَّ بالشجر الذي وارانا ظله واشتملت علينا فروعه وبالغدير الذي كنا نرده

ونشرب من مائه وبالصخر الذي كنا نستريح إليه ونتكىء عليه يا أمل ، ولكني لا أستطيع أن أملك عبرتي عنده أن تفيض ، ولا حنيني إليك أن يعفّر وجهي بتربه ، ويلصق خدي بأديمه ، وليس للنفس قرار بعد فراقها من تحب حتى تقف على آثاره فتحن إليه حنين الفصيل إلى أمه لدى معطن فارقها فيه .

في ضمير هذا الليل الحـــافل بأسرار الحب أسمع نجيك يا أمل !

ومن وراء هذا الأفق الذي أرصد كواكبه ، أرى بسمات ثغرك تترقرق في جنباتـــه ، وعلى صفحة البدر الحائر في كبد السماء أرى جمالك يفيض جلالاً عليه ويحيط هالة به ...

يا أملي :

قد رأيت النساء وتصفحت وجوه كثير منهن وما أكثر الجمال في البادية يا أمل ، ولكنه جمال الطبيعة ليس للفن فيه يد تعزف ولا فم يترنم .

رأيت هـــذه الظواهر من الأشكال والألوان والتي يسمونها جمالاً ، رأيتها في الجماد أكثر منها في الحيوان ، وفي الحيوان أكثر منها في الانسان ...

وأما الجمال الذي تفيض به النفس من وراء الحب فيستوحيه الشاعر من العيون والمباسم ثم يُخلده شعراً فذلك ما لم أتبينه إلا في عينيك الشاخصتين إليّ وأنا التقط من فمك الضحوك بسماتٍ أنظمها شعراً .

أوَ ليس هو الجمال يا آمل ؟

ولعل هذا السر لا يدركه في ذيه إلا هذه الفئة التي يهيمن عليها الخلود في حظيرة الشعر .

ولعل هذه الفئة من الناس قليلة جداً في هــذا المجموع البشري الذي يحسب الجمال عيوناً كعيون البقر وشفاهاً كزهر الدّفلى في وجه كوجه التمثــال المجصص ولو أن وراء ذلك روحاً تنحط به عما في الجمادات من حمرة وبياض .

ولعل في الجماد يا أمل شكلاً ولوناً هما أقرب إلى النفس الشاعرة من هذا الشكل وذلك اللـون إذ ليس فيهما من السماجة والصلف ما تزرح الروح تحت عبئه الثقيل بغيضاً إليها كل شكل ولون في الحياة .

. . . ثقي يا أمل بأن هذا النوع من الجمال لا تتحلى به النفس ولا يمكنها أن تتحـــلى به إلا عن طريق الألم في طريقها إلى الحب الفياض بالشعور في الحياة فليس للنفس (وهي في معزل عنـه) أن تشعر بالجمال فتكون آية من آياته يُلهمنا إياهـــا الحب في معرض الآلام .

أرأيتِ النار تُصهر بها المعادن فتميزها من الخَبَث يا أمل ؟

كذلك النفس يصهرهـا الالم فيميز جوهرها من الجهل في الحياة الذي هو منها بمنزلة الخبث من ذلك المعدن .

تعالي إليَّ يا أمل :

إلى البادية حيث الجوُّ الهادىء والسماء الصافية والهواء الطلق والنسيم العليل :

تعالي إلى الدعة في العيش والنّعمة في البال .

إلى النعيم الخالد يا أمل !

إلى الحب ...

إلى الحياة :

تعالي إلى وادٍ خلي وجدول

ورنّةِ عصفور وأيكة بان[1]

« وسيم »

فرغت من تلاوة الرسالة وهي تبتسم ولعل ابتسامها كان إلى الهزء بالحياة أقرب منه إلى الحفاوة بها ، شاهدُ ذلك ما أجابت به وسيماً حيث تقول :

لا أدري كيف أقول يا وسيم ...

غير اني أرى الدنيا مظلمة في عيني وكلما تنفس في وجهي صبح الأمل أغارت عليه أرزاؤها فحولت

(١) لأمير الشعراء شوقي .

فجره إلى ظلمة لم أتبين وراءها ما يستقبلني ، أنعيم الحياة أم شقاؤها ؟

أحبك يا وسيم ولست أخشى مغبّــة هذه الكلمة الحبيبة إليّ فإني لم أقل ذلك إلا عن رويّة ولم يكن لساني ليلهج إلا بما انضج عقلي تجربة وخبراً .

يكرّ الدهر بجنودٍ لا قبل للغرّ بهـــا يا وسيم ولكن لا أدري أيمشي البصير معها ــ وهي تتوالى عليه ــ متقهقراً في الحياة بما يثقل كاهله من أعبائها ، أم يتقدم بها إلى السعادة لما يحشو دماغـــه ــ وهي تعركه ــ من بصر بالدهر يشرف منه على الحياة ؟

ولعلّ من يخوض معترك الحياة في سبيـــل سعادته يا وسيم كغواص اللؤلؤ يخوض عباب اليمّ فكلما أمعن في الغوص كان أرجى لما يؤمل من التقاط الدُّر .

وسيم !!

لا أراني بما أشكوه إليك من سوء طالعي بالغةً

مكان التشفي من نفسي فقد أصبحتُ ــ لولا بارق أمل تهامي يشوقني إلى الحياة ــ جدّ يائسةٍ من يقظة تبلغني هذه القصور التي أبنيها في أحلامي .

ثلاثة اخوة فقدتهم ولما انفض عني غبار الطفولة ثم عززهم الدهر بالفاجعة الكبرى يوم ودعت أمي ، وتلتها أمُّ المصائب بفقد أبي ، وهـــا أنا اليوم أبكي خاتمة الأحزان لدى مصرع آخر شابٍ من أسرتي قد كنا نتعزى بوجوده فاصبحتُ لا ساعد أناضل به ولا كنف آوي إليه .

أرى الكثير من النـاس حولي يا وسيم يختلفون إليّ بالعزاء والتأسية وربما كان فيهم من أخلص المجاملة إليّ ، على أني لا أرى بينهم من يدنيه مني صـــدقُ الحديث وخلوص الضمير من دَخَل الحياة .

ما أكثر الناس لا بل ما أقلّهم
الله يعلم أني لم أقل فندا[1]

(١) لأحد العرب .

إني لأغمض عيني ثم أفتحها
على كثير ولكن لا أرى أحدا

من لي بالساعة التي تسرع بي إليك فتنقذني من هذا المجتمع الفاسد بما تبثه يد الاستعمار في جسمه من سموم المدنية الزائفة ؟

لا أراني أبيت ليلي إلا مفكرة في عودي إليك على ما تحب وقد أوعزت إلى السماسرة أن يجتهدوا في بيع ما ترك لي أبواي من متاع وعقار فعسى أن يكون فراقٌ بيننا قريب الأجل .

فارقتك يا وسيم وكلي ذلك الحب الصامت الذي كنت تقطفه ــ بزعمك ــ من شفتيّ زهراً ومن عينيّ سحراً ثم تخرجه إليّ قطعاً من الشعر كقطع الروض تزيل كل حاجب يعترض روحك في طريقها إلى روحي .

ولشدّ ما أثلج صدري وخفف من آلام نفسي ما أشبعت به رسالتك من حياة الحب .

فلا البحر بجمال خشوعه تارة واصطخابه أخرى ولا بجمال ما يتشكل به من لون السماء حتى تخالك ، وأنت فوقه ، في قبة بنفسجية اللون أرضاً وسماء وأفقاً .

كلا ولا بجمال ما يتوج به الشاطىء من الزبد الأبيض يستوقف خاطري وهو يتصفح ذكرى ليالي المنعطف وأيام القطيف بين شجر الاراك والمرخ وعلى ضفاف الغدُر .

سلمت لحبيبتك

أمل

في الساعة التي تناول بها وسيم رسالة أمل ليقرأها ورده رسول الملك حسين بكتاب من جلالته يدعوه لحضور اجتماع يتألف من زعماء القبائل الحجازية ، وفي تلك الليلة كان يقرأ في جريدة مكة (أم القرى) ما ينذر بخذلان الجيش الهاشمي وتقدم الوهابيين للزحف على الحجاز .

لم تصرح الجريدة بذلك ولكنّ حملها عزم الملك على الحرب ــ ولما يأخذ للأمر أهبته وليس في حوزته من الجند ما يحدق بالعاصمة حرساً وهو يعلم علم اليقين بسالة النجديين وما هم عليه من العدة ــ قد جعله في ريب من الأمر .

من أجل ذلك كان حديث وسيم في قومه تلك الليلة وهو يعرض عليهم الجهاد فيما إذا استنفرهم الملك .

كان يرمي إلى التنبؤ بالفشل لما علم من أن جلالته لم يتعهد الثقة في نفوس القبائل منذ وضعت الحرب أوزارها معتمداً على ما بيده من وعود الحلفاء ، واصبح وسيم موعوك الجسم لما ساوره في تلك الليلة من قلقٍ نفسيٍّ قضى على هجوعه ثم ركب في نفر من قومه يريد مكة .

حشد الزعماء بين يدي الملك

اجتمع في ندوة الحسين بن علي عدد من زعماء

القبائل الحجازية غير قليـل يصغون إلى جلالته وهو يتدفق فيهم كالسيـــل خطيباً بليغ القول أتى في كلامه على ما قام به من الخدمات للامة الاسلامية عامة والعربية خاصة وأنه أول رجل عمل على رفع نـــير الاستعباد عن الأمة العربية وأن نهضته هـذه ، وإن كانت فرضاً على الهاشميين إذ هم مخلوقون لاصلاح المجموع البشري وهو منهم ، إلا أن التنويه بها والنداء عليها من واجب الامة اعترافاً بفضل القائم بها .

ثم ختم كلامه بجمل كان لهـــا تأثيرها في نفوس القوم أتى فيها على ما نال الأمـــة الاسلامية من الذل والاستكانة واتصل بكلامه إلى ثورة ابن سعود عليـه وقيامه في وجهه بينما هو سائر إلى إحياء الأمة التي هو أحد أفرادها وليس عليه فوق ما يناله هو من واجب في هذا السبيل ، ثم أخـــذ في تحريضهم على حماية بلادهم والوقوف في وجـــه الجيش النجدي أن يعيث في الحرمين فيعيد فيهما سيرة أسلافه من بني أمية ، واستمر

في كلامه محرضاً مهدداً مشنعاً لا يترك مجالاً للقوم في القول حتى بكى وأبكى ثم طلب منهم أن يفضوا إليه بما يريدون على لسان شخص يختارونه أميناً لهم يأتيه في مكتبه الخاص حرصاً على الوقت أن لا يذهب في جدال من القول فاختاروا وسيماً ودخل على جلالته فأفضى إليه بمطالب القوم وهي فيما يأتي :

(١) بذل مائة الف دينار توزع على زعماء القبائل وهم خمسون زعيماً .

(٢) قيام كل قبيلة بتعبئة وقيادة نفسها والقائد العام من أبناء الحسين .

(٣) إقطاع كل عربي يقدم نفسه للجهاد عشرة دنانير مقدماً .

(٤) تقديم ما يلزم كل قبيلة من السلاح .

فوافق جلالته على البند الثاني وأجاز إقطاع كل مجاهد دينارين .

وأجاب عن الرابع بأنه يقدم ما لديه من السلاح واجتهد وسيم في إقناع جلالته بتنفيذ البند الأول لما يعلم من أن العرب كانت ولم تزل تطمع إلى الغنائم وأن الذين يمثلهم لا يرجون أن يمدوا أيديهم إلى غنيمة فيما إذا ظفروا لما يعلمونه من تصلب الملك وشدة نكاله .

اجتهد كثيراً في تقريب ذلك إلى الملك فلم يفلح سيما وقد رآه احتدّ عندما وجه إليه بضع كلمات تتضمن لوم جلالته على ما فرّط في أمره من قبل .

فقال له « اسكت يا بني فإنّا نستطيع أن نحارب أهل الأرض جميعاً لا بالقوة المادية ولكن بالقوة الإلهية » فلم يرد وسيم على أن أجابه ــ وكان جريئاً وله على الملك دالّةٌ لما يعتمد عليه وعلى أبيه في سياسة القبائل ــ لو كان التأييد الإلهي يغني عن العدة لما خاطبنا جلّ وعلا بقوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ثم قبّل يديه وقال أنا ممن يرون الجهاد وها أنا

قد لبست للحرب لامها وادّرعت لها بدرعها ، على اني لا أضمن وفاء غيري تجاه وطنه ، ثم خرج وأبلغ القوم فتفرقوا شيعاً ورجع إلى قبيلته فجمع رجاله وأمرهم بالاستعداد للحرب في وقت عيّنه لهم واتصل به في اليوم التالي كتاب من جلالته يثني على غيرته ويعده الخير ويُعلمه أن ابن سعود أوشك أن يدهم الطائف برجاله فبات وسيم تلك الليلة في مضجع قضيض لم يدع وجهاً من وجوه الرأي إلا قلّبه ولا صحيفة من صحائف الفكر إلا مرَّ بها حتى انتهى به التفكير إلى توقع الخطر من وراء ما يحدق بالحجاز من عدوّ ليس في قومه من القوة ما يصد بها غارته .

ذلك ما كان يتهدد مُلكه وحياته ويهدم ما بناه من العز على صرح (أمله) ولما أوشك أن ينفض الليل صبغه أسحر إلى المنعطف يودع القصر والقبة منازل أحبابه فقضى هنالك بضع ساعات أسال فيها من شؤونه ما عرّفه الحب من قابل . مرّ بالشجر فأسند

إليه كتفه ، وبالغدير فأجال فيه بصره ، وعلى الصخر الذي كانت تجلس أمل إليه فألصق به حشاه ، ثم دخل القبة فأكثر من لثم جذرها ، وخرج إلى الحديقة فألّف باقة ووضعها على وجهه مليّاً يتحسس منها ريح أمل ثم عقدها في عَذَبة عقاله وبكى لنفسه أيجود بها في سبيل وطنه أم يحرص عليها إبقاء على أمله في الحياة ؟

ثم عاد إلى النزل فرأى الخيل وقد ملأت ساحة الحيّ وتعالى صهيلها ، فلما أقبل عليهم صاحوا في وجهه هتافاً بالحرب فحياهم وغادروا المنازل وأد الضحى والنساء تشيعهم بالزغاريد .



وسيم

١

تنكرت الأيام يا أمل وأدبر ما كان يستقبلنا من نعيمها حتى أصبحت اعتقد أنه كان حلماً لذيذاً يعللنا به الدهر . أنا الآن في شرذمة من قومي نتحدى الموت في ساحة الحرب دفاعاً عن الوطن ، والوطن كما تعلمين يا أمل عزيز على أبنائه الأحرار .

فليس للمرء ، وهو يضن على وطنه بنفسه ، أن يدعي الوفاء ويطمح إلى خلود

الذكر ، والوفاء هو كل الرجل يا أمل .

..... يفعل الدهر بالحر ما شاء ، يدق ساعده ويهيض جناحه ويأتي على ما يحف به من مال ونِعَم ، وأما تلك التي تخفق بين جنبيه فترفّ على العَلم وهو في ظله وعلى الزهر وهو ينشد الجمال فلا سبيل إلى أن يسلبها الشعور بالحياة والحنين إلى من تُحب .

تسير بنـــا الجياد العربية ملء فروجها ، فتعلو الجبـــال وتهبط الأودية ، وتشرف بنا أحياناً على الطائف ومـــا يطوف به من الحدائق والبساتين ، ويحمل الينا الصبا النجدي عرّف أشجاره المكللة بالزهر .

ما أجمل هـــذا الينبوع يا أمل يتفجر من قلب صخرة يظللها شجر الزيزفون ، جلسنا هنـالك نروّح الخيل على مقربة من الطائف معسكر الجند الهاشمي .

القوم فئاتٌ يتعللون بذكر المنازل التي غادروها .

وأما حبيبك وسيفهو في معزل عن ذلك كله .

٢

حُفرت المكامن ، وعُبئت مفارز الجند ، ووزعت كواكب المتطوعة من عرب البـادية في القلب وعلى الجناحين خوف الهزيمة ، وتعـاقب خطباء الجيش يتبارون في إثارة الهمم ، وشدّ العزائم ، وبات القوم على تعبئة تلوح لهم من ورائهـا أعلام النصر خفّاقة العَذَب .

نُشرت العيون حول الجند وعلى مسافة منه تجوس خلال الآكام وتتحسس من العدوّ .

علمتُ أنّ النجديين يتأهبون لهجوم فاصـل ، وأنهم على قوة لا قبل لنا بها ، وأن القلق لذلك أقعد قائدنا عن طلب النوم تلك الليلة ، فبات يرسم الخطط الحربية ويتفقد العتاد والجند .

٣

أصبح جيشنا كامل العدة محشوداً في صعيد واحد

يستعرضه الأمير وشاعر الثورة بين يديه ، يلقي قنابله فتنفجر في نفوسنا حماسة ، ويسمعنا الموت أعذبَ ما نتغنى به شعراً يردد صداه صليل السيوف وصهيل الجياد.

أي يوم تهبّ قومي فيـــه
من عرين الشباب آساد غاب
ولخفّاقهـــا المفدى عليهـا
زجل الرعد أو هويّ العقاب
تترامى تحت الحديـد إلى غر
الأماني وفي متون العراب
لا يبالون دون نيل مناهم
شَرَقَ البيض من نجيع الرقاب
دون شم الأنوف منهم إذا سيـ
موا ركوب الهوان شم الروابي

★★★

أن تحاول تطهير شعبك فابعث
طارقاً من سباته والوليـــدا

بأبيان الثراب إلا دمــــاء

ونعال الجيــــاد إلا حديدا

وتثير العشاق منـــا عجاجاً

ناشراً فوقهـــا مطارف سودا

فترى فوقك الصعيد سمــــاء

وترى تحتك السماء صعيـــدا

يستحيل الحديد فيـــه مياهاً

وتحول الميــــاه فيه جديدا

***

محفل الشوس من عرين بـني

تغلب لا زلت محفل الأقران

ما أمرّ الحفاظ فيك يربيـــه

التفاف الاخوان بالإخوان

وإذا حمت الوغى كنت ميدا

ناً تمد الفرسان بالفرسان

هكذا تدرك الرجال مناهـا

ولو أن المنون دون الأماني

بزغت الشمس يا أمل ولكن من وراء حجاب

كثيف ، دخان وقتام .

زحف الجيش ونشر جناحيـــه وقصفت مدافع

الحرب وعلا دويّ الرصاص فكان من ذلك :

زجل تخف له الحلوم وعِثْيَر

يغشى النواظر منه جو قاتم

يستنزف الآماق من وقع الظبي

برق ومن خفق البنود زمازم

أظلم الجو بما عقدت سنابك الخيل فوقنـــا من

قسطل ، فحسبت القذائف (وهي تنثال) شهباً تتساقط .

تنثال !! ولكن ممن ؟ وعلى من ؟

من قوم قد كان الظفر قريباً منهم وخليقاً بهم

لو لم يكن جلّهم قد وردونا يقودهم الجشع ويسوقهم

تنافسهم في الحياة وتكالبهم على المناصب .

وعلى قوم تدفعهم قوة الإيمـان بالله عن طريق

الجهل — والجهل مع الإيمان أظفر بالعز من العلم مع الكفر — .

أوَ ليس العز وليد الإخلاص والإخلاص من دعائم الإيمان يا أمل ؟

يلوح لنا عن بعدٍ سواد حسبناه لأول وهلة غماماً متراكماً ولكنه سرعانَ ما سد الأفق علينا بانتشاره وما هي إلا ساعة من نهار حتى انهالت علينا جبال من خيل ورجل تتلقى القذائف ورصاص البنادق بصدور تضم فيها قلوباً يشدها الإيمان بالله ويدفع بها إلى الموت هوى الجنة حيث الحور والولدان ، فلا ترى إلا لمع الأسنة وبريق الصفائح ولا تسمع إلا :

هبت هبوب الجنة وين أنت يا باغيها

خفت القلب منا وكُسر الجناحان ودب الذعر إلى صفوفنا فلم تدر رحى الحرب إلا ريثما اختلط الجيشان جيش الظلام وجيش القتام .

٤

نحن الآن محصورون في الطائف لا منفذ لنا
وقد أخذ العدو علينا المسالك والطرق .

نفدت ذخائرنا وأخذ الرعب يتسرب إلى نفوس
الجند ، وتعالى صياح النساء من المدينة لهول ما رأين
وما يتوقعن من العدو المحاصر ، وأحـــدق الخطر
بالمدينة ، فخفتت الأصوات وبلغت القلوب الحناجر
فلا تسمع إلا همساً .

***

فتحت المدينة واستسلم الجند ، ودخل العـــدو
فأوغل في البلد الآمن ذبحاً وسلباً واستحياء ، لم تشهد
الجزيرة مثله قبل الإسلام ولا بعده .

لم ينج منا إلا من ركب الليل أو مرّ به النجدي
وعلى بصره غشاوة ، وقد كنت من هذه الفئة الناجية
وكان العسير وجهتي .

٥

أوّاه يا أمل ! أوَ كنتِ ناظرةً إليَّ؟ وأنا أهيم في الأودية إبقاءً على حياةٍ قد كنتُ غير ضنينٍ بها على الأسنة لولا أنّ ورائي شريكاً لي فيها .

ما يسرني أنّي نجوت وفيَّ بقية لم أرقها في سبيل الوطن على هذه الصخور التي أجتازها هارباً إليك بروح لم تكن لولاكِ عزيزةً عليَّ يا أمل .

على أنّ نفس الحر عزيزة عليه ، وهو جدُّ حريصٍ على أن لا تذهب رخيصة منه . ولعل نجاءه من موقفٍ لا ميزة فيه للقرْم على النكس ، ولا للشجاعة على الجبن ، أسمى وطنية ، وأخلد ذكراً ، أفلا يكون بذلك مُبقياً على نفسٍ يدّخرها لموقف لا يذهب الشجاع فيه ضحية التهوّر والتغرير ؟

٦

لا أدري ! وهذه هي آخر خطوة أجتاز بها

وطني المحبوب إلى تهامة اليمن ، واللحظة الأخيرة التي أودّع بها معقد تمائمي ؟

أأتربّص في (صنعاء) ريثما تنجلي هذه الأزمة فأعود إلى ملكي آمناً مطمئناً ؟

كلا !!!

لا سبيل إلى الأمان ، والنجديّ يراني إحدى دعائم الملك الهاشمي . أنا أعلم أن عرضي هتك ، وحرمي استبيح ، ودمي هُدر ، فإلى أين أعود ؟ أوْ يعودَ الحسين إلى عرشه . . . ولكن هيهات . . .

لم يبق لي إلا أن أبحر من عدن إلى الخليج الفارسي فالعراق حيث رب التاج الهاشمي وهنالك . . .

ماذا هنالك ؟ أنستطيع أن نعيد الملك ؟ والأمة هي الأمة وداؤها داؤها ؟

٧

أوّاه يا وطني المحبوب !

تعود بي إليك آمالٌ قد غشّى فجرها ظلام اليأس
من الحياة ؟

يا وطني !!

شربت من مائك العــذب ، وتفيأت ظلالك
الوارفة ، وتنشقت نسيمك الرطب ، ترعـاني شمسك ،
وتحضنني مروجك ، وتعصمني جبالك ، فأنت أرأف
بي من أبي ، وأحـنى عليّ من أمي ، أفلا أبكيك
يا وطني ؟؟

كأني بك ورياح الأعداء تتناوح فيك فتكسف
شمسك وهي ضاحية ، وتصوّح زهرك وهو نديّ ،
وتذوي غصنك وهو ريّان .

كيف لا أبكيك أيها الوطن ؟

أوَلم أترعرع في حجرك تفرشني تربك وتوسّدني
صخرك ، تؤويني كهوفك ، وتحنو عليّ غصونك ؟

وبعدُ ، أما رضعت لبانك ، وزغبت في عشك

وطرت من وكرك ، ودرجت في أكنافك ؟

فكيف لا أندبك وأحن إليك وأبكي عليك ؟؟

ونادبٍ فوقي على غصنه هيّج بالتنحاب أشجاني
هل قرحت جفنكِ ياجارتي لواعج قرّحن أجفاني
أتندب الورقاء أوطانها فوقي ولا أندب أوطاني
يا وطناً ذابت له مهجتي ما بين تَذكارٍ وتَحنان

٨

وأنتِ يا أمل !!

كيف تراك وقد هجعت العيون وخفتت الأصوات ، إلا همس النسيم ، وهينمة الغصون ، وحفيف الأوراق ، وخرير المياه ؟

أفتراك إحدى تلك الهواجع أم على الشاطىء تبثين الليل ما تجدين ؟

كأني بكِ يا أمل تعدّين أيام الفراق فتنتهي بك إلى يوم أضفر لكِ فيه اكليلاً من الزهر على ضفة

الغـــدير بين الجزع والمنعطف ثم نصعد إلى السفح فنجلس تحت الأراكة بين القبـة الجديدة المشرفة على القصر وبين الصخرة العالية التي كنت تجلسين عليها أيام غرست لكِ الحديقة بيـــدي وأنت تملين عليَّ شكل حديقتك في النيربين على ضفاف بردى .

آهٍ . . . يا لياليَّ الخوالي :

(أحنُّ إلى وادي الأراك وكم شجا)
(فؤادي إلى وادي الأراك حنين)
(أمنعطف الوادي هل الظل وارف)
(لديك وهل ماء الفرات معـــين ؟)
(أبثك شكوى لو وعى الزهر بعضها)
(لفاضت بهـــا من ناظريه شؤون)
(هل الوجد إلا أن تذوب حشاشة)
(عليـك وإلا أن تفيض عيون)
(وما خلت أياماً حلت فيك أنهـا)

(تمر ولا أن الزمـــان يخون)
(أعالج فيها المسك وهو شمـــائل)
(والـــثم بدر التم وهو جبـــين)

٩

الجو صاح ، والبحر رهو ، والنسيم عليل ، والسماء صافيةُ الأديم ، وعظمة الغرب تحملني إلى جنب هذا الفريق من الناس المتباين لغةً وشكلاً وخلقاً ، يمر بهم الزمن ويمرون به ، نهارهم نوم وليلهم قصف ولهـو ، وجوليا العظمى تمخر من تحتهم :

كلما زجها بجذبٍ ودفع   مارجٌ في فؤادها من نار[١]
فتحت للخضمّ عيناً ومرت   بين أجفانها خيالاً ساري

الوطن من ورائي والأمل السامي أمامي وكلاهما حبيب إليّ فلا أدري أيهما أحق بدمعي وأجـــدر بحنيني .

---

(١) للشيخ عبد الحسين صادق العاملي .

١٠

سئمت النظر إلى البحر ، ومللت الجلوس فوق سكان المركب وفي مقدمه وعلى جناحيه ، أنظر إلى السماء تارة ، وإلى البحر أخرى ، أرسل طرفي إلى أبعد ما يرمي إليه النظر ، فلا أبصر إلا ما يبعث الوحشة إليّ ، ويعود بالحسرة عليّ ، فأرجع إلى صمتي وتفكيري ، ثم أجيل بصري فيما يحدق بي من أناسيّ ، فلا أجد إلا هذه القردة من أبنـــاء الغرب تنزّى حولي بين متأبطٍ كتابه ومخاصر خليلته يتراطنان بما لا أفهم منه إلا همس الشفاه على الشفاه .

يُقيمون أصيل كل يوم وعشية كل ليلة حفلات الرقص فيوقرون سمعي بغناء هو بالنهاق والهرير أشبه منه بالموسيقى ولعل مناط الجمال من هذا الفن أن يعتاده السمع فتألفه النفس ...

يقرع بزهر الإيذان بالطعام فنجلس حـــول

الموائد تتلحز والصحاف فارغة أمامنـــا حتى إذا نفد صبرنا جاؤونا من كل لون بما يوهمنا أن نزقّ به فرخاً أو نلقم صبياً وما هو إلا أن رفع الخوان وظل يجأر بعضنا بعضاً .

خل عنك هذه المدنية الزائفة العارية من الكرم والبأس اللذين هما قطب رحا العز في الأمة ، ألم ترهم عمدوا إلى النار والحديد يتهالكون بهما لمــــا فقدوا البأس النـــاتج عن سخاء النفس ، إهبط إلى مضارب العرب الاباة حيث الجفـــان المدعدعة يغمر الجزرَ والحملان فيها جبال من الأرز المسقسق بالسمن يأكل الطير والحيوان منه أضعاف ما يأكله الإنسان .

بذلك نتآلف ونتعارف ونعلّم نفوسنـــا الإقدام في ساحة الحرب فلن يكون المرء شجاعاً حتى يكون كريماً ، ومن جاد بماله في سبيـــل العز كان حريّاً أن يجود بروحه في موقف لا يعز فيه إلا البطل المغوار .

١١

مرت بي عصارى يوم ، وقد جلست على الجناح الأيمن ، فتاة غريبة وجهتها الهند وقد كانت قبل ذلك تطيل النظر إليَّ أنى واجهتني فكنت أحسب ذلك منها لغرابة شكلي وزيي .

بيد أنه قد اتضح لي أخيراً أنها كانت قبل ذلك تديم النظر إليَّ لما أديه من صمتي وتفكيري إذ علمت أنها إحدى شواعر الغرب .

جلست إلى جانبي وهي واثقة بجهلي لغتها على أني كنت قد التقطت من سيدي خالد بضع كلمات انكليزية أستطيع أن أفهّم جليسي وأفهم بها شيئاً منه .

وما كان أغرب ما دهشت له إذ علمت أني أحسن هذا القليل من لغتها ، فأنست إليَّ وقصرت أوقات فراغها على الإجتماع بي والتحدث إليّ في سبيل لغتها ، وهكذا غير العربي ؟؟

لم يحملها ولا أترابها على الوحشة مني بعد ذلك ما أتزيّا به من لباس كنَّ ينفرن منه كلما عرضن لي أو عرضت لهن .

١٢

قلت لكِ يا أمل إنها أنست بي وخففت عني بعض ما أجد ، أما جمالها النفسي بما يشتمل عليه من جمال الطبيعة ، فلم أكن لأخلد إليه خلود المستشفي وأمامي خيالك قائماً قاعداً ، ولكني كنت أجد في السكن إليه ما يقربني إليك ويدنيك مني ، دعتني مرة لأشهد حفلة الرقص على ظهر الباخرة وألحت بسؤالها ، فنزلت عند رغبتها ولكنها عبثاً حاولت مني أن أراقصها ، وبقيت في ريب من أني أجهل فن الرقص وهو ضروري في الحياة كما تزعم .

شاهدت في الحفل من جمال الزينـــة والزي في اللبس ما يفتن الشاعر الشاعر ، على أن فيه من جمال

الطبيعة ما لا يقل عن محيطنا روعة وجلالاً .

سألتني — فيرا — بعد انفضاض الجمع عما أحببت وكرهت مما رأيت زينة وزياً ، قلت أحببت الفن من حيث هو فن ، وكرهت من تمويه الحقيقة فيما عداه مما يجوز بكن الجمـــال إلى التجمل جواز الغرّ نفيس الحياة إلى البهرج .

فقالت : إذن تحسب هذا التصنع والتحسين تمويهاً لا فناً فقلت لها : ليس ذلك فحسب ، بل ربما اعتقدت أن وراء ذلك قلوباً لا أثق منهـــا بخلود النفس المعبر عنه بالحب .

١٣

فاجأتني طلوع البدر ذات ليلة وفي يدي مذكرة أدوّن فيها خواطري ، وكان قــد انتهى بي الفكر إلى نعيم مرّ بنـــا كما تمر الأحلام فلم أملك عبرتي ولا استطعت أن أخفي أثر الدمع إذ باغتتني وكأنها

أدركت مـــا أقلقني وألزمني الصمت والفكرة منذ عرفتني فرقت لي ومضت في حديث كنا فيه بالأمس، وقد قطعه علينا الإيذان بالطعام ، تناولنا فيه الشعر والحب .

١٤

(أجولي[١] لم يحمل جناحك واجداً)
(من الشوق ما أدمى جوانحه وجدي)
(ركبتـك والأصحاب كثرٌ فمذ دجا)
(لي الليل أغفاهم وأرقني وحـــدي)
(نقا الرمل من حراء حُييت من نقاً)
(وبوركت يا عهد الصبابة من عهد)
(أمغرس آمـالي هل العيش لم تزل)
(مناهله لي فيك سائغـــة الوِرد)
(وهل بقر العين النواعم لم تزل)

(١) اسم الباخرة .

(تنفس له بــين البنفسج والورد)
(فكم لي في أفيــاء دوحك ليلة)
(وقفت بها جفني على مضض السهد)
(توسدني فيك الحبيبة زندهـــا)
(على شغفٍ بي أو أوسدّها زندي)

١٥

ما أرى الحيـاة إلا أن تجمع إلى الشعر والحب جمال هذه الحديقة التي تفيض جوانبهـــا على الطرق أسراباً من الغيد يردنها للنزهة صباحَ مساء .

جلست إلى ظل سرحة فيها تطل على بركة مـاء تحدق بها حياض من الزهر مطردة الشكل مختلفـــة اللون ، تمثّل كلمات باللغتين الهندية والسكسونية كنت أحب أن أفهم ما ترمي إليه وإذا بصاحبتي فيرا مقبلة عليَّ فنهضت استقبلها وبادرتهـا بالتحية ثم جلست إلى جانبي وقصت عليَّ كثيراً من أخبار كلكوتا هـذه ،

عاصمة الهند وتاريخ مدنيتها مُشيدة بقومها وما لهم من فضل على الهند وغير الهند من المستعمرات الانكليزية إلى أن قالت انظر إلى هذه الحديقة التي تأخذ العين بما فيها من جمال الطبيعة وجمال الفن ، وهي الحديقة العمومية كما ترى اسمها مكتوباً بالزهر في الحياض ثم ودعتها الوداع الأخير وعدت إلى الباخرة والشمس مؤذنة بالمغيب .

١٦

(ثلاثين يوماً تستحثّ يد النوى)
(بي الفلك في بحر من الظلمـــات)
(فلا القلب بالشكوى يردّ ظلامتي)
(عليّ ولا الأحشـــاء بالزفرات)
(أحبابي كم أشكو إلى العين بعدكم)
(حنيني فتُشكيني إلى العـــبرات)
(سلوا الروض هل وافيته غيرَ ممسكٍ)

(بكفيّ قلباً دائم النزعـــات)
(أفاجئـــه غِبّ الأصيل وربما)
(بكرت لأغشـــاه مع النسمات)
(هبوني تامست السلوّ لنـــاظري)
(عن الدمع في سرب من الظبيـات)
(فهل يملك السلوان نفساً تحدرت)
(من العين أو فاضت مع الحسرات)

١٧

أتخيلك يا أمل في غياض الشام تتنقلين من سرحة إلى سرحة ومن حديقة إلى حديقة بين الربوة والمنزه وفي ظلال قاسيون تتساءلين ونفسك عما كان مني أن قطعت عنك أخباري ، ماذا أصنع يا أمل ؟؟

هل جنّح الشوق محباً قبلي فأخف إليك بأجنحة من نار يا أمل ؟؟

أستطيع أن أراك وأكتب إليك ، ولكن كيف

أصلك وماذا أكتب لك، وقد تحطمت آمالي على صخرة من اليأس صماء ؟

تقف النفس الأبيّة في وجه صاحبها أن يستقبل الحياة وهو ذليـــــل فتورده مناهل العز على حسك المصائب .

قد لا يصل المحب بروحه إلى من أحب وهو إلى جنبه يا أمل : حتى إذا نأى عنه بجسمه كان من الوجد المبرح صلة بين الروحين رغم ما يحول دون التآمهما من شقة البعد .

ذلك وروض الحب نام في الصدر يتعهده الشوق بدموعه ... فأنت معي حيثما كنت يا أمل .

إن لا أصل إليك بجسمي فقد تتصل بكِ هذه الخواطر يوماً ما وهي كلمات مسطورة على ما تبدو للعين ولكنها في الحقيقة هي الدموع ... وليست هي إلا دموع الحب الخالص يا أمل .

١٨

(الا هل إلى شم الخزامى ونظرة)

(إلى وطني قبل الممات سبيل[١])

(هيا أثلاث الجزع من بطن توضح)

(حنيني إلى أفيائكن طويـــل)

(أحدث عنك النفس أن لست راجعاً)

(اليك وحزني في الفؤاد دخيل)

* * *

(وحبّب تسكاب الدموع أحبة)

(لعينيّ في وادي الأراك نزول)

(أحباي هل عنكم سرى فأعلّني)

(نسيم الصبا إذ هبّ وهو عليل)

(فلا مثل شكوى البين سرٌ أبثه)

(إليكم ولا مثـل النسيم رسول)

---

(١) الأبيات الثلاثة الأولى ليحيى بن طالب اليامي . والأخيرة للمؤلف .

١٩

الملك فيصل في أوربا لم يغادر بغداد إلا منذ اسبوع وليس من يخلفه ممن يفضى إليهم بشكاة ، فماذا أصنع ؟!

حقاً لقد أظلمت الدنيا في عيني .

اختلف إلى هذا البرلمان المزعوم وأطوف حوله وربما مكنتني جلاوزته من الدخول إلى الباحة حيث تقف سيارات أولي الأمر فيه فلا أرى من كل اولئك من يهمه أمر البلاد أو يفكر في غير منصبه ونفوذه في الشعب .

على أن أقربهم من العرش أبعدهم عن الفضيلة التي تسمو بالأمة إلى مستوى رقيها .

أوَ كنت مخطئاً إن قلت ان في البلاط رجالاً جلهم أوهام في شكل حقائق يتقربون إلى الملك

بالتملق وإلى المستعمر بخيانة البلاد ؟؟

ولعل الملك بعيد عن كل ذلك أو لعله على علم منه وهو يغضي عنه مكرهاً ريثما يتمكن من الحرية التي يستطيع معها أن يوطد الملك فينهض بأمته من حضيض العبودية إلى ذرى الاستقلال .

٢٠

شر العصور وفي العصور تفاوت
عصر به تتقـــدم الأوغاد[١]
انظر إلى الأعجاز كيف تصدرت
وعمائم السادات كيف تُـداد

* * *

لو جُمعت لم تــك أقطارنا
دويلة فكيف صارت دول[٢]

---

(١) للشبيبي .
(١) للشرقي وكلاهما من فحول شعراء العراق .

يكفي بأن أصبح مزمارنا

يصـــدح أن العربي استقل

إلى غير ذلك من مثل هـذا الشعر الذي يتردد على الألسن في هذا البلد. ذلك ما دلني أن الشعر في بغداد قد تطور من جانب الرقة والنسيب اللذين أعهدهما فيه إلى جانب السياسة وقد كنت أعجب بترجيعهـــا على مسمعي كلما ضمني وأديباً أو صحافياً مجلس جرى فيه ذكر الملك وحكومته .

وأراني جدَّ راغب في درس العراق من الناحية الأدبية فلا مندوحة لي عن الإجتماع بشعرائها لآخذ عنهم شيئاً أضمه إلى ما أكتب عمن اجتمع به في هذه الرحلة لأخرجه سفراً يكون مميزاً لنا في المنعطف إن كان في الحياة بقية وإلا فحسبه أن يكون بعدي :

بين يديْ أمله

٢١

تعودتُ أن أزور المدن الكبرى أمثال مصر ومكة وصنعاء ، ظاهر النعمة ، طريف البزة ، مخدوماً في حاشيتي وحشمي ، ولم أتعود أن يراني من يعرفني في هذا اللباس الرث والفقر المدقع .

لا أستطيع أن أمرَّ بكِ يا أمل في طريقي إلى عمان حيث أبو طلال[1] ... وأنتِ في فردوسك دمشق .

لا أستطيع ذلك إذ لا أحب أن أفجعك بعزي وجمالي قبل أن أنثل آخر سهم في كنانتي هرباً من حياةٍ لا أريدها لي وأنت في جانبي .

إن في بغداد كما في غيرها من أمهات المدن في

(١) هو سمو الامير عبدالله أمير الشرق العربي .

البلاد العربية ، جمالاً تقتسمه دجلة وما يحف بها من نخيل .

وأجمل متنزهاتها الرصافة والأعظمية والكرادة حيث قصر الشبيبي أحد فحول الشعر فيها .

يستطيع الخلي أن يكون قرير العين فيها بين ماء عذب وحدائق غناء ولكن من يصبح كما يمسي بين هم مقض وألم ممض يتنازع نفسه حنينان : هذا إلى وطنه وهذا إلى حبيبه ، فلن يستطيع أن يصل بشعوره في الحياة إلى ما يتمتع به من جمال بينا هو ، إلى ذلك كله ، يكابد من مضض الفاقة وعناء السفر ما يكاد يأتي على مشاعره .

٢٢

لبنان أنت ، وفيك لي　　وطن ، لبدر التم أفق

يجتاز بي مر النسيم　　وفيه من مجناك عبق

مارق حتى كاد يلفظ　　مهجتي نفس أرق

لم أشعر بجمال هذا الشعر حتى وقفت موقفي هذا فلم تقع عيني على أجمل مما أرى وأنا مطل من مشارفه على بيروت توشيّها الحدائق ويوشّعها زبد البحر وقد كنت أحسب أن غياض العاصي من أمهات الجمال في سوريا إذا بي أمام هذا الثغر البسام يفيض على الأفق رونقاً وجمالاً .

★★★

لم أقف من هذا القارح المصري على ما يشبع روح جليسه فكاهةً وحديثاً على أنـــه ، وهو أمير الشعراء ، يعطيك في غيبه ما لا تظفر به في مشهده بين جمود وجفاف .

شهدته بالأمس في بيروت بطريقه ، مصطافاً ، إلى لبنان وقد حفت به ثلة من الادباء ، يشخصون إليه تارة ويتلاحظون أخرى .

قد كنت جدّ حريص على أن أشهد اجتماعاً

كهذا أدرس فيه نفسية ادبائنا السوريين عياناً كما فعلت ذلك في بغداد أثناء إقامتي بين الرافدين . . . ونظر الباحث المدقق في تحليل النفس من وراء مجهر العين ، أقرب إليها منه وهو يتصفح آثارها .

فقد تثور عاطفة الشاعر لعامل خارجي فتخرج أثراً لا يتلاءم مع نفسيته ثم يُتخذ بعده حجة بالغة في الحكم على شخصه بما يكون بريئاً منه لو قارن المحلل بين عينه وأثره .

٢٣

لا يزال أبو طلال كما أعهد ، ولعه بالأدب ذلك الولع وغرامه بالمناظر الجميلة ذلك الغرام .

يحب أن يرى ديوانه محشوداً بأهل العلم والأدب كما يحب أن يرى الوفود تتزاحم على سماطه الممدود فيريد أن يكون بذلك الصاحب بن عباد ، لكن في زمن قد عفن فيه خبز الأدب على موائد السياسة .

عن يمينه كتاب الاشتقاق وإلى يساره قاموس الفيروزبادي وبين يديه نقائض جرير والفرزدق .

أما الصحف العالمية فقد عهد بمطالعتها إلى « الجذع الأزلم » رئيس ديوانه ...

حسن أن يتأدب الأمراء ولكن أحسن من ذلك أن يقرنوا إلى أدبهم الدهاء والسياسة فيفطنوا إلى هذه الزمر ... التي تحف بهم حاشيةً وبطانة فيقربوا الصالح منها ويُجنّبوا الحكم عيث الفاسد .

دخلت على سموه الثويّ في (رغدان) وهو جالس في نفر يتحدثون إليه في كيفية استعراض الجند سموه من الغد المشرق بغرة العيد .

وما أن وقعت عينه عليّ حتى وثب إليّ وقبلني مرحّباً ثم أجلسني قريباً منه وأسبغ عليّ نظراته المشبعة بالاخلاص مشفوعة بتلك الابتسامة الحلوة المنبعثة عن أكرم نفس وأسجح خلق عربي هاشمي ،

ثم خلا بي ساعة من نهار أفضيت إليه فيها بكل ما لديّ من شؤونٍ هامة .

أما ما يتناول بؤسي وشقائي فقد ألمعت إليه دون التصريح وفوق التلميح فكانت جلستنا هذه أول خلوة وآخر خلوة ؛ لبثت أتقلب في مضيفه مدة كأني كنت فيها عابر سبيل ظفر من عيشه بما يقف عنده أكلاً ونوماً فكان حيواناً في شكل إنسان .

أنشدته يوماً على مائدة أدّبها لسموه أحد الأعيان ، بضعة أبيات جاء في مطلعها :

أبا نايف حبذا ، والحقوق تناولها الخبّ ، أن تستردا

فبكى !!.. ثم ما زاد على أن كفكف عبرته .

وأنشدته إذ استعرض الجند أبياتاً منها :

مررت بالروض فاعتل النسيم به

وكاد يقطر من أكمامه الكرم

فابتسم !!.. ولعل ابتسامته إلى الهزء بي أقرب

منها إلى الاستحسان .

أوَ ليس أسنى ما يجزى به الغريب البائس من أميره المحبوب .

دمعة وابتسامة ؟

ما أسمن الكلاب في دارك يا أبا طلال !!

أوَ كل محب لكم هزيل ؟؟

٢٤

أشعرت بضيقٍ في صدري ، وظلمةٍ في نفسي ، من هذا المنزل الغاص بأقزام الحبش ، ليلهم غطيط ونهارهم بشم وجُشأ ، ما مقامي بين هؤلاء وأمامي أضعاف ما خلفته ورائي من ظلّم الحياة ؟؟ ثم هل أجد لنفسي في هذه الدسكرة منفذاً إلى بصيص نور أعشو إليه ؟؟

أسمع أن الصلت مدينة طيبة الهواء كثيرة الينابيع

والشجر الملتف وهي قريبة من عمان فلعل مقامي بها أياماً للاستشفاء بهوائها ومائها يحول دون تمادي ما أشعر بسريانه في جسمي منذ أيام .

٢٥

ما أبرّ هذا الشيخ الكوسج وأزكى نفسه وأنبل عواطفه وأحناه على اليائسين وأقربه من تقوى الله .

حياة هادئة وعيش كفاف في ظل هذا الجبل الأشم المطل على وادي الصلت والمتكىء على السماء كأنما هو إله .

في ذلك الحضيض وعلى مقربة من نهر يتدفق ينبوعه من قلب المدينة ، بيت قديم البناء والشكل تهبط إلى داره المغروس بشجر الكرم والتين والتوت ستّ دركات يستقبلك من ورائها . .

ذلك هو بيت الشيخ عبدالحليم زيد ومضيفي الذي أتقلب فيه وتلك الصبية الرشيقة التي تتعهدني

بالخدمة هي ابنته «عزيزة» ، ذرية صالحة وزوج أصلح .

خرجت إلى وادي الصلت حيث الخمائل الملتفة والينابيع تتدفق من صرود الجبال المغروسة بشجر الكرم فتنساب جداولَ أو تنحدر شلالات .

هنالك على عين الجدور في بطن الواد وفي سفح الجبل الراسخ فوقها إلى جنب عين ثرّة تنبجس من الصخر المظلل بشجر التين واللوز وتتخللهـــا رياض مخضلة العشب والزهر .

هنالك يجلس الغريب البائس فيصعّد من أعماق قلبه نفساً حاراً ثم يلقي على ما حوله نظراً حاداً ينفذ به إلى أعماق الطبيعة ، حتى إذا انتبه من ذهوله وقد امتلأت عيناه بالدمع فاه إلى الزهر يبثه ألمه وينشده « أمله » .

بكيت وفي سبيل الحب جفن

قريح لا يجف ولا ينـــام

براد يبعث الأشجان فيه

سقيط الطل ينـــثره البَشام

أهيم به وكم أدمى هواه

محاجر فتية عشقوا فهاموا

تفيأت الأراك بـــه فأحنت

عليَّ غصونـــه وبكى الحمام

***

أوادي الصلت لم آلفك إلا

لروض فيك دبجـــه الغمام

أزورك والنجوم تكاد تخفى

فتلفظها من الزهر الكمام

(تعالي نرد ماء الجدور[1] ونجتني)

(من الزهر ما يحلو لعينك مجناه)

(ألم ترَ عينـاكِ الرَّبيع يُطله)

---

(١) عين ماء في الوادي .

(سقيط الندى والزهر ينشر رياه)

(كعهدك بالربيع الذي فاض ماؤه)

(بنعمان واعتلَّ النسيم بمغناه)

(إذِ الوَرد حيًّا وجنتيكِ بخده)

(وأهدى إليكِ الأقحوانُ ثناياه)

(مرَرْنا به والرَّوض ثوب منمنم)

(زَها فيه نوّار الرَّبيع فوشّاه)

***

يا أمل !!!

ومن أعماق النفس النزاعة إليك يخرج هـــذا الصوت الخافت المتقطع ، أين أنتِ يا أمل ؟؟؟

أعلى قمة الجبل أم في قلب الوادي ؟؟؟

على ضفاف النهر أم في ظلال الزيزفون ؟؟؟

أنا هنـــالك يا أمل ، حيث تستقبلين الشمس ، وتلتحفين الضباب ، تناجين الزهر وتساجلين الطير .

أوَ لم يهمس نسيم السحر في أذنيك هذه الأنات الضعيفة ؟

أوَ لم ينثر عليك نَور الشجر هـــذه الدموع المتراكضة على خدّي ؟

أوَ لم توقّع بلابل الدوح حنيني إليك على قيثارة الصباح ؟؟؟

أنا هنالك يا أمل !

حيث تتبوّئين من الرابية مكاناً يطالعك فيه البدر وينثر الليل عليك ذوائبه .

أوَ لم تقرئي على جبين الفجر غضون وجهي الشاحب ؟

وفي ضمير الليل خشوعي بين يدي نجواي ؟

فلسألي كثيب الرمل عن صبري كيف ينهال ؟

وورق الخريف عن آمالي كيف تتساقط ؟

وغروب الشمس عن نفسي كيف يضغطها اليأس ؟

هل عندكِ علمٌ بي يا أمل ؟؟

أرأيتِ النجم كيف يحار في كبد السماء ؟

والقمر كيف يتضاءل أمام وجه الشمس ؟

والشمس كيف تتلاشى بين يدي المغيب ؟

وبعدُ ، أفتراكِ شاعرة ببكاء الزهر قبيل السحر وضَحِكِه ، وأد الغزالة ووجومه بين يدي المساء ؟

انظري إلى الورد يا أمل كيف يخضرّ في الأكمام ، ويحمرّ في الهواء الطلق ثم يصفرّ بعــد تقطيره في القوارير ؟

٢٦

يا ليل كم لك عندي … وللنسـيم أيادي

كلاكما رق ولكـن … لرقـة في فؤادي

أبكيكما بدموع … حزنى وأبكي بلادي

جارت علينا صروف … من الزمان عوادي

فيا بلادي ! حنـاناً إن العوادي أعادي

يا بلادي :

أوَّ أنساكِ ولما تزل فيَّ بقية من حياة ؟

وكيف لا أقصر وجدي عليكِ ولولاكِ لم أكن .

أم كيف أختم نواحي فيك وأنتِ أنتِ مصدر النور الذي شـق بصري والهواء الذي فتق سمعي والحب الذي أشرقت شمسه في سماء نفسي ؟؟

يرفضّ دمعي لا كئيب الحمى
أبكي ولا أندب آرامـه

أبكي بلادي وحياتي بهـا
وعيشي الحرّ وأيامـه

***

يا من لصب ساهر ليـله
يطارح الورقـاء أشجانه

ترحمه الورق فتبكي له

شجواً ولا يرحم أجفانه

أراحم أنت له عبرة

يا ليل إن بثك أحزانه

يا سرحة الوادي أرى طائراً

فوقكِ لا أسمع تنحابه

أظنه مثلي محباً بكى

في ظل أغصانك أحبابه

...

من لغريب لا ينام الدجى

ينشد بين الروض أحلامه

أحنى على نرجسه باكياً

يبثه الوجد وآلامه

شق له ورد الربى جيبه

وفتق المنثور أكمامه

حسبك يا ورق هديلاً فقد

أشفقت من دمعي على ناظري

رق لتحنانك حتى الدجى

ما أولع الرقـــة بالشاعر

٢٧

وأنت أخيّة يا فاطم !

كيف بكِ إذا أصبحت ولم تجدي إلى جنبك زهرةً شدَّ ما أفرشتها خديك ورفهتِ عنها بدموعك ؟

(ولم أرَ فيها يُبصر القلب عبرة)

(أحرّ وأسخى من دموع الشقائق)

(أفاطم لا تبخل عيونك بالذي)

(تجود به عين الغريب المفارق)

(أفاطم لا يعدم أخوك حشاشة)

(تقلبها كفـــاك فوق النمارق)

(يبكي لك حتى اصفر مما يجنّه)

(بهاء الربى واسود قلب الشقائق)

(توسده الذكرى صفاةً أقضّها)

(تقلّب خدٍ فوقهـــا ومرافق)

(وتُفرشه زهر الرياض أشقّةً)

(نواضر من جفنيه حمر البنائق)

٢٨

أرقت ذات ليلة لذكرى المنعطف فأقضّ مضجعي فيها ما ساورني من الهم وكلما خفقت خفقة تخيلت الغدير أمامي يحف به شجر الأراك وقـــد فرشت الطنافس تحت السرحة الكبيرة المشرفة على القصر وتخيلت أمل مضجعة إلى جانب الغدير تفترش العشب الجميم وتنفح الغدير بما تقطفه من الزهر .

ثم يمر بي فجأة خيـــال النجديين وفظائعهم في الطائف أيام ظفرهم بالجيش الهاشمي فانتبه مذعوراً .

وأبت الهواجس أن أهجع أو أن يقرّ لي وساد فخرجت أتفقد السماء مفزع البائس الغريب وإذا بالسحر ينفض صبغ الليل فسلكت طريقاً لا أعلم إلى أين ينتهي بي وما برحت أتسلل أودية الصلت وأتسلق جبالها حتى وضحَ النهار وإذا بي على شفيرٍ لا يبلغ الطرف مدى ما يشرف عليه من جبال وأودية ومروج وغيطان تتخللها أحياء البدو ونهر عظيم ينساب في قلب ذلك السهل البعيد الغور .

وأمام قبة قديمة البناء قائمةٍ على مربّع قد أكل الدهر عليه أجيالاً .

ذلك البناء يزعمون أنه مقام يوشع وتلك المروج والسهول المنبسطة تحته هي غور بيسان والأحياء البادية فيه هي قبيلة عدوان .

لم ترَ عيني منظراً يستشعر لديه الناظر من هول الموقف أضعاف ما يسترق شعوره بجماله وجلاله كهذا الموقف الرهيب أمام عظمة الطبيعة الجبارة .

جمال يغوص منه الشاعر في بحر يهلك دون ساحله
إلى جلال يقف بين يديه ذاهل اللب كليل الطرف .

٢٩

(أحن إلى أفياء (نعمان) والهوى)
(يمثله بين الجوانح والصـــدر)
(ألا هل أراني ، والأمانيُّ ضِلةٌ)
(أباكرها غنـــاء باسمة الثغر)
(سئمت حياتي فيك يا شرق ساهراً)
(عليك أما يرجى لصبحك من فجر؟)
(أظنك من روض الشآم بعثت لي)
(شذا المسك يرويه نسيمك إذ يسري)
(ولو لم تكن من روض جلَّقَ باعثاً)
(نسيمك لم أمزج برقته شعري)

. . .

(وقالوا أما ترقي جفونك ساعة)

(فتـلو ويغشاها الكرى فتناما)

(وكم أنت في تيـه الصبابة هائماً)

(تجوب وهاداً دونها وإكاما)

(أفلّوا على من لا يرى الصبر لامةً)

(تقيـه الروامي أعيناً وقوامـــا)

(وكيف بمن ذاق الهوى فأذاقـه)

(أمرّ الجنى أن لا يذوب هيـاما)

٣٠

لا أستطيع أن أصف منظر وادي الصلت وأنا أشرف عليه من قمة جلعاد الحائل بين المدينـة وبين مشرق الشمس .

وأما ما يبعثـه في نفسي من الحنين إليكِ يا أمل فقد يستطيع بثه من ملك عبرته وأشفق على نفسه أن تفيض مع الدمع .

أفتطيقين أن تسمعي يا أمل ؟

زفرةٌ . . . وقد صدح هذا الطائر فوقي ، كدت ألفظ أنفاسي معها علقماً على الصخر الذي أتوسده .

ونشيجاً . . . كلما سجع سجعةً على فننه ، يفيض من ورائه دمع هو في ذمة هذه الذكرى . . .

وأليـف غصنٍ راق لي	وله سخين الدمع وردا
شـاطرته ألم الفرا	ق وندبة الوطن المفدّى
نبكي الرصافة والشآ	م وغور ذي سلمٍ ونجدا
أفأنت مثلي يا حما	م قضى عليه الليل سهدا ؟
هيهات فاتك أن تذو	ب كما أذوب جوى ووجدا
أضعاف ما أنثر من مقلتي	تنثر فوقي زهرة الياسمين
أبكي وتبكين فهل باعث	دمعك يازهرة فرط الحنين
يا ليل قصرت شبابي فما	أطول نجواك على الواهين
لا البدر في عيني منير ولا	فجرك يا شرق أغر الجبين

ما أقرب ما يدنيك مني هـذا الشوق الحافز يا أمل ! وما أبعد ما تحملني إليكِ هذه النفس الجبارة !!

عاملان أنا بينهما جـــدٌ شقي ، هذا يدفعني وذاك يمسكني .

لا أحمل إليك يا أمل عفير[1] وجه تتحسر شفتاه عن رمز الشقاء في العالم بعينين تموجان في ظل البؤس كسراجين ضئيلين تلعب بهما الريح .

لا البشر ذلك البشر يا أمل ، ولا البشاشة تلك البشاشة .

وهل يطفح بالبشر والبشاشة وجه غاض ماؤه ، وجفّ رواؤه ، تسمعين من حبيبك وسيم يا أمل ما تسمعين من المرضع الثاكل رنة وعويلاً ، وتبصرين في وجهه مثلما تبصرين في المساء الحزين شحوباً وكآبة .

حرمة الحب بيني وبينك يا أمل ، وعهد الله بيني وبين وطني لا أدري بأيهما أستمسك ولا أيّهما أخفر ؟

بأي وجه أتلقاك يا أمل ؟ وعلى أية حالة أشخص إليكِ ؟ ولواعج الحزن لم تترك فيَّ غير بقية تتردد في

---

(١) العفير : اللحم المجفف .

في صدري ، وجهٌ متغضن شاحب ، وجسد ناحل هزيل ، ونفس كلما غض منها الدهر زادها الكبر كزاً وصلابة .

واهاً لك من خواطر ! تحط من همي وتزيدني ألماً على ألمي ، أفلا أتعل بالعز المخبوء في طيات القدر ؟ نفسي لا تزال نفسي وهمتي همتي ، ولا يزال عقلي هو عقلي ، أتامس به النور الذي يفضي بي إلى الحيـــاة الحرة ، فعلام أخضع للهم واستسلم للهوان ؟؟

ولا أراني أول من شردت به الأيام وناوأه الدهر وما أنا بأبعد همّاً في الحياة من سيدي خـــالد ، ثم لست أسخى نفساً منه على نوب الدهر في سبيل العز ، فلماذا أتألم ؟؟؟

رباه : يا لآلامي وظلمي أيامي ؟؟

وأنتِ يا أملي المحبوب ؟؟

ماذا أقول لك ؟؟

(يبكي الحمام ولست أنكر دمعه)

(إن المحب سخيّة عبراتــه)

(أفأنت مثلي يا حمــام مشرد)

(كثرت إلى أوطانه نزعاته)

(ألف النواح إلى الصباح فكلما)

(رق النسيم تضاعفت حسراته)

...

(وكم ليَ بين الروض أنّــةَ ثاكل)

(يرددها مثلي على الغصن فاقــد)

(أهاجك يا ابن النوح شوق أهاجني[1])

(وأوردك الحوض الذي أنا وارد ؟؟)

(أظنك مثلي روّع البين سربه)

(فكابدت من آلامه ما أكابد)

(وهبك أجدت النوح حتى حكيتني)

(١) أهاج : أحرق .

(فمن لك بالوجد الذي أنا واجد ؟)

. . .

هذه دمشق ليس بيني وبينها إلا سواد ليل أو سحابة نهار ، وفيها أمل ...

أفيحملني الشوق على زيارتها ومن ورائه هـذا الوجه الأسفع وهذه الهيئة الرثة ،

ولماذا أرِد دمشق ؟ ألأضفر اكليل الزفاف لك يا أمل ؟

أم لأحملك على المركب الوطيء بين حُليّ الذهب وحلل الديباج وحولك الخيل المطهمة تنهب الأرض بالكماة المدججة ؟ لماذا أرد الشام ؟؟

هيهات !!!

وآهاً لك من أحلام : كنتِ وكان الشباب غضّ الإهاب أفتعودين وقد غاض ماؤه وغامت سماؤه .

٣١

(أأزجر طرفي أن يفيض وقد طغى)
(عليَّ واغفي والنسيم شـآمي ؟)
(هيا نسمات الغرب حسبك : فالهوى)
(على الشرق وقفٌ فاذهبي بسـلام)
(يمرُّ نهاري والجـوى يستفزُّني)
(وأجتاز ليـلي ، والجفون دَوامي)
(وكيف بقلبي اليوم أن لا يذيبه)
(تناوح وُرقٍ أو هديل حمـام)

. . .

(معاذَ الوفا أن تهجر الدمع أعيني)
(ويُغري بجفنيَّ الهجـوع أنيسُ)
(وكيف بمن لم يسلُكم وهو مطلقٌ)
(يروق له السلوان وهو حبيس ؟)
(لعمر الهوى لم أتخذْ بعد بينكم)

(نديماً ولا دارت عليَّ كؤوس)
(أسلتُ لكم نفسي مع الدمع ، والهوى)
(إذا صحَّ ، لم تسلم عليه نفوس)

. . .

(أحبّاي أمّـا روض أنسي بعدكم)
(فذاوٍ ، وأمّـا شمـله فبديد)
(أكنت معي ياأخت غسّان[1] والندى)
(كثغركِ في جيـد الزهور نضيد)
(يذكّرني ألحـاظك الزهر ذابلاً)
(وعطفيك غصن البان وهو يميد)

. . .

(خذي الوَرد من نعمانه وتكلّلي)
(به ، فهو من دمع المحبّ خضيب)
(ولا تنكري نوح الحمام فإنه)

---

(١) يريد أمل .

(كالفك يدعوه الهوى فيُجيب)
(أذات الغضى ما أبهج الزهر ناجماً)
(وأجمل فيكِ البدر وهو يغيب !!)
(أرقُّ نسيمٍ في ثراكِ نشقته)
(على أنه بالذكريات يطيب)

***

(أحاول كتمان الهوى ويهزني)
(نسيمٌ سرى من نحوكم فأبوح)
(وكيف بسرّ الحب أن لا يُذيعه)
(دمٌ يمتريه الجفن وهو قريح)
(وساجلتُ في وادي الأراكِ حمامةً)
(تغني على أفنانها ، وأنوح)
(تعالَيْ أطارحك الهموم فإننا)
(كلانا سقيمٌ والغرام صحيح)

***

أذكريني يا أمل !!!

إذا تفيأت ظلال الدوح ، فإني أستقبل سَموم الهاجرة حاسر الرأس .

وإذا وردتِ الشاطىء ، وكرعت من سلساله ، فإني أغصّ بالفرات منه .

وإذا أوَيتِ إلى البيت ، فإني آوي منه إلى مضجعٍ نابٍ ووِسادٍ قلق .

أذكريني يا أمل !

كلما نبهك عصفور الصباح ينفض عنه رماد السحر فقزعت إلى المرج الأخضر ، وقد بزغت الشمس فعلى ورق الأشجار وفي جيوب الزهر من نورهـــا مثل الزئبق المترجرج .

أذكريني يا أمل عند طلوع البدر ، وهبوب نسيم السحر ، واصفرار شمس الأصيل !!

أذكريني يا أمل !

أذكريني ...

ابو غازي (١)

رستم بك !!

علمت أن أحد شيوخ القبائل التهاميين مرّ ببغداد متنكراً فهل أنت على علم به ؟؟؟

نعم مولاي ، إتصل بي من الاستاذ الشبيبي أنَّ أميراً تهامياً لا يزال في ميعة شبابه ، ورد العاصمة منذ أشهر وأقام بها مدة طويلة ، كان فيها مظهر الألم والشكوى ، كثير الصمت والتفكير ، على أنه لم يبسط لأحد حديثاً ، وقد

(١) هو جلالة الملك فيصل بن الحسين

فهمتُ من الرصافي أنه اجتمع به واستنشده شعره وأن اسمه وسيم .

ـ وسيم ؟؟؟

ـ نعم مولاي ! وسيم !

ـ وهل عندك علم بالوجهة التي قصدها ؟

ـ لم أتحقق ذلك يا مولاي ، ولكني سمعت أحد القادمين إلينا من عمان في الأسبوع الفائت يذكر أعرابياً من الحجاز ورد على سمو الأمير أخيك أرجح أنه هو .

ـ إذن فاذهب حريصاً على أن لا يفوتك الليلة إنفاذ رسالة بلساني لأبي طلال رجاء أن يحتفي بالرجل ويوفده إلينا عزيزاً مكرّماً ، فإنه من أشراف تهامة الثابتين على ولائنا والمتفانين في قضيتنا وأخشى أن لا يكون أبو طلال قد تنبه لذلك فينال الرجل سوء المغبة من أجلنا .

الحل

فريدة ، فريدة !

هيا بنا حبّابه ! إستعدي للسفر فقد توفقت لرهن أملاكنا ست سنوات لقاء ثمانمائة دينار تدفع أقساطاً ، فلم يبق إلا أن نرحل إلى الحجاز براً بالموعد أخيّه .

هلمي عملك ! ها أنا ذا في المكتب أعلم وسيماً بخروجنا في الأسبوع القادم ليستقبلنا على مرفأ جده .

...

عزيزي وسيم ..

للناس ربيع واحد في السنة وقد مر ، أما نحن فليس لربيعنا حد ينتهي إليه لكن يبتدىء فيه ، وهو اليوم الثالث من تموز الذي سأبحر فيه إليك .

وسيم !!

مرَّ على كتابي إليك أشهر ، وليس في يدي منك ما يُطمئنني عنك ، فهل هنالك ما يدعو إلى هـــذه الفترة الباردة ؟

قلقت لذلك كثيراً غير أني ...

عفواً يا وسيم !

لا آخذك بجفائك فربما كان من حـدث الحجاز الذي أسمع به ويشغلني عن تتبع حوادثه إعـــداد الأهبة إليك ، ربما كان من ذلك ما يشغلك عن جوابي .

على أن كتابي الأخير لم يكن ليستـدعي جواباً منك ، إذ هو جواب على كتابك الأول .

عزيزي !

كيف أنت وسرحة الوادي ، وعين الغدير وما يرفّ عليها من أهداب الشجر ؟

وكيف القصر والغرفة الجديدة ؟

هل دهنت باطنها باللون الفستقي الذي أحبه كثيراً ؟

وكيف الروضة التي غرسناها أمام بيتنا الجديد ؟

ضم عني شجرة السرو الصغيرة التي غرستها بيدي تجاه سروتك إلى جانبي الغرفة .

وقبّل عني الصخرة التي كنا نتكىء عليها في ظل سرحتنا الكبيرة المشرفة على القصر .

أنهيت أعمالي على ما تحب ولم يبق بيني وبينك إلا ريثما أضم إلى متاعي الخاص ما أعددته لي ولك من لباس جمع إلى جمال الزي الحديث أنه صالح لنا بين صخور تهامة وفي حقولها الجرداء .

إرتقب نزولي ميناء جدة في اليوم التاسع من شهر تموز على ظهر الباخرة الخديوية واسلم لعزيزتك .

أمـــل

صلــة

رست الباخرة على الشاطىء ولفظت ركابها إلى المرفأ ، وقد غص بالمستقبلين إلاّ وسيماً ، أما أمل فإنها ما فتئت منذ عبرت السفينة حاجز الميناء حتى بلوغها رصيف المرفأ ، تتصفح الوجوه فلم تقع عينها على ما تتشوف إليه ، فأرجف بها الظن وعرض لها اليأس بعد فراق طويل ، فدمعت عيناها ثم تجلدت وأمرت وصيفتها باكتراء سيارة إلى مكة فالطائف ، ومن ثم تابعت السير على الخيل إلى السراة وهي على أمض ما يزعج النفس خوفاً وقلقاً .

دخلت الحي فلم يبق من نسائه من لم تهرع إليها ،

حفاة حواسر لم يخلعن لباس الحداد منذ قتل حميد وغاب سيدهن وسيم .

لم تستطع أن تسمع من بين أصواتهن البح صوتاً يشير لها إلى ما يرمين إليه بالنواح والولولة ، ولا أن ترى من خلال تلك الوجوه الحزينة السمحاء وجهاً لم يشنّجه المصاب فتصل به إلى ما تحاول خُبره .

أحدقن بها يتنازعن فضل ردائهـــا لثماً وشماً ويأخذن من تراب قدميها ما يعفرن به الوجوه وينثرنه فوق رؤوسهن ويرددن لحناً لم تفهم إلا منه لفظ وسيم .

ولبثت بينهن مذهولة حائرة اللب لا تدري ماذا تصنع ، ولا كيف تبصر أو تسمع .

نسيت أو تناست أن تفزع إلى السمع ملاذها أيان يدهمها المصاب ونسيت أن تتأثر خبر الكارثة حتى لقد نسيت نفسها أين هي وكيف جاءت وإلى أين تمضي ؟؟

★★★

أين وسيم يا فاطم[1] ؟؟

أوَ هذا وفاؤه ؟ أكتب إليه من الشام بما وصلت إليه من التضحية في سبيل رضاه، ثم لا يقطع بضعة فراسخ يستقبل من ورائها أحب الناس إليه وأشغلهم به .

لا أدري أيّ قلب يجن ولا أيّ نفس يحمل ؟

ثم أين هو الآن ؟ أيريد أن أفاجئه على شاطىء الغدير ولا يلتفت إليّ ؟

أين فريده ؟ وأدارت عينيها فيما حولها فانتفضت من الذعر أن رأت خيال وسيم على الجدار تحيط به هالة سوداء وكأن الدهشة لم تكن ، وراحت تجيل طرفها في وجوه النسوة الثواكل حولها وقد شغلهنّ المصاب عما فاجأهن بالأمس من خبر اعتلال وسيم وإخفاقه في مسعاه ويأسه من العودة إليهم ، فاسترجعت رشدها وثابت إلى تفكيرها فأشارت فاطم عند ذاك

(١) هي أخت وسيم .

إلى من حضر من النساء أن يغادرن المكان إشفاقاً على أمل من الخطر إذا رأتهن على ما هن فيه وقد ثاب إليها عقلها .

. . .

فريده !!!

ألعله عرض لوسيم حادث ؟؟

فإني أرى مظاهر الحزن تشعر بفداحة الخطب فهل بلغك شيء من ذلك ؟

— سمعت بعضهن يتخافتن بورود كتاب ممن رآه مريضاً في مدينة الصلت من أرض البلقاء ، ولا أعلم مبلغ هذا الخبر من الصحة .



أمل

في منعطف الوادي

خذي بيدي يا فريده : فقد أشعرت أن غشاء حال بين عينيّ وبين النور أن بدا لي القصر وقد جف الغدير أمامه وصوّح النبت على ضفافه ، وعريت فروع الشجر المحدق به من نضارتها ، كأنها بما يتساقط من ورقها الأصفر إنما تبكي به الغدير أو تنعي إليه شبابها الذاوي .

خذي بيدي يا فريده :

فقد خانتني قواي أن أتماسك وشمس القيظ تجني على ربيع الوادي أضعاف ما

جنته يد العدوّ الآثم على قصره الجميل .

ها هو ذا هجير القيظ قد أخنى على جمال وادينا المحبوب .

أتراه كذلك ؟ أم جنى عليه فراق الحبيب ...

(هنا نثروا حبّ الدموع فهاته)

(بخديكَ من محمرّهن نظيما)

(ولستَ بمعطٍ قلبك اليوم حقه)

(إذا لم تُعد غض النبات هشيما)

أيّ الذكريات تمر بي ولا أتبين من ورائها ثغرك البسام يا وسيم ؟

ليت شعري أين أنت !

في أي أفق تسطع ، وعلى أي وادٍ تشرف ؟

أتجوز بغداد إلى عمان ولا أعلم بك يا وسيم ؟

هب أنك رغبت عن زيارتي لجفاء أو حياء ! أفعند

الزوراء فوق ما عند الفيحاء مما يصبو إليه الشاعر جمالاً وجلالاً ؟

مُرّ بالشام يا وسيم ، لعلك تخلع على أفقها من جمالك ما يحول دون ظلمته في عينيّ أيام عودي إليها وأنت بعيد عني .

مرّ بالشام يا وسيم ، لعلك تبعث مع السحر خيالك أتلمّسُ فيه طعم النوم قُبيل الفجر الشاحب .

أوَ ما كنت وفيّة لك يا وسيم ؟ إذ ضحيت بما لدي في هواك وعدت إليك في هذه الجرود والأخاشب ، أوثر العيش فيها إلى جنبك على حيـــاة خلفت نعيمها ورائي يرف جماله على ثرى واريت فيه أمي وطالما حنّ إلى لثمه أبي .

فأين وفاؤك يا وسيم .

أفي كتبك التي لم تزل تترى عليّ منذ أبحرتَ حتى نزلت عمان ؟

أم في زياراتك الشام وفيها أملك المنشود كما زعمت ؟

أوهِ على لياليَّ الجميلة !!!

ما أجمل ما كان يطالعني بدرها من هــذه الرابية فيسكب على فم وسيم وعينيه البراقتين كأساً من الفضة المذابة مشوباً بشحوب المساء الحزين !

هذه هي السرحة يا وسيم ، أفلا يشتمل ظلها علينا بعدُ قُبيل مغيب الشمس ؟

وهذا هو الغدير : أفلا أسقيك منه بيديّ ثانيـة وتنفحني بزهر النيلوفر السابح فيه ؟

وهذه هي الصخرة التي كنا نتوسدها متقابلين نتبادل حديث الحب .

تعال نعش يا وسيم خليين من هموم الحياة .

أوَ لم تكتب إليّ أنّا سنحيا بعيدين عن الهم في جنة وارفة الظلال ونعيم خالد العيش ؟

ما أدري ولعلك على عــذر في هجرك ، فلست

أجهل أن النفوس الكبيرة قلما تُبقي على ذويها في طريقهم إلى العز .

رحماك يا وسيم ! لقد ضاق بي الفضاء على رحبه واجتواني كل مُلابسٍ لي حتى هذا الطمر البالي الذي أتلفع به بعدك ، وأغلق اليأس في وجهي كلَّ باب أنفذ منه إلى الأمل في الحياة .

أنا أعلم أنك أصبحت مشرّداً لا تستطيع أن تعود إلى وطنك ما لم تؤمن على حياتك ، فأنا أعذرك من هذه الجهة ولكني أخطئك فيما كان منك من قطيعة لم تجن منها غير ما جنيت عليَّ من عناء السفر وآلام الفراق .

عفا الله عما سلف يا وسيم فقد أجد جفاءك الماضي مغتفراً في جنب حبي لك وإحسانك القابل إليَّ على أن توافيني إلى دمشق نعيش بها هذه الفترة في كوخ حقير على ضفاف بردى وفي ظلال الزيزفون بعيدين عن كل ما هنالك إلا الماء والشمس والهواء .

ها أنا ذا سأغادر تهامة بعد أيام قلائل أستريح بها

إلى ذكرك من عناء السفر ثم استأنف السير إليك .
فإلى اللقاء يا حبيب .

أمل

★★★

(أأحبابنا كم وقفة لي بعـــدكم)
(على الربع محني الأضالع باكيا)
(أسائل عن صبحي رواكد أنجم)
(على وجنتي أمشـــالهن جواريا)
(سلوا الحجر الصلد الذي بت جاره)
(أناجيه والدمع الذي بات جاريا)
(هل الحب إلا ما تبث جوانحي)
(إليكم وإلا مـا يحن جنانيـا)
(بكى لي حتى الزهر شجواً ولو وعى)
(حنيني لكم صلد الصفا لبكى ليا)

★★★

(على دمن كم بت ، وهي أواهل)

(بها جذلاً ، أبكي وهن خوالي)

(منازلنا ماذا أصابك بعدنا)

(فأصبحت والأيام فيك ليالي)

(كأني وقد عفرت خدي بتربها)

(أزاول تبراً أو أشم غوالي)

(كأن حصى الماء الذي تركوا بها)

(سبائك در في مذاب لآلي)

★★★

(حجرت على عيني الكرى وتركتني)

(أراقب فيك الصبح من أين يطلع)

(سل الليل هل للشهب، وهي مدامع)

(تحدّرن ، إلا غرب عينيّ مطلع)

(وهل نسمات الروض إلا شمائل)

(سرى نشرها عن عرفكم يتضوع)

(وما الورد مشقوقَ الجيوب ندبةً)

(بنانقــــه إلا حبيب مودع)

(بكى لي، والسر الذي فض دمعه)

(عليَّ ، له صم الصفا تتصـدع)



أمل

على فراش الألم

يتمشى المرء في حياته، والدهر غافل عنه، بين حلم عذب وأمل سام، يكاد يلمس بكلتا يديه من ورائهما مستقبلاً سائغ العيش خالد النعيم، فهو إذ ذاك أعمى البصيرة أصم القلب عن كل ما ينذره بغوائل الدهر الماثلة كل لحظة أمامه وبين يديه وعلى مرأى منه ومسمع.

مسكين هذا الإنسان يتقلب في نعيمه الحاضر وهو غافل أو لعله يتغافل عما يحدق به من نوائب تتحداه وتتربص به

الدوائر فيخال نفسه في جنة وارفة الظلال بعيدة عن كل ما يفضي بزهرها إلى الذبول وشمسها إلى الأفول .

قد كنت ويا أبهج ما كنت فيه من حيـــاة ، لا أحسب للدهر حساباً في جنب من غطى هواه على سمعي وبصري رغم أني قريبة العهد مما أشرف به على الدهر جدَّ بصيرة لو فتح لي الأمل في الحياة معـــه باباً إلى الحذر من غوائل القدر .

أمارة عربية ورائية لا تزول ونحن في ظلها ، وعيش هادىء في أفياء هذه الصخور وظلال أشجارها على ضفة هذا الغدير الجميل ، تحت هـذه السماء الصافية الأديم ، وهذه الشمس السابحة في هوائه الطلق بعيدين عن كل ما يدفع بالحي إلى هوة الشقاء من ضيق في عيش أو فساد في مجتمع .

ماذا جنيت يا أمل ، وكل حياتك آلام ، فكنت هدفاً لسهام المصائب ؟؟

تلك حياتكِ منذ لبست التمائم حتى تفتقت عنك الكمائم ، أفترقبين وقد أوشك زهرك أن يقيظ وماؤك أن يغيظ ، حياةً يغسل الدهر بها عاره ويكفّر بها عن ذنوبه ؟؟

أفترقبين من الدهر يا أمل ، وقد قتلتِه خُبراً وأوغلت به سبراً ، سعادةً لم تراقبك فيها عينه ولم تنازعك نعيمها يده ؟؟

ما أدري ، ولعل أسعد أبنائه أبعدهم عن هذه الفِكَر الحائمة حول النور المنبعث من هذه الكوّة !!! كوة العقل ...

وأشقاهم في الحياة أقربهم منها وأحفلهم بها !!

ولعل عينه معقودة الهدب بالنابهين من أبنائه ، مقصورة الرقبة عليهم أن لا يقفوا منه على غدر أو خيانة تنذر بفضيحته فهو إذ ذاك إلى أن يغتالهم أسرع ، وعلى أن يبيدهم أحرص ...

يا وسيم !!

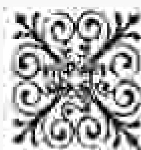
ماذا أقول لك؟ وبماذا أخاطبك؟ فقد نفد الجلد على تنميق اللفظ، ومللت التفكير على فراش أذابني فيه السهر والحمى وأيأسني الهم والحزن من كل ما أؤمّل حتى الوقوف على خبر منك يضمن لي بقاءك حياً.

أنا هنا يا وسيم على مقربة من الغدير أسأل عنك حفيف الورق المتساقط على جوانبه، ونقيق الضفادع الراسبة في حمأته، واختلاف الرياح المتناوحة في فج الوادي، أدير عيني فيما حولي فتمر بي سريعةً، ذكريات الماضي فتفيض محاجري على خدي فأكفكف عبراتي ثم أعود فأرمي برأسي على الوسادة وقد أنهكني المرض وغشيتني سكرة الألم حتى يمر بي خيالك فأنتبه لك.

لا أدري أأغشاك حيث أنت أم يطول بي أجل هذا الدّوّار ثم ينتهي بنا إلى حيث تنعم عين الدهر بما أسلف، وتفيض عدوة الوادي بدموع الحب بعدنا ؟!

يا فريده !!

تعالي أُخيَّه ؟ وسنديني فقد يبس جنبي من جفاء ما يلامس ، وأحسست أن مـــا في الأرض من خشاش يدب في عروقي ، وكلما أوقدت الحمى نارها بين جنبيَّ أشعرت أن لهيبها يكشط جلدة وجهي ، ويندلع لسانه من عينيّ حتى أكاد أسمع حولها حفيف أجفاني .



الزلزال

لم تأزف الساعة الثامنة من مساء اليوم الثاني عشر من شهر تموز سنة (٢٧) إلا وجو الأردن مكفهر بالعجاج لا تتبيّن أرضه من سمائه ، عصفت فيه ريح زعزع سوداء سدت جوانب الأفق بما حشدته من رهج الموت ، تخنق الأنفاس بما تحمله من ريح الفوسفور والكبريت المحترق ، ويصك هزيمها الأسماع بما يقصف ويزمزم ، ويحول تكاثف ما تنشره في الآفاق دون أن تتبين ما يشير إلى الشمس في أية نواحي الأفق هي ؟؟؟

على أثر هذا الإنقلاب الهائل هلعت قلوب الناس ، وقامت قيامتهم بين صياح النساء وعجيج الأطفال ، واستولى الرعب على النفوس فلم تجد كنازلها ملاذاً إليه فيعصمها من هول ما تتوقع .

على أثر ذلك انفجر بركان الأزرق ، فمادت له الأرض ومارت السماء وكان الزلزال المشؤوم ...

البوظلال

يا شيخ فؤاد :

نعم مولاي . . . .

أخبرتك أمس أنه ورد علينا منذ أشهر أحد شيوخ القبائل الحجازية الشيخ وسيم ، وأني أبلغت رئيس الخدم إذ ذاك أن ينوط ضيافته بك وها قد أخذت رسالة من أبي غازي يسألني عنه ، فأين هو الآن ؟؟

ـ قدمت لسموكم أني لم أعلم من أمره شيئاً ، وسألت رئيس الديوان ورئيس

الحرس وكلاً من خدم القصر فلم أقف له على خبر يثبت وجوده الحالي ، إلا أن الشيخ عبود إمام المقر أخبرني أنه لبث في المضيف بضعة أسابيع كان فيها حليف الهم والعزلة والتفكير ، ثم غادر المقر[1] دون أن يطلع أحداً على أمره .

وأخذت خبراً آخر من غالب (باشا) وصادق عليه حامد (باشا) ومحمد (بك) الأنسي أنه كان يسأل عن بلد قريب يكثر فيه الشجر والمياه ، فلعله اختار مدينة الصلت متنزّهاً فأمروا بالاستعلام عنه . . .



(١) هو (رغدان) قصر الملك .

الخاتمة

« كذلك تضيع النوابغ عندك »
يا أبا طلال

هكذا وجد بخط وسيم على جلد الكتاب الذي ضمنه خواطره وذكراه لحبيبته أمل بعد أن أخرج من تحت الأنقاض ضحية الزلزال.

وكانت عبرة أبي نايف جِدّ سخينة لدى وقوفه على خبره وإلقاء نظره على الكتاب وتصفُّحه ما اشتمل عليه من خواطر مؤلمة، ونظريات سامية في الحياة والأدب، وظل يقلّب كفيه حسرة على ما فرط في رعاية أوفى رجل أخلص لهم وضحّى ملكه

وحياته في سبيل ملكهم .

ثم طوى كتابه وختمه وأرسل به إلى أهله ، فكان لوصول نبأه مأتم أظلم له الأفق بسواد الحداد ، ومناحة اهتزت لها أجرام السماء .

★★★

أفاقت أمل صباح ذلك اليوم من سكرة الحمى فأرجفت بما ترامى إليها من صياح القوم على مسافة ميلين ، وأمرت وصيفتها باستطلاع الخبر فامتثلت ثم عادت تحمل وجهاً غير الوجه الذي ذهبت به ، وحالة غير الحالة التي كانت عليها ، وحاولت أن تخفي ما وراءها عن أمل المسجاة أمامها ، فسبقها الدمع إلى كشفه ، فقالت لها أمل :

مالك يا فريده ؟؟؟

أصدقيني الخبر !!!

لا تخفي عني شيئاً !!!

فغمغمت فريدة في كلامها وزاد ذلك في تعرّي أمل واضطرابها فعقبت :

تكلمي يا فريدة !!!

أفصحي عما أرسلتك به !!!

وبعد قليل كانت مستندة إلى الصخرة الكبيرة تحت السرحة المشرفة على المنعطف وفي يدها كتاب تقرأ على ظهره :

ـ ذكرى وسيم بين يدي أمله ـ

(تمت)

المآسي

قصة

قصة الفلسفة والنفس والأدب العالي الرفيع. واليك نبذة من القصة.

... فدنت منه ومسحت خديه بكفيها ثم احتضنته ووضعت رأسها على صدره وانتحبت طويلاً حتى انصب عليها فأضجعها الى جانب الرجل ثم اهوى الى رأسها فقبله وهو يقول:

ودّعته وبودّي لو يودّعني ... صفوُ الحياة واني لا اودّعه

ثم رجع الى الطريق ووقف موقف المناجز. حتى اذا دنوا منه وعرفهم نادى كبيرهم وهو عمه فقال: المصافحة يا عم ... قال حباً وكرامة. فبرز اليه فطعنه فقتله ثم برز أخوها الأكبر فتوقف عن مبارزته وقال استبقني يا عم فانني ضيرك من ذاته. فلم اجبه متنصحاً ولا راشداً وابن اخويها فقتلها. ثم اعاد القول على عمه وقال لعلني اكفيك مرارة لحدين الشهيدين في سياقي فقال: تزهيد في الحياة بعدهم. فبارزه الشاب وضربه ضربة مستفرة على عجزه ولم يجهز عليه فالتقاه الشيخ بطعنة بقرنه وطن فوقها قتيلين.. كل ذلك كان على مرأى من سعاد وقد حاولت بعد ذلك ان تنهض الى المعركة فلم تستطع لما عقد رجليها من هول ما رأته. ولبثت تدير عينيها فيما حولها فاقدة رشدها. أبوها عن يمينها واخوتها عن يسارها وابن عمها ودارها وحبيبها امامها...



الثمن

٥٠٠ ق.ل.

٥٥٠ ق.س.

٥٥٠ فلس عراقي